دخان

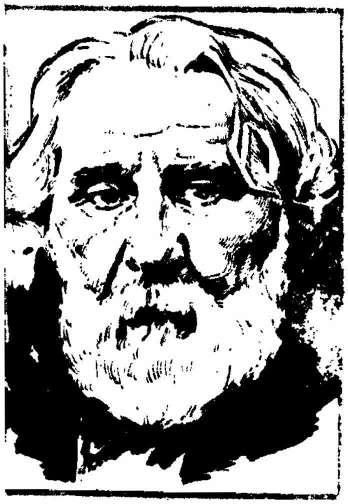


ايفان تورجنيف

هذه الرواية

« دخان » هى احدى الروايات الممتعة الهامة التى كتبها الروائى الروسى العالمى الكبير « ايفان تورجنيف « ١٨١٨ ــ ١٨٨٣ » ٠٠ وقد كان لهذه الرواية قيمة ادبية وفكرية بعد أن انتقلت بسرعة شديدة من روسيا الى أوروبا عن طريق الترجمات المختلفة ٠ انها احدى الاعمال الفنية التى تجلت فيها قدرات « تورجنيف » الفنية والفكرية العالية ، فهو فنان رقيق تمتلىء كتابته بالشاعرية المرهفة ، وهو عدو لكل ما فى الحياة من قبح ، سواء كان هذا القبح فى المجتمع او فى الانسان ، وهو صاحب موهبة روائية ساحرة ممتعة ٠٠ تجرى الاحداث والمواقف المختلفة من بين يديه كانها قطعة من الموسيقى الساحرة الجميلة تهز العواطف وتملأ القلب بالمشاعر والانفعالات ٠ وهو الى جانب ذلك كله عميق الفهم للحياة والانسان بشكل يمنح فنه عمقا فكريا كبيرا ٠

وقد ترجم هذه الرواية للعربية الناقد الفنان الدكتور شكرى عياد استاذ الادب العربى فى جامعة القاهرة ٠٠٠ انها رواية عالمية رائعة تقدمها روايات الهلال فى ترجمة كاملة دقيقة ممتعة ٠



ايفان تورجنيف

دخان

بقلم

إيفان تورجنيف

ترجمة

دكتور شكري محمد عياد

تقديم

حوالى منتصف القرن التاسع عشر كان يلوح على الافق الاوربى ظل كبير .. ظل الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت . لقد عاد آل بوربون الى فرنسا كما كانوا قبل الثورة ، ومات نابليون ، شبه مجنون ، فىجزيرة سانت هيلانة ، ولكن كلمة الحرية ظلت تتردد فى أرجاء أوربا فتتلقفها الملايين . وعلى الرغم من « الحلف المقدس » وهجمات الرجعية المستأسدة فقد استمرت ثورات التحرر الوطنى ، كما استمرت حركات المطالبة بالحكم النيابى ، فتحررت ايطاليا ، وتكررت الثورات الوطنية فى المجر، وبولندا ، وعادت الجمهورية فى فرنسا ، وفرض الاحرار الالمان حكومة ديمقراطية .

وفى هذا الجو كانت « روسيا المقدسة » ، وريثة الامبراطورية البيزنطية ، وحامية الدين المسيحى ، هى المعقل الاول للرجعية . وكان دور القيصرية فى مقاومة الحركات التحررية دورا متعدد الاوجه . كانت تفرض على بولندا وسائر مستعمراتها فى أوربا ، وآسيا عبودية أبدية ، وتخمد ثوراتها بعنف دموى . وكانت تضع جيوشها فى خدمة الرجعية الاوربية المرتبكة ، كما فعلت فى ثورة المجر وكانت ــ فى روسيا نفسها ــ تقمع بقسوة كل نزعة فكرية تشتم منها رائحة الحرية ، وكل دعوة اصلاحية تحبذ ــ سرا أو علانية ــ الحكومة الشعبية .

وفى حمى القمع والارهاب لم تكن الرجعية تفرق بين الافكار المعارضة لمصالحها حقيقة وبين الافكار التى يمكنها أن تستغلها وتستخدمها . كان « السلافوفيل » فى كثير من الاحيان يلقون من التنكيل مثلما يلقاه « الغربيون » مع أن السلافوفيل كانوا يقدمون الى الرجعية الروسية تكئة قوية لمقاومة الثورة ، وأساسا نظريا للمحافظة على القديم ، فقد كانوا يذهبون الى أن الحضارة الاوربية قد دب فيها الفساد ، فلا ينبغى أن تستعير روسيا من الغرب ،

بل يجب عليها أن تحافظ على نظمها « السلافية » الاصيلة . وكان خصومهم الغربيون — على العكس — يدعون الى الاقتباس من الغرب والتلمذة له ، ومعنى ذلك ، فى ذلك الوقت ، اقتباس وسائل الانتاج الحديث ، ونظم الحكم الديمقراطى ، وتراث العلم العالمي وأشكال الفن المتطور .

وكان تورجنيف من هذا الفريق الاخير . وقد ذهب الى أوربا شابا ليدرس الفلسفة فى احدى الجامعات الالمانية ، وليتنفس بحرية فى جو فكرى بعيد عن ارهاب القيصرية . ولكنه لم يكن « هاربا » ولم يكن متنكرا لوطنه ، بل لعله كان ، فى فراره من بلاده ، وطنيا حاد الوطنية . وعاطفة تورجنيف نحو وطنه — وهى العاطفة التى تجلت فى « دخان » وعبر عنها أصدق تعبير على لسان « بوتوجين » — تظهر فى هذه الكلمات التى وصف بها حالته فى صدر شبابه .

« ان الحركة التى كانت تدفع بأترابى من الشبان الى البلاد الاجنبية كانت تعيد الى الذاكرة صورة أولئك الصقالبة الاقدمين الذين ذهبوا يبحثون عن أمراء لهم بين «الفارج» وراء البحار(١). فكل منا كان يحس احساسا عميقا أن « أرضه » (ولا أعنى الوطن على التعميم بل تراث الآباء الخلقى والفكرى) « أرض عظيمة غنية ولكنها خلو من النظام » . وأستطيع أن أقول عن نفسى أننى شعرت شعورا أليما بمساوىء هذا الانتزاع من منبتى الاصلى ، وهذا القطع العنيف لكل صلة تربطنى بالبيئة التى شببت فيها .. ولكنى لم أكن أستطيع غير ذلك . فان هذه الحياة ، وهذا الوسط ، وبخاصة هذه الدائرة التى كنت منتميا اليها دائرة ملاك الارض وأصحاب العبيد ، لم يكن فيها ما يدعونى الى البقاء . بل على العكس ، كان كل ما أراه حولى تقريبا يبعث فى نفسى شعور القلق والثورة ، أو باختصار شعور الاشمئزاز . فلم أستطع التردد طويلا ، اذ لم يكن بد من احدى اثنتين : اما أن أخضع وأسير بهدوء فى الدرب المطروق ، واما أن أنتزع نفسى دفعة واحدة ، وأتخلص من كل شيء وكل انسان ، وان أدى ذلك الى حرمانى

(١) يشير تورجنيف الى نزوح احدى قبائل اسكندناوة الى روسيا فى مستهل القرن التاسع وتأسيسهم الامارات هناك . وقد ورد ذكر هذه الوقعة فى « دخان » . والعبارة الموضوعة هنا بين أقواس هى العبارة التى يروى أن مبعوثى الصقالبة قالوها لأمراء الفارج .

أشياء كثيرة حبيبة الى قلبى. وكان ذلك هو السبيل الذى اخترته. فألقيت بنفسى فى « الخضم الالمانى » ليطهرنى ويجدد حياتى ، حتى اذا خرجت من مياهه وجدت نفسى « غريبا » ، وكذلك بقيت. فلم أستطع أن أتنفس وأعيش وجها لوجه مع ما كنت أكره ، ولعله كان يعوزنى السيطرة على النفس وقوة الشخصية اللازمتان لذلك. كان على أن أبتعد عن عدوى مهما يكن الثمن ، كى أسدد اليه عن بعد ضربات أشد قوة . وقد كنت أرى لهذا العدو وجها واضح القسمات وكان له عندى اسم معروف . كان عدوى هو حق الاسترقاق . وتحت هذا الاسم جمعت كل ما كنت عازما على مصارعته الى النهاية ، كل ما أقسمت على محاربته بغير مهادنة. كان ذلك عندى هو قسم هانيبال . ولم أكن وحدى صاحب هذا القسم . وذهبت الى الغرب كى أبر بقسمى .. »

وحوالى سنة ١٨٤٧ ، كان تورجنيف فى روسيا . وبدأ ينشر صورا من حياة الفلاحين كانت معولا من المعاول القوية التى وجهت الى نظام الرقيق . وكانت قوتها فى واقعيتها الانسانية التى أظهرت هؤلاء الفلاحين الارقاء ، لأول مرة فى تاريخ الادب الروسى ، فى مشاهد حياتهم العادية القاسية ، وصورت آمالهم وآلامهم ، فكأنها نبهت الى أنهم بشر كغيرهم من الناس . وقد جمع تورجنيف هذه الصور فى كتابه «مشاهد من حياة صياد» (١٨٥٢) وعوقب بالنفى الى الريف . ولكن الرجعية لم تستطع أن تمضى فى استبدادها الى النهاية . فان الفلاحين أنفسهم بدأوا يثورون ، وتكررت حوادث العصيان الجماعى حتى بلغ عددها فى سنة ١٨٤٨ وحدها أربعة وستين . وأدت سياسة القيصر نيكولاس الاول العدوانية الى حرب القرم سنة ١٨٥٤ ضد الدولة العثمانية، وحاربت انجلترا وفرنسا فى صف العثمانيين وهزمت روسيا هزائم متلاحقة حتى اضطر القيصر الكسندر الثانى الذى تولى العرش سنة ١٨٥٥ الى عقد الصلح بعد خسائر جسيمة لم تحصل البلاد من ورائها على فائدة ما . ثم بدأ سلسلة من الاصلاحات كان أولها وأهمها الغاء الرق سنة ١٨٦١ ، وجاءت بعد ذلك قوانين التجنيد الاجبارى ، وفتح الجامعات أمام أبناء الشعب، وادخال نظام المحلفين فى المحاكم الروسية ، ولكن الرجعية كانت تنظر شزرا الى هذه الاصلاحات ، وتحيطها بمختلف العراقيل ولم تلبث أن كشفت وجهها ثانية ، ففى سنة ١٨٦٥ رفض القيصر طلب النبلاء تأسيس مجلس

نيابى ، وتلا ذلك تعطيل الصحف الحرة ، واذاعة منشور رسمى بدعوة الشعب الى « مقاومة الافكار الخبيثة التى تهدم الدين والنظام والملكية الخاصة » . وبينما كانت الرجعية تشدد قبضتها بدأ الفكر الروسى يتحول من التحرر الى الثورة . وكما هى العادة دائما فى مثل هذا التحول امتلأت أجواء المثقفين بالبدع الفكرية ، والدعوات الكاذبة ، والمغامرات الصبيانية . وكان هذا هو الجو الذى كتب فيه تورجنيف « دخان » سنة ١٨٦٨ .

صور تورجنيف فى « دخان » جماعات من المغتربين الروس فى مصيف ألمانى . فصور المجتمع الارستقراطى بأناقته وتفاهته وفراغه وانحلاله . كما صور منتديات أكثر شعبية ، منتديات أدعياء التحرر بمناقشاتهم العقيمة وخضوعهم الاعمى لشعار أو قائد . والتقط عيوب هؤلاء وأولئك بعين نافذة خبيرة ، وصورها بدقة حفار ، فجعلها نماذج رائعة للهجاء الواقعى . على أن هذه الصور ليست مجرد هجاء سياسى ، بل ان وراءها احساسا مرا ، احساسا تراجيديا بضياع الجهد الانسانى واضطراب الفكر الانسانى ، وغموض المصير الانسانى . وقد لخص الروائى هذا الاحساس فى عنوان الرواية « دخان » ألذى أخذه من هذه الفقرة قرب الخاتمة ، وهى تذكرنا تذكيرا قويا بسفر الجامعة :

« وجعل ينظر من نافذة القطار . كان الجو أغبر رطبا ، لا مطر فيه ، ولكن الضباب لا ينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء . وهبت الريح فى مواجهة القطار ، فاندفع أمام النافذة التى جلس اليها اتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة . وأخذ اتفينوف يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ، ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتلوى وتتعلق بالاعشاب والشجيرات ، وكأنها تلعب فى احدى المساخر . ثم تتمدد وتذوب فى الفضاء .. كانت تتبدل دائما وهى لاتزال كما هى .. لعبة سريعة سخيفة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمنة أو يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان مايبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة . ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الرين الفسيح . حدق وحدق ، واستولى عليه شرود غريب .. كان وحيدا فى المقصورة ، لم يكن هناك من يزعجه ، فردد مرات عديدة : دخان . وفجأة بدا له

كل شيء دخانا ـ كل شيء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل ما هو بشرى ، وعلى الخصوص كل ما هو روسى . الكل دخان وبخار ـ هكذا قال لنفسه ـ كل شيء يبدو دائم التغير ، فى كل مكان أشكال جديدة ، أحداث بعد أحداث ، وكل شيء كما هو فى الصميم . كل شيء يسرع طائرا الى وجهة ما ، وكل شيء يتلاشى دون ان يترك أثرا أو يبلغ أمرا ، وتتغير الريح ، فيسرع كل شيء فى الاتجاه المضاد، وهناك تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلقة العقيم . وتذكر كثيرا مما شاهده بنفسه فى السنوات الاخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج ، فهمس : دخان ، دخان . وتذكر الجدل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف ، وعند أناس آخرين منهم الشبان والشيوخ ، البسطاء والعظماء ، التقدميون والرجعيون .. فردد . دخان ، بخار ودخان . وتذكر أخيرا تلك النزهة الانيقة ، وتذكر خطبا وتصريحات وأشخاصا آخرين يعدون أنفسهم لأكبر المناصب حتى كل مواعظ بوتوجين .. دخان ، دخان ، لا شيء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه؟ لم يستطع لتفينوف الا أن يلوح بيده فى قنوط » .

ولكننا ننسى أن « دخان » رواية وليست سياسة . فالسياسة فى « دخان » ، كما هى فى معظم الروايات ، مرتبطة بقصة حب . والكاتب البارع هو الذى يجعل الحب والسياسة وحدة ، فتتداخل الحوادث السياسية فى حوادث الحب ، وتؤثر فيها ، وقد تتأثر بها . ولكن الكاتب الأبرع لا يحتاج دائما الى اصطناع مثل هذا الربط فى العقدة ـ وكثيرا ما يكون متكلفا ـ بل يقدمهما معا كعنصرين فى جو واحد ، ويحقق التلاؤم بينهما بمبادىء شكلية غير تسلسل الحوادث التى يؤثر بعضها فى بعض . وهذا ما نجده فى « دخان » .

فلتفينوف ، الشاب الامين المثابر الذى يقع تحت سلطان عاطفة غشوم مستعرة نحو امرأة ارستقراطية نارية ، وهو فى الوقت نفسه قد خطب قريبة له يتمثل فيها نموذج الفتاة الطيبة الحنون فى أسر نبلاء الريف المتوسطى الحال ـ لتفينوف لا يشارك فى المناقشات السياسية وغيرها الا متفرجا ، ولايحتك بالشخصيات الارستقراطية أو بأدعياء التحرر الا مرغما . لأنه « ان شئت الحقيقة ليس لى آراء سياسية » . على أن الحقيقة هى انه ضنين باستعمال كلمة السياسة لمثل هذا الضجيج المتنافر الذى يسمعه عند أدعياء

التحرر وأقطاب الارستقراطية جميعا . ولكن كبرياءه الشعبية النظيفة تثور اذا سمع هجوما على حق الشعب فى التعلم او فى التملك أو فى الحرية . ان السياسة عنده تتلخص فى كلمتين : « الحرية ، والعمل » . وحين يعود الى بلاده يجد أن آراءه هذه التى رفض أن يسميها آراء سياسية كانت أقرب إلى الصواب من كل ما سمعه من أولئك « الثوريين » الذين تنكروا لمبادئهم بعد قليل . فقد « كانت المبادىء الجديدة (مبادىء الاصلاح) لم ترسخ أصولها بعد ، والمبادىء القديمة قد فقدت كل قوة . كان الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذى اهتز من أساسه يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك الا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية » . ولعل هذا هو الدرس السياسى الذى اراد تورجنيف أن يؤديه فى « دخان » . ولكن هذا الدرس ، والاجواء السياسية التى مهدت له ، لا تكاد تتصل بالقصة العاطفية بالمعنى الشائع من الاتصال وهو التأثير المتبادل بين نوعين من الاحداث . فكيف ربط تورجنيف بينهما ؟

ان الرباط هنا رباط شعورى يظهر فى الفقرة التى سبقت الاشارة اليها . لقد فكر لتفينوف فى « جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه » بعد أن مرت بمخيلته ذكريات الاحداث السياسية التى أحيطت بالضجيج والتهريج ، والجدل العنيف والصياح والنقاش عند أناس كثيرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، والتقدميون والرجعيون. كأنما « جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه » كانت تحمل ، عن غير وعى منه ، صدى هذا الضجيج والجدل العنيف . وكأن الرواية كلها تمثل أمل تورجنيف فى أن تخرج بلاده ، أن يخرج احرار بلاده من الضجيج السياسى الى العمل الصبور المثمر ، كما خرج لتفينوف من ضجيجه العاطفى الى حب عطوف مستقر . ولابد لهذا الخروج من تضحيات. لابد من تضحية وهج العاطفة ، ونشوة البطولة ، وسكرة الحلم ، من اجل حقيقة أكثر ثباتا . ولابد للروائى اذن أن يضحى بقمة شامخة مثل « بازاروف » بطل « الآباء والأبناء » التى كتبها سنة ١٨٦٢ ، ليجعل بطله فى « دخان » تلا صغيرا ، هو لتفينوف . وهذه هى الملاحظة التى أبداها الزعيم الثورى بيساريف — على سبيل النقد — حين سأله تورجنيف عن رأيه فى « دخان » : ولكن التل الصغير ، « لتفينوف » ، لازم للتعبير عن الجوهر

الجوهر التراجيدى فى روايتنا هذه . الحياة تتقدم ، ويجب أن تتقـدم . وحين تتقدم الحياة يكسب الاحياء ، ولـكى يكسـبوا يجب أن يخسروا . لن يعرف لتفينوف مع تاتيانا تلك النشـوة التى وجدها بين ذراعى ايرينا ، ولـكنه سيذهب الى تاتيانا . ولن يصنع الشعب الروسى معجزة بين عشـية وضحاها ولـكنه سيتقدم بمثابرة وصبر ليؤدى دوره المقسوم . هـذه هى حكمة تورجنيف فى « دخان » ، وهى حكمة كسـبها ، فى مجال التفكير السياسى والعاطفة الشخصية على السواء ، بتجربة السـنين المريرة ، لقـد هاجر تورجنيف فى شـبابه ليستطيع أن يضرب عدوه بقوة أكبر ، ولـكنه تعود بعد ذلك أن يقيم بعيداً عن وطنه ، ولعله كان ينزلق أحيانا الى مناقشات جوفاء عن مستقبل روسيا كهذه المناقشات التى يصورها فى «دخان» . وقد أحب تورجنيف المغنية الفرنسية ، الاسبانية الاصل ، بولين فياردو : أحبهـا بلا سـعادة ، كما أحب بوتوجين ايرينا ، من شبـابه الى كهولته ، ولم يستطع قط أن ينجو من أسر هذه العاطفة الجبارة كما نجا لتفينوف .

وحين جاءته فـكرة « دخان » ، وهو يدلف الى الخمسـين ، لم يستغرق فى كتابتها وقتا طويلا ، وكأنه وجد سريعا « البـديل الموضوعى » لحالته النفسية . ومع أنه شكا فى بعض خطاباته من الصعوبة التى وجدها عند بدء العمـل ، لطول انقطاعه عن الكتابة قبـل ذلك ، فاننـا نجد فيها فنه الـكامل ، الذى جعل « تين » يقول عنه : « انه أعظم فنان عرفته أوربا منذ سوفوكليس » . فمهما سخر أو هجا فان شخصياته تظل حية حيـاتها الخاصة ، ولا تتحول قط الى صـور خشبية . ومهما ملأ حواره السيـاسى بالاشـارات الى حوادث معاصرة فانه يعرف كيف وأين يضع هـذا الحوار ليظـل جزءاً متمما لبنـاء الرواية الفنى ، وان نسيت المناسبات التى يشير اليها . ويستطيع القارىء أن يمر بالهوامش التى أضفناها الى هـذه الترجمة ليتمثل الجو التاريخى للرواية ، ويستطيع ان يتركها دون أن يحس أنه ترك شيئا لابد منه لفهم الرواية نفسها . فالمناقشات السياسية والاجتماعية الخارجة عن الأحداث الرئيسية تؤدى وظيفتها الفنية الـكاملة عن طريق التقابل وتخفيف التوتر والهارمونية ، وما اليها من مبادىء شكلية أخرى يمكن أن تـكون محلا للدراسـة المفصلة ، وتفهم فى ضـوء هـذه

التقابلات وان لم يتحدد كل ما تشير اليه .

أما شخصية ايرينا فهى كما يقول عنها الناقد الانجليزى ادوارد جارنت :

« أن سر هذا الخلق الممتاز هو أنها تجمع بين الخير والشر على سواء حتى لتبدو النسوة الخيرات بجانبها تافهات والنسوة الشريرات مصنوعات . وقد حبتها الطبيعة فتنة آسرة يزيدها الخيال أسرا بذلك الموقف الذى تستجده بينها وبين لتفينوف . فهى ترغب فى السمو رغبة صادقة وتود لو تبلغ مثل الحب الأعلى الذى يتصوره قلب المراة . ولكنها لا تقوى الا على هدم الرجل الذى تحبه .. هل تستطيع أن تكون له بديلا من تاتيانا ؟ كلا ، انها لا تستطيع أن تكون كذلك لأى رجل ، فقد خلقت لتفسد دون أن يمسها الفساد ، وانها لتسترد سلطانها على نفسها بعد لحظات اللذة الاولى ، وانها لتظل مشتهاة وان لم تمنح قلبها كاملا للحبيب » .

هذه شخصية مليئة بالحياة . ومع ذلك فقد نتساءل : هل مصدر هذه الحياة ان لها شخصيتها الفردية المتميزة التى نتمثلها فى مواقف الهوى والغيرة والعناد والكبرياء والاندفاع والخيانة ، أم مصدره انها نموذج خيالى عام للمراة الخالدة التى ترمز للحياة نفسها : « المراة التى تفسد دون أن يمسها الفساد ... وتظل مشتهاة وان لم تمنح قلبها كاملا للحبيب » ؟ ان الجمع فى ايرينا بين طرفى الخصوص والعموم مثل من أمثلة فن تورجنيف الناضج ، وهو وحده كفيل بأن يحفظ لهذه الرواية مكانة ممتازة بين ذخائر الأدب الخالد .

شكرى محمد عياد

حول الساعة العاشرة من عصر ١٠ أغسطس سنة ١٨٦٢ كنت ترى كثيرا من النـاس محتشدين أمام « بهو السمر » الشهير فى بادن بادن . وكان الجو رائقا وكل ما يطيف بالمكان يرتع جذلان فى أشعة الشمس الحنون : الاشجار الخضراء ، البيوت الزاهيـة الالوان فى المدينة الانيقة ، الجبال المشرفة بقممها التى تشبه الموج . كل شىء كان يبسم فى سرور مطمئن غافل ، فتمس هذه البسمة الحنون الفامضة وجوه البشر شـابة وهرمة ، حسانا ودميمة . حتى وجوه بنـات الهوى الباريسيات المبدرة المزوقة لم تكن لتفسد هـذا الجو المرح السعيد . وكانت أشرطتهن وريشهن ، وشذرات الذهب والمعدن التى تلمع فى قبعاتهن وبراقعهن ، تمثل للعين أزهار الربيع المتألقة تميل فى خفة ، وأجنحة الطيور ترف بألوان قوس قزح . ولـكن الرطانة الفرنسية الصارخة التى كانت تسمع من كل ناحية لم تـكن لتماثل تغريد الطيور ولا لتقارن به .

على ان كل شىء كان يسـير وفق العـادة ، فـكانت الفـرقة الموسـيقية فى شرفة البهو تعزف مزيجا من « الترافياتا » ، وفالسا لشتراوس ، ثم « أخبريها » وهى أغنية روسية أعدها للعزف على الآلات موسيقار كريم . وحول الموائد الخضراء فى غرف القمار كانت تحتشد نفس الوجوه ، وعليهـا نفس التعبير : تعبير الغبـاء والتحفز والخوف الذى تطبعه حمى القمار على أنبل الوجوه كان هنـاك ذلك الشريف الروسى القـادم من تامبوف ، فى ثيـابه الفخمة بغير ذوق ، وقد انحنى على مائدة القمار بعينين جاحظتين ، غير مبال بابتسـامات الـكروبييه الباردة وهم ينـادون Rien ne va plus (١) ، بينما يضع الجنيهات الذهبية بلا روية ــ ويده تتصبب عرقا ــ على أركان المـائدة الاربعة ، فيحرم نفسه كل فرصـة للربح ... حتى لو حالفه الحظ . ولم يكن جهله بالقمار

(١) عبارة عندهم معناها ان المراهنة قد انتهت ، يقولونها قبل أن تدار «الروليت» .

ليمنعه من أن يردد في حماسة كلمات الأمير كوكو أحد زعماء المعارضة الارستقراطية المشهورين ، والأمير كوكو هو صاحب تلك الكلمة المأثورة التى قالها فى باريس فى صالون الأميرة ماتيلد ، وعلى مسمع من الامبراطور نفسه : « سيدتى ، ان مبدأ الملكية فى روسيا مزعزع من الاساس » ، وكان أبناء وطننا الأعزاء وبنات وطننا العزيزات مجتمعين بعادتهم حول الشجرة الروسية — à l'arbre russe كما يقولون . كانوا يتوافدون وهم يمشون الهوينى مترفعين غير مكترثين كبدع هذا العصر ، ويتهادون التحايا فى سمت أنيق كما ينبغى لأناس فى الدرجة العليا من المجتمع . ولكن الجمع لا يكاد يلتئم حتى يحاروا كل الحيرة فيما يقول بعضهم لبعض ، فيقنعون بتسقط التافه من الكلام ، أو ببذاء محدث فرنسى سخيف كان فيما مضى صحفيا ، وهو الآن مهرج ثرثار : فى ساقيه الصغيرتين الهزيلتين حذاء غليظ ، وفى وجهه الصغير الدنىء لحية صغيرة حقيرة . فيروى لهم كل ما حوته التقاويم الهزلية القديمة مثل « التشاريفارى » و « التنتامار » من بارد الفكاهات ، وينفجر « هؤلاء الأمراء الروس » ضاحكين فى رضا وامتنان كأنهم مرغمون على أن يعترفوا بروعة الفكاهة الاجنبية ، وبعجزهم عن ابتكار اى شىء طريف . ومع ذلك فهؤلاء هم «زهرة» مجتمعنا ، ونماذج البدع والاناقة عندنا .. هذا هو الكونت « س » محب الفنون ذو الطبع الموسيقى الحساس الذى يستطيع ان يترنم بأجمل الاغانى ، ولكن أصابعه تضل على مفاتيح البيان ، والذى يغنى بطريقة وسط بين طريقة مغن غجرى بائس وطريقة حلاق باريسى . وهذا هو البارون « ك » الساحر ... أستاذ فى كل فن : فى الادب والادارة والخطابة والغش فى القمار . وهذا أيضا الأمير « ى » صديق الدين والشعب ، الذى جمع لنفسه ثروة طائلة ببيع الفودكا مغشوشة بالبلادونا فى تلك الايام المباركة التى كانت تجارة الخمور فيها احتكارا . والجنرال الذكى « و. و. » الذى هزم أحدا ما واخضع شيئا ما ، ولكنه لايزال نكرة ولايدرى ماذا يصنع بنفسه . و « ر. ر. » ذلك الرجل المسلى الذى يظن نفسه مريضا جدا وظريفا جدا ، مع انه قوى كالثور ومصمت كاللوح ... هذا الـ « ر. ر. » يكاد يكون الرجل الوحيد فى زماننا الذى حافظ على تقاليد فتيان العقد الخامس،

أيام « فتى العصر (١) » والكونتيسة فوروتنسكى ـ حافظ على تلك المشية الخاصة المترجحة على الكعبين ، كما حافظ على « فن الاشارة » ـ Le Culte de la Pose ـ ومعذرة اذا كانت كل ترجمة قاصرة عن أداء المعنى . انه فن التكليف فى الحركات . والتثاقل فى التعبير ، والجمود المترفع فى الاسارير ، ومقاطعة أحاديث الناس بالتثاؤب . فن التحديق فى أظافر اليدين ، والضحك من الانف ، ودفع القبعة من مؤخر الراس الى الحاجبين. الخ . وهنا أيضا رجال من ذوى المراتب العالية فى الحكومة : سياسيون أولو شأن خطير ، وأسماء أوربية ، ورجال ذوو علم ومعرفة ، يحسبون أن « الثور الذهبى » مرسوم أصدره البابا ، وان ضريبة الفقراء فى انجلترا ضريبة تجبى من الفقراء . وهنا عباد « غادات الكاميليا » الدائرو الرءوس المعقودو الالسنة .. فتيان غنادير شعورهم مفروقة بأناقة حتى مؤخر الرأس ، وعوارضهم الجميلة مرسلة على صفحتى الوجه ، يلبسون ثيابا لندنية أصيلة.. ظباء لايعوزهم شيء لينافسوا ذلك المحدث الفرنسى الشهير. ولكن لا ! ان منتجاتنا الوطنية ضئيلة الحظ من تشجيع أهل البدع والاناقة . فالكونتيس « س » ملكة الازياء المبتدعة و « الجران جنر» ، التى تلقبها الالسنة الحاقدة بملكة الضبابير ، وبميدوزا ذات القبعة (٢) ـ هذه الكونتيس «س» تفضل اذا غاب الفرنسى الظريف أن تتحدث مع الايطاليين أو المدافيين ، أو محضرى الارواح الامريكيين ، أو سكرتيرى المفوضيات الاجنبية المتأنقين ، أو النبلاء الالمان ذوى السحر التى تجتمع فيها النعومة والحصافة المبكرة ، والمكان حافل بكل هؤلاء . وتقتدى بالكونتيس الأميرة بابت التى مات شوبان بين ذراعيها (وفى أوربا تعد أكثر من الف امرأة مات شوبان بين أذرعهن) والأميرة آنت التى لا يفض من فتنتها الا تلك الغسالة القروية الساذجة التى تطل من اهابها بين الحين والحين ، كرائحة كرنب تختلط بأرق العطور، والأميرة باشت التعسة الحظ التي ظفر زوجها بوظيفة ممتازة ثم اذا هو ـ

(١) مجموعة قصص للشاعر الروسى ليرمنتوف ، ظهرت سنة ١٨٤١ ، وتمثلت فيها قمة الرومانسية الروسية . بطلها « بيكورين » شاب فاتك لا يعرف الحب ولكنه مغرم بأن يوقع النساء فى هواه .

(٢) « ميدوزا » اسم سعلاة أو امرأة غول فى الاساطير اليونانية ، شعرها ثعابين ملتفة ، ووجهها مدور ، وأنفها أفطس ، ولسانها دالع ، وأسنانها بارزة .

Dieu sait pourquoi — يضرب عمدة المدينة ويسرق عشرين ألف روبل من مال الدولة ، والأميرة زيزى الضاحكة ، والأميرة زوزو الباكية — فكلهن يمنحن بنى وطنهن صدا واعراضا . فلنعرض نحن أيضا عن هؤلاء السيدات الحسان ، ولنبتعد عن الشجرة الذائعة الصيت ، التى يجلسن حولها فى ثياب غالية ولكنها لا تخلو من سماجة . وعسى الله أن يتوب عليهن من ذلك الملل الذى يفرى منهن النفوس !

على مسيرة خطوات من « الشجرة الروسية » كان يجلس الى منضدة أمام قهوة فيبر رجل وسيم يناهز الثلاثين من العمر ، نحيل ، أسمر ، متوسط القامة ، فى محياه بشاشة ورجولة ، وكان منحنيا الى الامام وقد اعتمد بكلتا ذراعيه على عصاه ، فى هدوء الرجل الذى لا يخطر بباله أن أحدا من الناس يعنى به أو يراعيه . وكانت عيناه العسليتان المعبرتان تحدقان فيما حوله مليا ، ويخزرهما أحيانا ليتقى ضوء الشمس ، ثم يتأمل بعض من يمرون به من تلك الشخوص الغريبة ، فيختلج شاربه وشفتاه وذقنه البارز الصغير بابتسامة فيها من الطفولة شيء كثير . وكان يلبس معطفا المانيا ضافيا ، ويغطى نصف جبهته العريضة بقبعة من الصوف الرمادى . وكان يبدو للنظرة الاولى شابا أمينا رزينا معتدا بنفسه ، ككثير من الشبان فى هذا الوجود . كما كان يبدو انه يستجم بعد عمل طويل شاق ، وان أفكاره الشاردة التى تجول فى عالم بعيد عن ذلك الذى يحيط به لا تزيده الا التذاذا بريئا بهذا المنظر المنبسط أمام عينيه. وكان روسيا . وكان اسمه جريجورى ميهالوفتش لتفينوف .

واذ لم يكن لنا بد من معرفته فلنرو ماضيه فى بضع كلمات ، ولن نجد فى ماضيه كثيرا من الغرابة ولا التعقيد .

كان أبوه موظفا فى المعاش ، وكان ينتمى الى طبقة العامة ، ولكن الابن لم يتلق تعليمه فى المدينة كما يتوقع فى مثل هذه الحال بل تلقاه فى الريف . أما أمه فكانت سليلة أسرة من النبلاء ، تعلمت فى احدى المدارس الرسمية ، وكانت انسانة سليمة الطوية سريعة التأثر ، ولكنها لم تكن تافهة الشخصية ، فعلى الرغم من أنها كانت تصغر زوجها بعشرين عاما فقد غيرته قدر الامكان ، وأخرجته من وضاعة حياة الموظف الصغير الى عيشة المالك الكبير ، ورققت من عنفه ، وهذبت من عناده ، وبفضلها أصبح يعتنى بهندامه وشارته ، وصار يحترم العلم والعلماء — ولو أنه

لم يفكر قط فى أن يقرأ كتابا ـ وترك السباب وحاول بكل وسيلة أن يكتسب مظاهر النبل ، حتى انه صار يمشى متئدا ويتحدث بصوت خفيض . وكثيرا ما كان يتحدث فى موضـوعات جليلة ، وكان ذلك يجشمه عناء غير قليل ، فكان يقول فى نفسه : « والله يا هذا ما حقك الا الضرب » ولـكنه يرفع صوته قائلا : « نعم نعم ، هذا صحيح . بالطبع . انها مسألة مهمة » . وقد جعلت أم لتفينوف منزلها أوربى الطراز أيضا ، فلم تكن تشتم الخدم ، ولم تكن تسمح لأحد بأن يكتظ على مائدتها حتى يكبسه النعاس. أما الارض التى كانت تملـكها فقد عجزت هى وزوجها كل العجز عن العناية بها ، فبقيت مهملة زمنا طويلا . مع انها كانت أرضـا واسعة تضم مراعى وغابات وبحيرة . وكان يشرف على البحيرة فيما مضى من الزمان مصنع أقامه مالك متحمس ولكنه لا يألف النظام، وراج على عهـد تاجر مخادع، وخرب باشراف مدير ألمانى مدقق. وكانت مدام لتفينوف راضية قانعة بأنها لا تبيع أرضها ولاتستدين ولـكنها لم تكن موفورة الصحة ، فماتت بالسـل فى السنة التى دخل فيها ابنها جامعة موسكو . ولم يتم الفتى دراسـته لأمور سيعلمها القارىء فيما بعد ، فعاد الى منزله الريفى حيث قضى فترة من الزمان بلا عمل ولا واجب ولا صديق . وجند فى سـنة ١٨٥٥ ، والفضل فى ذلك لنبلاء اقليمه الذين كانوا لا يحبونه ، وكانوا يؤمنون بالحكمة الشائعة : « خاص نفسك وارم جارك » وأكثر ايمانهم بالنظرية الاجنبية التى تقول : ان المـالك يجب أن يقيم فى أرضه . وكاد يهلك بالتيفوس فى القرم حيث قضى سـتة أشهر فى كوخ من الطين على شاطىء البحر الاسود دون أن يقع بصره على رجل واحد من « الحلفـاء » . واشـترك بعد ذلك فى مجالس النبلاء ، ولم تخل هذه الفترة من حياته من تجارب أليمة ولـكنه أغرم بالزراعة بعد أن عاش فى الريف زمنا قصيرا . وأدرك ان ثروة أمه كانت فى يد أبيه العاجز الضعيف الـكسلان لا تغل عشر مايمكن أن تغله ، وأنها اذا تعهدتها يد مجربة ماهرة أصبحت منجما من الذهب . الا انه أدرك أيضا انه لايعوزه شىء كما تعوزه المهارة والتجربة . فسـافر الى الخارج ليتخصص فى الزراعة والتكنولوجيا أو على الاصح ليتعلمهما من مبادئهما الاولى . وأمضى أكثر من أربع سـنوات فى مكلنبورج وسيليسـيا وكارلسروهة . وسافر الى باجيكا وانجلترا . وعكف على العمل . وحصـل كثيرا

من المعارف . وما كان ذلك بالامر اليسير . ولكنه ثابر وقاوم الصعاب الى النهاية . وقد أخذ يتأهب الآن للعودة الى وطنه ، مؤمنا بنفسه ومستقبله وبنفعه لجيرانه ، بل ربما للاقليم كله ، تستحثه دعوات أبيه اليائسة الضارعة ، وقد حار فكره فى تحرير الرقيق ، واعادة توزيع الارض ، وشروط حيازتها .. الخ . أو باختصار فى النظام الجديد .. ولكن لماذا كان فى بادن ؟

لقد كان فى بادن لأنه كان ينتظر من يوم الى يوم قدوم ابنة خالته وخطيبته «تاتيانا بروفنا شستوف» التىعرفها منذ الصغر، وأمضى الربيع والصيف معها فى درسدن حيث كانت تعيش مع عمتها . وقد أحس لهذه القريبة الشابة حبا صادقا واحتراما عميقا . فلما انتهى من أعماله التمهيدية المملة وأخذ يستعد لاقتحام ميدان جديد – ميدان العمل الحقيقى الحر – رأى فيها المرأة الحبيبة والرفيق والصديق . فتقدم اليها يسألها أن تربط حياتها بحياته. على السعادة والشقاء . على الجهد والدعة . على الخير والشر . فوافقت . وعاد الى كارلسروهة حيث كان قد خلف كتبه وأوراقه وأمتعته . ولكنك تسأل مرة ثانية : لماذا كان فى بادن ؟

حسنا . لقد كان فى بادن لأن عمة تاتيانا ، كابيتولينا ماركوفنا شستوف ، وهى سيدة عانس فى الخامسة والخمسين ، متقلبة الطبع على الرغم من طيبتها واخلاصها ، مفكرة حرة تشتعل رغبة فى التضحية ، « عقلية ثورية » (فقد كانت تقرأ شتراوس (١) ، وان أخفت هذه الحقيقة عن ابنة أخيها) ، ديموقراطية ، خصم لدود للأرستقراطية والمجتمعات الراقية – كابيتولينا ماركوفنا هذه لم تستطع أن تقاوم الرغبة فى القاء نظرة واحدة على بادن الانيقة ومجتمعها الراقى . فقد كانت كابيتولينا ماركوفنا لاتلبس « رواقع » (٢) ، وكانت تقص شعرها الابيض قصة مدورة بسيطة،

---

(١) د. ف. شتراوس (١٨٠٨ – ١٨٧٤) مفكر ألمانى من تلاميذ هيجل ، كانت دراسته الاولى دينية ، ولكنه أثار ضجة كبيرة فى العالم المسيحى واتهم بالمروق حين أصدر كتابه عن حياة المسيح (١٨٣٦) ، الذى حاول فيه أن يخضع العقيدة المسيحية للنقد العقلى ، فأنكر معجزات المسيح ، واعتبر الجانب الاكبر من تاريخه المروى فى الاناجيل أسطورة ترمز الى الحقيقة ولا ينبغى أن تؤخذ على ظاهرها .

وقد كان لشتراوس تأثيرا كبير فى تحرير الفكر الدينى وبخاصة فى العالم البروتستانتى .

(٢) قطعة من الملابس من نسيج مقوى ، كانت النساء يلبسنها تحت الملابس ، لترفع الجزء الاسفل من الجسم .

ولكن الترف والفخامة كان لهما تأثير خفى فى نفسها ، فكانت ملهاتها المحببة أن تسخر منهما ، وتبدى احتقارها لهما !.. فكيف يستطيع المرء ــ بعد هذا كله ــ أن يرفض للعجوز الطيبة رغبة ؟

لهذا كان لتفينوف هادئا كل الهدوء ، وكان ينظر حواليه واثقا بنفسه كل الثقة ، لأن مستقبله كان مبسوطا أمامه كخريطة ظاهرة المعالم ، ولأن حياته كانت مرسومة محدودة ، وكان بهذا المستقبل فخورا وسعيدا ، لأنه كان من صنع يديه .

وفجأة سمع صوتا رفيعا ينبعث بالقرب من أذنه :
ــ امسك ! ضبطتك !

وحطت يد سمينة على كتفه ، فرفع رأسه ، واذا هو بصاحب من أصحابه المسكوفين القليلين يدعى بمبايف . مخلوق طيب من ذلك الصنف الفارغ العقل ، تخطى سن الشباب ، له أنف منتفش وخدان مسترخيان كأنما أغليا في ماء ، وخصل شعثاء ملبدة ، وجسم قصير سمين ، كان روستيسلاف بمبايف لايزال يقطع وجه أمنا الصبور ــ الارض ــ بلا هدف ولا غاية ، ولكن في ضجيج كثير . وكان مفلسا دائما ، ومتحمسا دائما لسبب من الاسباب .

ظل يردد وقد فتح عينيه الفائرتين ، ومط شفتيه الغليظتين ، اللتين بدا عليهما الشارب الهزيل المصبوغ شيئا مقحما :

ــ أهلا أهلا ! أى مصادفة غريبة !

ثم أردف :

ــ آه ! شكرا لك يا بادن ! ان الناس جميعا يجرون الى هنا كالخنافس خلف الموقدة ! ماذا جاء بك ياجريشا ؟ (ولم يكن فى العالم أحد لايناديه بمبايف باسم التدليل) .

ــ أنا هنا من ثلاثة أيام .

ــ وأين كنت ؟

ــ لماذا تريد أن تعلم ؟

ــ لماذا أريد ! اصبر على قليلا . لعلك لا تعلم من قدم الى هنا أيضا ؟ جوباريوف ! انه جوباريوف نفسه .. تصور ! لقد جاء أمس من هيدلبرج . طبعا أنت تعرفه !

ــ سمعت عنه ....

ــ سمعت عنه فقط ؟ ياعزيزى ! يجب أن نأخذك اليه حالا ، فى هذه الدقيقة كيف لا تعرف رجلا مثله ؟ انظر . لعلك لا تعرف هذا أيضا ؟ يسرنى أن أعرفكما ، فكلاكما من رجال العلم ! انه من الافذاذ ! تعانقا !

والتفت بمبايف وهو ينطق بهذه الكلمات الى شاب وسيم واقف بالقرب منه ، له وجه ناضر مورد ، ترتسم عليه رزانة مبكرة . ووقف لتفينوف ، ولم يعانق « الفذ » بل اكتفى بأن تبادل واياه انحناءة مبتسرة ، اذ كان مظهره الصارم العبوس يدل على انه لم يسر كثيرا بهذا التعريف المفاجىء .

واستمر بمبايف يقول :

ــ قلت لك انه من الافذاذ ، وهذا صحيح . اذهب الى المدرسة الحربية فى بطرسبرج ، وانظر الى لوحتها الذهبية .. فمن عساك ترى اسمه فى أول القائمة ؟ انه فوروشيلوف ، سيميون ياكوفليفتش فوروشيلوف ! ولكن جوباريوف .. جوباريوف ياصديقى هو من يجب أن نطير اليه ! اننى أعبد ذلك الرجل عبادة ! ولست وحدى الذى أعبده ! كلهم ، كلهم ! آه ، ما أعظم هذا الكتاب الذى يؤلفه ! أووو ...

فسأله لتفينوف :

ــ عن أى شىء ؟

ــ عن كل شىء يابنى . يشبه كتب « بكل » تقريبا (١) الا أنه أعمق .. أعمق .. سيقرر كل شىء ويوضح كل شىء .

ــ هل قرأت هذا الكتاب ؟

ــ لا ، لم أقرأه ، والحقيقة أنه لايزال سرا . ولكن جوباريوف لا يعجزه شىء ! أجل ! ــ وتنهد بمبايف وضم ذراعيه ــ آه لو كان لدينا عقلان أو ثلاثة كهذا ! اذن لرأينا منهم العجب ! ــ سأقول لك شيئا واحدا ياجريشا : مهما تكن أعمالك فى هذه الايام ــ فأنا لا أعرف عنها شيئا ــ ومهما تكن معتقداتك ــ فأنا لا أعرف عنها شيئا أيضا ــ فسوف تتعلم من جوباريوف . انه لسوء الحظ لن يطيل اقامته هنا ، فيجب ألا نضيع وقتا قبل رؤيته . اليه ! اليه !

وبينما كان يتحدث مر فتى متأنق ذو خصل صهباء مجعدة ، يلبس قبعة قصيرة مزينة بشريط أزرق ، وجعل يحدق فيه من خلال عوينته وعلى وجهه ابتسامة ساخرة . فقال لتفينوف مغيظا :

ــ لماذا تصرخ هكذا ؟ من يسمعك يحسب أنك تزعق على كلاب

(١) « بكل » (١٨٢١ ــ ١٨٦٢) مؤرخ انجليزى اشتهر بكتابه « تاريخ الحضارة » الذى صدر جزؤه الاول سنة ١٨٥٧ والثانى سنة ١٨٦١ ، وحاول فيه أن يضع فلسفة للتاريخ توضح القواعد العامة للتقدم البشرى .

صيد ! اننى للساعة ما تعشيت .
ــ حسنا ! عندى فكرة . نذهب حالا الى مطعم فيبر .. ثلاثتنا معا ...
ثم أضاف همسا :
ــ معك نقود لتدفع حسابى ؟
ــ نعم نعم . ولكن فى الحقيقة لا أدرى ...
ــ كيف !.. ستشكر لى هذا الجميل . سيسر بمعرفتك ...
ثم صاح فجأة :
ــ يا للسماء ؟ انهم يعزفون ختام هرنانى .. ما أروعه ! آسوم موكارلو ... يالى من رجل ! ما أقرب دمعتى ! ألا تأتى معنا ياسيمون باكوفليفتش ؟

وكان فوروشيلوف قد ظل واقفا فى وضع مهيب ، فلم يلطف شيئا من سيمائه المتكبرة ، بل عقد حاجبيه ، وخفض عينيه ، وتمتم شيئا بين أسنانه ... ولكنه لم يرفض . وقال لتفينوف فى نفسه : « لا ضرر من هذا . عندى وقت » . وأمسك بمبايف بذراعه ، ولكنه لم يمض به الى المطعم الا بعد أن أشار الى ايزابل بائعة الازهار الشهيرة فى نادى الفروسية ، فقد بدا له أن يشترى منها طاقة زهر . غير أن بائعة الازهار الارستقراطية لم تتحرك من مكانها ... فما الذى يرغمها على الدنو من سيد بغير قفاز ، يلبس سترة من القطن ، ورباط عنق مخططا ، وحذاء مكعوبا ــ سيد لم تر مثله حتى فى باريس ؟ وعندئذ أشار اليها فوروشيلوف بدوره ، فاقتربت ، وتناول من سلتها طاقة صغيرة من البنفسج ورمى اليها فلورينا . وكان يحسب أنه سيدهشها بكرمه ، ولكن هدبا واحدا لم يهتز على وجهها ، بل زمت شفتيها باحتقار بعد أن التفت منصرفا ... فقد كان فوروشيلوف يرتدى ثيابا أنيقة فاخرة ، ولكن الفتاة الباريسية لمحت بعينيها الخبيرة أن هندامه ومسلكه ومشيته التى لم يخف طابعها العسكرى ــ كل ذلك كان خاليا من « الاناقة » الحقيقية الاصيلة .

وبعد أن جلس أصحابنا فى قاعة الطعام العامة وطلبوا طعاما أخذوا يتحدثون . وتكلم بمبايف بصوت مرتفع وحماسة بالغة عن مناقب جوباريوف ، ولكنه سرعان ما كف عن الحديث وجعل يصب كوبا فى اثر كوب وهو يشهق ويزفر . أما فوروشيلوف فقد أكل قليلا وشرب قليلا ، وكأنه لم يشارك فى الطعام والشراب الا

مرغما . ثم سأل لتفينوف عن طبيعة أعماله ، وأخذ يدلى بآرائه فى شتى المسائل العامة أكثر من هذه الاعمال ذاتها . وما لبث أن أخذته الحماسة ، فانطلق كالحصان الأرن ، ومضى ينبر المقاطع والحروف كتلميذ واثق بنفسه قد ذهب ليؤدى الامتحان النهائى. وكان يصحب حديثه باشارات حماسية لا داعى لها ، ولم يقاطعه أحد فزاد اندفاعا وتأكيدا ، حتى كأنه يتلو بحثا أو محاضرة . وكانت تنهمر من فمه أسماء أحدث العلماء الثقات ، مع تاريخ ميلاد كل منهم أو تاريخ وفاته ، وعناوين الرسائل التى ظهرت حديثا فى أفق البحث العلمى ، وأسماء وأسماء وأسماء ... وكانت هذه الاسماء تهبه رضا عميقا ينعكس على عينيه اللامعتين . كان فوروشيلوف فيما يظهر يحتقر كل قديم ، ولا يقدر الا زبدة الثقافة ، أى أحدث المسائل العلمية وأرقاها . كان يلذ له ويسعده أن يشير ـ ولو بغير مناسبة ـ الى كتاب لشخص يدعى الدكتور تساوربنجل عن السجون البنسلفانية ، أو الى مقالات ظهرت بالامس فى « الاسياتك جورنال » عن الفيدات والبورانات (وكان ينطق كلمة « جورنال » نطقا انجليزيا مع انه لم يكن يعرف الانجليزية) . وأصغى اليه لتفينوف ثم أصغى بغير أن يستطيع معرفة ناحية اختصاصه . فقد أفاض فى الحديث عن الدور الذى لعبه الجنس الكلتى فى التاريخ ، ثم شطح الى التاريخ القديم فتحدث عن الالواح الايجينية ، وتكلم بحماسة عن المثال الذى عاش قبل فيدياس ـ وهو أوناتاس ـ وسماه « جوناثان » فجعل للحديث كله نكهة بين نكهة الكتاب المقدس والنكهة الامريكية . ثم قفز فجأة الى الاقتصاد السياسي وسمى باستيات أبله أو غبيا « مثل آدم سمث وسائر الفزيوقراطيين » ، فتمتم بمبايف : « الفزيوقراطيين ؟.. الارستقراطيين ؟ » وأثار علائم الحيرة على وجه بمبايف بقوله عن ماكولى ـ عرضا وفى ثنايا الحديث ـ انه كاتب عتيق لم تعد له قيمة بعد ما وصل اليه علم التاريخ الحديث . أما جنايست ، فقد صرح انه ليس بحاجة حتى الى ذكر اسمه ، وهز كتفيه ، فهز بمبايف كتفيه . وقال لتفينوف لنفسه وهو ينظر الى صاحبه الجديد ، بشعره الاصفر وعينيه الصافيتين وأسنانه البيضاء (وقد ضايقته على الخصوص هذه الاسنان الكبيرة الناصعة البياض وهاتان اليدان باشاراتهما النابية) : « هكذا بلا ترو ولا مناسبة ، وأمام غرباء .. فى مطعم !

ولكنه يبدو فتي طيبا ساذجا » . وأخيرا بدأ فوروشيلوف يهدأ ، وبكسر صوته الرنان الصحل كصوت ديك صغير ، وانتهز بمبايف الفرصة فأنشد أبياتا من الشعر ، وتهدج صوته بالبكاء حتى روع مائدة قريبة كانت تجلس حولها أسرة انجليزية ، وأضحك مائدة أخرى كانت تجلس اليها غانيتان فرنسيتان مع مخلوق يشبه طفلا من عصر قديم فى شعر مستعار . ثم أحضر النادل التذكرة ودفع الاصدقاء الحساب .

ونهض بمبايف عن مقعده متثاقلا . قال :

ـ حسنا ... نشرب الآن قدحا من القهوة ، ثم نمضى مسرعين .

وزاد وهو يجتاز العتبة ويشير فى شىء من المرح بيده الحمراء اللينة الى فورشيلوف ولتفينوف :

ـ هذه هى روسيا .. بلادنا . ماقولكما فيها ؟..

فقال لتفينوف فى نفسه : «حقا انها روسيا» ، أما فوروشيلوف الذى استعار وجهه مظهر التفكير العميق ، فقد ابتسم ثانية فى ترفع ودق عقبيه دقا خفيفا .

وبعد خمس دقائق كان ثلاثتهم يصعدون درج الفندق الذى يقيم فيه ستيبان نيكولايتش جوباريوف .. وكانت تنحدر على السلم نفسه سيدة فارعة القامة ، رشيقة القد ، تلبس قبعة ذات نقاب أسود قصير . فما ان بصرت بلتفينوف حتى التفتت اليه بغتة ووقفت وكأنما تملكها الذهول ، واحمر وجهها ثم شحب سريعا تحت نقابه الاسود الكثيف . ولكن لتفينوف لم ينتبه اليها ، فانطلقت تهبط الدرج مسرعة .

صاح بمبايف وهو يقدم لتفينوف الى رجل ربعة له هيئة شريف من أشراف الريف ، يلبس خفا وسترة قصيرة وبنطلونا صباحيا رمادى اللون ، ويقف فى وسط حجرة ساطعة الضوء حسنة الرياش : « جريجورى لتفينوف . جلمود صخر . قلب روسى حق . أوصيك به خيرا » . ثم أردف مخاطبا لتفينوف : « وهذا هو . هو نفسه . انه جوباريوف وحسب » .

وحدق لتفينوف فيه « هو نفسه » بدهشة وتطلع ، فلم ير فيه للوهلة الاولى شيئا غير عادى . رأى رجلا وقور المظهر فى شبه بلادة ، عريض الجبين ، واسع العينين ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، مكتنز العنق . له نظرة ثابتة يصوبها الى الارض. ابتسم ذلك السيد وهمهم قائلا : « آه .. انني سعيد جداً » . ثم رفع يديه الى وجهه وأولى لتفينوف ظهره وسار بضع خطوات على البساط فى مشية بطيئة منحرفة ، كأنه يحاول أن ينسل غير ملحوظ . وكان من عادة جوباريوف أن يديم السير ذهابا وجيئة، ممسكا لحيته بين لحظة وأخرى ، يمشطها بأطراف أظافره الطويلة الصلبة . وكان فى الحجرة مع جوباريوف سيدة فى نحو الخمسين ، تلبس ثوبا حريريا باليا ، ولها وجه أصفر كالليمونة مفرط الحركات ، وشعر أسود كثيف على شفتها العليا ، وعينان سريعتا الدوران حتى لكأنهما تقفزان من رأسها ، ثم رجل ضخم يجلس منحنيا فى ركن .

تكلم جوباريوف مخاطبا السيدة ، دون أن يرى — فيما يبدو — ضرورة لتعريفها بلتفينوف :

— حسنا ياعزيزتى ماترونا سميونوفنا زوهانتشيكوف . فيم كنت تحدثيننا ؟

فشرعت تلك السيدة — وكانت أرملة عاقرا رقيقة الحال ، قضت عامين متنقلة من قطر الى قطر — شرعت تقول بحدة لاهثةغريبة :

— نعم . لقد ذهب الى الأمير وقال له : « ان مركزك ياصاحب

السعادة يمكنك من رفع الظلم عنى . أظنك تقدر نبل أفـكارى ! وهل يمكن أن يضطهد انسان فى هـذا العصر من أجل أفكاره ؟ »
فماذا تظن الأمير قد فعل ... ذلك السيد المثقف ذا المركزالممتاز؟

فسأل جوباريوف وهو يشعل لفيفة وعلى وجهه سيماء التفكير:

ــ نعم . ماذا فعل ؟

فنصبت السيدة قامتها ومدت يمناها المعروقة وقد باعدت بين سبابتها وسائر أصابعها :

ــ لقد نادى خادمه وقال له : « هيا انزع معطف هذا الرجل وخذه لنفسك فهو هدية لك ! »

فسأل بمبايف ملوحا بذراعيه :

ــ وهل نزعه الخادم ؟

ــ لقد نزعه وأخذه ... هـذا ما فعله الأمير بارنولوف . ذلك الشريف الثرى المعروف . رجل الحكومة ذو المنصب الرفيـع ! فماذا يتوقع المرء بعد ذلك ؟

وكان جسم مدام زوها نتيشكوف يرتعد كله غضبا ، ووجههـا يتقلص بحركات تشنجية ، وصدرها الذاوى الأمسح يعلو ويهبط محتدما تحت صـديريتها . أما عيناها فكادتا تقفزان من رأسـها قفزا ... ولكن الحقيقة انهما كانتا تقفزان مهما يكن الموضوع الذى تتحدث فيه . وصاح بمبايف :

ــ فضيحة صارخة ! فضيحة صارخة ! أى عقاب يكفى ؟

فهمهم جوباريوف معقبا :

ــ الفساد شامل . العقاب ... ليس هو المطلوب فى هـــذه الحالة ، بل ... أمور أخرى .

وسأل لتفينوف معلقا على القصة :

ــ ولـكن هل حدث هذا حقا ؟

فانفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة :

ــ حدث حقا ، كيف ؟ انه فوق كل شك ! كل شك ــ ك !
« ونطقت بهذه الكلمات فى حماسة بالغة جعلتها ترتجف من الجهد »
لقد سمعته من رجل ثقة . أنت تعرفه ياستيبان نيكولايتش . انه اليستراتوف ، كابيتون الستراتوف . وقد سمعها بنفسه من شهود عيان رأوا ذلك المنظر المخزى .

فسأل جوباريوف :

ـ اليستراتوف ؟.. أهو ذلك الذى كان فى قازان ؟

ـ نعم . اننى أعلم ياستيبان نيكولايتش ما أشيع عنه من أخذ الرشى من بعض التجار أو مقطرى الخمور هناك ... ولكن من الذى زعم هذا ؟ انه بليخانوف ! وكيف يصدق المرء بليخانوف وكل انسان يعلم انه ... جاسوس ؟

فقاطعها بمبايف قائلا :

ـ كلا . اسمحى لى يا ماترونا سميونوفنا . ان بليخانوف صديقى ، ولا وجه لاتهامه بالجاسوسية .

ـ أجل ، أجل ، انه جاسوس !

ـ مهلا ... أرجوك !..

فصرخت مدام زوها نتشيكوف :

ـ جاسوس ! جاسوس !

فصرخ بمبايف بدوره :

ـ لا ، لا . دقيقة واحدة ... سأخبرك بالحقيقة ...

فأصرت مدام زوها نتشيكوف على صياحها :

ـ جاسوس ! جاسوس !

وزأر بمبايف بكل ما فى رئتيه من قوة :

ـ كلا ، كلا . ان كنت تقصدين تنتليف فهذا شأن آخر .

فصمتت مدام زوها نتشيكوف برهة ، واستمر بمبايف يقول بصوته العادى :

ـ اننى أعلم من مصدر وثيق أن هذا السيد حين استدعاه البوليس السرى سجد عند قدمى الكونتة بلازنكرامبف ومضى يئن وينتحب قائلا :

« أنقذينى ! ساعدينى ! » ولكن بليخانوف لم يهبط قط الى هذا الدرك .

فتمتم جوباريوف :

ـ مم ... تنتليف ... يجب ... يجب الا ننسى هذه .

وهزت مدام زوها نتشيكوف كتفيها باحتقار وقالت :

ـ كلاهما شر من أخيه . ولكننى أعلم عن تنتليف هذا قصة أبدع . انه كان ـ كما يعلم الجميع ـ مستبدا ظالما لرقيقه ، على الرغم من دعواه أنه من أنصار التحرير . وقد حدث مرة أنه كان فى صالون احدى السيدات فى باريس ، ودخلت مدام بيتشرستو ،

وهى كما تعلمون صاحبة « كوخ العم توم » (١) ، فألح تنتليف على مضيفته ـ وتنتليف شخص ملحف رذل ـ كي تقدمه اليها ، ولكنها ما كادت تسمع اسمه حتى قالت : « ماذا ؟ أيطمع أن يقدم الى مؤلفة كوخ العم توم » ؟ وصفعته على خده قائلة : « أخرج !» فماذا تظنه فعل ؟ لقد تناول قبعته وانسحب كالكلب الذليل .

فقال بمبايف :

ـ أظن أن فى هذه القصة بعض المبالغة . لقد قالت له : « اخرج » ، هذا صحيح ، ولكنها لم تصفعه .

فجعلت مدام زوها نتشيكوف تكرر بعنف عصبى :

ـ أجل ! لقد صفعته على وجهه ! اننى لا أختلق الاخبار!.. هؤلاء هم أصدقاؤك !

ـ معذرة ياماترونا سميونوفنا . اننى لم أقل قط ان تنتليف صديق لى . لقد كنت أتحدث عن بليخانوف .

ـ تنتليف أو واحد من أمثاله ... عندك مينوف مثلا ...

فسأل بمبايف وقد ظهرت على وجهه امارات الفزع :

ـ ماذا فعل مينوف ؟

ـ ماذا ؟ أتراك لا تعرف ؟.. لقد صاح فى شارع بوزنسنزكى حيث سمعه الناس جميعا . « ان الاحرار كلهم يجب أن يرموا فى السجون ! » وواحدة أخرى : زاره زميل له من أيام التلمذة ـ رجل فقير بالطبع ـ وسأله : هل يستطيع أن يبقى معه الى العشاء ؟ فأجابه مينوف : « لايمكن . سيتغدى معى اليوم كونتان. اعفنا من وجودك ! »

فزعق بمبايف :

ـ اقسم ان هذا تشنيع !

ـ تشنيع ؟ تشنيع ؟ أولا : ان الأمير فاروشكن الذى كان هو أيضا مدعوا للعشاء على مائدة صديقك مينوف ...

فقاطعها جوباريوف بشدة :

ـ ان الأمير فاروشكن قريبى ، ولكنى لا أسمح له بدخول منزلى ... فلا ضرورة أيضا لذكر اسمه .

---

(١) هاريت بيتشر ستو كاتبة انسانية وزعيمة من زعيمات الحركة النسائية فى الولايات المتحدة الامريكية فى القرن التاسع عشر . روايتها « كوخ العم توم » (١٨٥٢) كان لها أثر كبير فى حركة تحرير العبيد . قامت برحلة الى أوربا سنة ١٨٥٣ .

فاستمرت مدام زوها نتشيكوف تقول وهى تحنى رأسها بخضوع نحو جوباريوف :
ــ وثانيا : ان براسكوفيا ياكوفلفنا نفسها أخبرتنى بذلك .
ــ لقد وقعت على راوية أمينة ! كيف ! انها هى وزاكيزوف أكبر مشنعين على وجه البسيطة !
ــ معذرة . ان زاكيزوف كذاب بلا شك . لقد سرق الكفن الحريرى من تابوت أبيه . أنا لا أجادل فى هذا . ولكن براسكوفيا ياكوفلفنا ... شتان ما بينهما ! أنسيت كيف كان فراقها لزوجها فراقا كريما ؟ ولكنك دائما ...
ــ كفى . كفى ياماترونا سميونوفنا . لنترك هذه الثرثرة ولنتحدث فى موضوع أسمى . اننى لست ضئيل الخبرة بهذه الموضوعات كما تعلمين . هل قرأت « مدموازيل دلاكنتينى » ؟ هذه رائعة بلا ريب ! وهى فى الوقت نفسه تتفق مع مبادئك كل الاتفاق !
فأجابت مدام زوها نتشيكوف بجفاء وحدة :
ــ اننى لا أقرأ الروايات الآن مطلقا .
ــ لماذا ؟
ــ لأنى لا أجد وقتا لذلك . أنا لا أفكر الا فى شىء واحد : مكنات الخياطة .
فسأل لتفينوف :
ــ مكنات ماذا ؟
ــ الخياطة ... الخياطة . يجب أن تحصل النساء جميعا على مكنات خياطة ، وأن يؤلفن جمعيات ، فبهذه الطريقة يستطعن أن يكسبن قوتهن ويظفرن باستقلالهن فى أقصر وقت . وبغير هذا لن يحصلن على حريتهن . هذه مسألة اجتماعية هامة جدا . لقد تناقشت فيها مع بولسلاف ستاد نتسكى . ان بولسلاف ستاد نتسكى شخصية ممتازة ولكنه يستخف بهذه المسائل ... لا هم له الا الضحك . أحمق !
فتكلم جوباريوف ببطء وفى نبرة تشبه نبرة حكيم أو نبى :
ــ سيأتى يوم يحاسب فيه الجميع ، ويوفون ما عملوا .
فردد بمبايف :
ــ أجل ، أجل . سيحاسبون . بالضبط .
ثم أردف بصوت خفيض :

ـ ولـكن خبرنى ياستيبان نيكولايتش ... ماذا فعلت فى كتابك الـكبير ؟
فأجاب جوباريوف عاقدا حاجبيه :
ـ اننى أجمع المواد .
ثم التفت الى لتفينوف الذى بدأ رأسه يدور من ضجة الاسماء الغريبة والتشنيع المحموم ، وسأله عما يعنى به من الموضوعات ، فأجابه لتفينوف عما سأل
ـ آه . بلا شك . العلوم الطبيعية . انها نافعة اذا كانت نوعا من التدريب ، لا غاية فى ذاتها . ان الغاية يجب أن تـكون ... مم ... يجب أن تكون ... شيئا آخر . هل تسمح لى أن أسألك عن آرائك الخاصة ؟
ـ أى آراء ؟
ـ آرائك . أو بالأحرى آرائك السياسية . ما آراؤك السياسية؟
فابتسم لتفينوف وقال :
ـ ان شئت الحقيقة فليس لى آراء سياسية .
فرفع الرجل الضخم الجالس فى الركن رأسه عند سماع هـذه الـكلمات ونظر الى لتفينوف مليا . وسأله جوباريوف بلطف :
ـ كيف ؟ ألم تفكر فى الأمر بعد ، أم تراك تعبت من التفكير فيه؟
ـ لا أدرى كيف أقول . ولـكن يبدو لى أننا نحن الروس مازلنا بعيدين عن أن تكون لنا أفكار سياسية ، أو أن نتوهم أن لنا مثل هذه الافكار . وأود أن أنبهك الى أنى أريد « بالسياسة » ذلك المعنى الذى تختص به هذه الـكلمة ، وأن ...
فقاطعه جوباريوف بلطف أيضا :
ـ آه ! انه لم ينضج بعد .
واتجه الى فوروشيلوف وسأله هل قرأ البحث الذى أعطاه اياه ؟ وكان الأمر الذى أدهش لتفينوف أن فورشيلوف لم ينبس بـكلمة منذ قدم ، بل زوى حاجبيه وجعل يدير حدقتيه . (ويظهر أنه كان معتادا أن يخطب أو يلزم الصمت) . فلمـا وجه اليه جوباريوف ذلك السؤال شد صدره بحركة عسكرية وأومأ ايجابا وهو يدق عقبيه .
ـ حسنا . وكيف وجدته ؟ هل أعجبك ؟..
ـ أما من حيث المبادىء الاساسية فقد أعجبت به ، غير انى لم أسلم بالنتائج .

ــ مم ... ومع هذا فقد امتدح أندريه ايفانتش هذا البحث . يجب أن توضح لى مآخذك فيما بعد .

ــ أتحب أن أكتبها لك ؟

فتجلت الدهشة على وجه جوباريوف ، ولكنه أجاب بعد تفكير قصير :

ــ فلتكن مكتوبة . وأريد منك بهذه المناسبة أن تشرح لى آراءك أيضا .. فى موضوع ... الاتحادات .

ــ على نظام لاسال أو على نظام شلتسه ودليتزش ؟

ــ على النظامين كليهما . فالناحية الاقتصادية هى التى تهمنا نحن الروس . ثم هناك الارتل (١) .. وهو النواة .. يجب أن ننظر فى هذا كله .. لا تترك شيئا .. ولا تنس مسألة تقسيم الارض بين الفلاحين ..

فسأله فوروشيلوف وفى صوته نبرة اجلال :

ــ وما رأيك أنت ياستيبان نيكولايتش فى العدد المناسب من الافدنة ؟

ولكن جوباريوف كان يتمتم مستغرقا فى تفكيره ، وهو ينظر الى المنضدة ويقرض خصلة من لحيته :

ــ مم ... وكوميون القرية ! الكوميون (٢) ! فاهم ؟ انها كلمة عظيمة ! ثم ما معنى هذه الحرائق ... وهذه ... هذه الاجراءات الحكومية ضد المدارس الليلية ، ودور المطالعة ، والصحف ؟ ولم رفض الفلاحون أن يوقعوا على الوثائق التى تثبت استقلالهم عن سادتهم الاقدمين ؟ ولماذا يجرى ما يجرى فى بولندا ؟ الا ترى أن .. مم .. أننا .. اننا يجب أن نتصل بالشعب .. وأن نتعرف .. نتعرف آراءه ..

وكأنما تملك جوباريوف فجأة انفعال عنيف يوشك أن يكون حقدا وغضبا فاكفهر وجهه ، وثقلت أنفاسه ، ولكنه مع ذلك لم يرفع عينيه بل ظل يقرض لحيته :

ــ الا ترى ..

وفجأة انفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة بصوت مزعج :

---

(١) « الأرتل » نوع من الارتباط بين العمال على أساس المشاركة فى الارباح وفى المسئولية .

(٢) نظام القرية الروسية فى العهد القيصرى . وهو أشبه بالنظام القبلى ، اذ كان أساسه التعاون الوثيق بين أهل القرية فى احراز المنافع ورفع المضار ، وكانت الارض ، أو قسم كبير منها ، وهو الذى يترك للمراعى والغابات ، ملكا مشاعا بين أهل القرية

ــ ان يفسيف نذل !

وكان بمبايف يروى لها شيئا بصوت خفض منه احترام مضيفهم. فدار جوباريوف على عقبيه مسرعا ، وعاد يظلع فى ارجاء الحجرة .

وظل الضيوف يتوافدون . فلما تقدم الليل كان كثير من الناس مجتمعين ، وكان من بينهم السيد يفسيف الذى سبته مدام زوها نتشيكوف بذلك اللفظ القاسى ، وقد حادثته فى شـوق وترحاب وسألته أن يرافقها الى منزلها . كما حضر شخص يدعى بشتشالكن ، وهو قاضى تحكيم (١) ممتـــاز ، من أولئك الرجال الذين قـد تكون روسيا أحوج اليهم من غيرهم : فهو ضيق الافق ، محدود الثقافة ضئيل المواهب ، الا انه دقيق صبور أمين ، يكاد الفلاحون فى اقليمه يعبدونه ، وهو يحترم نفسه لأنه جدير حقا بالاحترام . وكان هناك أيضا ضباط قليلون ، فروا باجازات قصيرة الى أوربا ، وراحوا يستمتعون ــ فى حذر ودون أن تفـارق أدمغتهم صورة قائدهم ــ بمعايشة أهل الفكر الذين لا يخلون من خطر ، وطالبان من هيدلبرج مفرطا النحافة ، دخلا مسرعين ، وكان أحدهما ينظر الى من حوله باحتقار شديد والآخر يضحك ضحكات عصبية ، وكانا كلاهما شديدى الارتباك . وانحشر بعدهما فرنسى ممن يسمونهم Petit jeun homme مخلوق صغير حقير غبى كريه .. يحظى ببعض الشهرة بين زملائه من سماسرة دور السياحة لزعمهم أن الكونتات الروسيات يذبن فى هواه ، والحقيقة ان همه الاكبر هو الحصول على عشاء مجانى . وكان آخر من ظهر هو تت بنداسوف ، وهو رجل له مظهر طالب المانى ماجن ، أما فى الحقيقة فهو بلطجى محتال ، صديق لزوجات التجار الروس ولبنات الهوى الباريسيات . أصـلع ، أدرد ، سكير . جاء أحمر الوجه مخمورا ، وجعل يؤكد لـكل من رآه ان ذلك الوغد بنازت « قشطه » من كل ما معه ، والحقيقة انه ربح ستة عشر جلدا .. كان هناك ــ باختصار عدد كبير من الناس . وكان عجيبا حقا ذلك الاحترام الذى يبـدونه جميعا لجوباريوف كأنه مرشـد أو زعيم . كانوا يعرضـون عليه أفكارهم ، ويخضعونها لحكمه ، فيجيب بالتمتمة ، ونتف لحيته ، وتحويل عينيه ، أو بكلمات جوفاء متقطعة تتلقف كأنها نطق حكمة سامية . وقلما كان جوباريوف نفسه يشترك فى المناقشة ، ولكن

(١) « قاضى التحكيم » وظيفة فخرية أنشئت فى فترة تحــرير الرقيق ، ومهمتـه التوسط بين النبلاء والفلاحين .

الآخرين كانوا يكدون صدورهم ليعوضوا ذلك. وقد حدث غير مرة أن اشترك ثلاثة أو أربعة فى الصياح . وكانوا كلهم راضين ، وكانوا كلهم مفهومين . واستمر الحديث حتى كاد الليل ينتصف ، وامتاز - كالعادة - بتعدد الموضوعات المطروقة وتنوعها . فتحدثت مدام زوها نتشيكوف عن غاريبالدى، وعن شخص يدعى كارل ايفانوفتش جلده عبيد داره ، وعن نابليون الثالث . وعن اشتغال النساء بالاعمال ، وعن تاجر يدعى بلسكاتشوف تسبب عامدا فى موت اثنتى عشرة عاملة ونال جزاء ذلك وساما نقش عليه « لأعماله الجليلة » . كما تحدثت عن البروليتاريا ، وعن الاميرالجرجانى تشكتشيولدزوف الذى قتل زوجته بمدفع، وعن مستقبل روسيا. وتحدث بشتشالكن أيضا عن مستقبل روسيا ، وعن احتكار الخمور ، وعن معنى القوميات ، وعن كراهته لكل حديث معاد . ثم كان انفجار مفاجىء من فوروشيلوف ، فذكر فى نفس واحد - وكاد يختنق من اسرافه على رئتيه - أسماء درابر ، وفرتشو ، وشلجونوف ، وبيتشات ، وهلمهولتز ، وشتار ، وسنت رايموند ، وجوهان ميلرالفسيولوجى، وجوهان ملر المؤرخ - وكان واضحا انه يخلط بينهما - وتين ، ورينان ، وشتشابوف ثم توماس ناش ، وبيل ، وجرين.. فتمتم بمبايف حائرا : « من هؤلاء ياترى ؟ » فأجابه فوروشيلوف منتهرا : « انهم أسلاف شكسبير ، وهو بينهم كالجبل الابيض بين سلاسل الالب . » وواصل الحديث عن مستقبل روسيا . وتحدث بمبايف أيضا عن مستقبل روسيا ، وأضفى عليه ألوانا زاهية ، وابتهج بخاصة عندما ذكر الموسيقى الروسية ، فقد كان يرأها « آه ! رائعة حقا ! » ولكى يؤيد ذلك جعل يترنم بأغنية لفارلاموف ، ولكنه قوطع بصيحة اجماعية : « انه يغنى الميزيريرى ، من التروفاتورى ، وغناؤه يصك الاسماع . » وبين هذه الضجة كان ضابط صغير يذم الادب الروسى ، وآخر ينشد قصيدة من « اسكرا » (١) ، وتطرف بنداسوف فأعلن ان هؤلاء المخادعين جميعا يجب أن تهشم أسنانهم ، وهذا كل ما هنالك .. ولكنه لم يعين من هم المخادعون الذين يعنيهم . واصبح دخان السجائر خانقا ، وأحس الجميع الحر والاعياء ، وبحت الاصوات ، وغامت العيون، ولمعت قطرات العرق على كل وجه ، وأحضرت زجاجات الجعة فأفرغت فى الحال ، وسأل أحدهم : ماذا كنت اقول ؟ وسأل آخر:

(١) « الشرارة » ، مجلة ثورية .

من كنت أناقش ، وفيم كنت أناقش ؟ وبين الضوضاء والدخان كان جوباريوف يسير كدأبه بلا ونى ، وهو يترجح من ناحية الى ناحية ، ويجذب لحيته ، ومرة يصغى الى مناقشة ، ومرة يلقى بكلمة ، وكل انسان لا يملك الا أن يشعر أنه هو ـ جوباريوف ـ مصدر هذا كله ، وأنه سيد المكان وأبرز الحاضرين ..

وكان لتفينوف قد بدأ حول الساعة العاشرة يحس بدوار فظيع. فانسل خارجا دون أن يشعر به أحد ، منتهزا فرصة احتدام عام حين تذكرت مدام زوها نتشيكوف مثلا جديدا على ظلم الامير بارنولوف . اذ كاد يأمر بقرض أذنى أحد الناس .

وغمر هواء الليل النقى وجه لتفينوف المحرور ، ورطبت أنفاس النسيم العطر شفتيه الجافتين ، ففكر وهو يقطع الشارع المظلم : « ما هذا الذى كنت أشهد ؟ فيم كان اجتماعهم ؟ وفيم كان صياحهم وضجيجهم ؟ فيم كل هذا ؟ » وهز لتفينوف كتفيه وعرج على قهوة فيبر فتناول صحيفة وطلب مثلجة. فكانت الصحيفة مشحونة بالحديث عن المسألة الايطالية كما كانت المثلجة كريهة المذاق. وكان يهم بالعودة الى فندقه عندما اقترب منه فجأة شخص مجهول يلبس قبعة عريضة ، وجلس الى منضدته قائلا بالروسية : « لعلى لا أزعجك » . وأطال لتفينوف النظر الى ذلك الغريب قبل أن يعرف أنه السيد الضخم الذى كان متواريا فى ركن عند جوباريوف ، والذى حدق فيه بانتباه بالغ عندما دار الحديث حول الآراء السياسية . ان ذلك السيد لم يفتح فاه قط طيلة المساء .. وهاهو ذا قد جلس على مقربة من لتفينوف ، وخلع قبعته وهو ينظر اليه متوددا فى شىء من الارتباك .

بدأ ذلك الغريب حديثه قائلا :

— ان السيد جوباريوف الذى تشرفت بمقابلتك فى داره اليوم لم يعن بتعريفك بى . فاسمح لى أن أعرفك بنفسى . أنا أدعى بوتوجين ، وكنت موظفا فى وزارة المالية بسنت بطرسبرج . أرجو ألا تدهش .. فليس من عادتى أن أصادق الناس بهذه السرعة.. ولـكن معك ...

وهنا انعقد لسانه ، فسأل النادل أن يحضر له كأسا صغيرة من « الـكرشفاسر » وأضاف مبتسما : « لـكى أتشجع » .

ونظر لتفينوف فى اهتمام مضـاعف الى آخر من قسم له أن يعرفهم فى يومه ذاك من الغرباء . وكان أول ما خطر بباله : « انه لايشبه الآخرين » .

انه لايشبههم ما فى ذلك ريب . فقد كان هـذا الجالس أمامه ينقر على حافة المنضدة بأصابع ناعمة ، رجلا عريض المنكبين، ممتلىء الجذع ، قصير الساقين ، منحنى الرأس ، جعد الشعر مشعثه ، له عينان واعيتـان حزينتان يظللها حاجبان كثيفان ، وفم غليظ حسن القطع متراكب الثنـايا ، وأنف من تلك الانوف الروسيـة الصميمة التى يشبهونها بالبطاطس . رجلا يبدو فى مسلـكه عسر ونبو عن المألوف ، وأقل ما يقال فيه انه لم يكن من طراز عادى بين الناس . وكان هندامه مهملا ، فسترته العتيقة الطراز معلقة عليه كالزكيبة ، ورباط رقبته ملفوت . ولم يضق لتفينوف باقدامه المفاجىء ولم يحسبه تطفلا ، بل أحس له شيئا من الزهو الخفى ، فقد كان من الجلى أن ذلك الرجل لم يألف التقرب الى الغرباء . وقد أثر فى لتفينوف تأثيرا عجيبا ، وأثار فيه حبا واحتراما وعطفا صادقا .

كرر فى صوت رقيق فيه شىء من الخدر والضعف ، صوت كان تسق اتساقا غريبا مع شخصيته كلها :

— اذن فأنا لا أضايقك ؟

فأجابه لتفينوف :

ـ البتة . بل انني جد سعيد .

ـ حقا ؟ اذن فأنا سعيد أيضا . لقد سمعت عنك الكثير ، وعرفت أعمالك ومشروعاتك . انه لخير ما عزمت عليه ، فلا عجب ان بقيت الليلة صامتا .

فأجابه لتفينوف :

ـ نعم . وأراك أيضا لم تتكلم الا قليلا .

فتنهد بوتوجين :

ـ لقد قال الآخرون ما يكفي وزيادة . كنت أستمع لهم .

ثم عقب بعد لحظة وهو يرفع حاجبيه ممازحا :

ـ هل أعجبك برج بابل الذى كنا فيه !

ـ برج بابل ! لقد أحسنت التعبير . طالما وددت ان أسأل أولئك السادة لماذا يثيرون كل هذه الضجة .

فتنهد بوتوجين مرة أخرى :

ـ الحق انهم هم انفسهم لايعلمون . وقد كان يقال عن أمثالهم قديما : « انهم آلات مسخرة بين يدى قوة قاهرة » ، ولكن لدينا الآن أوصافا أكثر وضوحا . ولا أقول ذلك رغبة فى انتقادهم ، بل انى لأغالو فأقول انهم كلهم من خيار الناس . فمدام زوها نتشيكوف ـ مثلا ـ أعلم عنها خيرا كثيرا ، فقد منحت آخر ما تبقى من ثروتها لقريبتين فقيرتين . حتى أن قلنا انها لم تخل من تأثير التظاهر والرغبة فى الظفر باعجاب الناس فقد كان عملها على أى حال تضحية رائعة من امرأة ليست فى نعمة كبيرة ! وناهيك بالسيد بشتشالكن ! فسيأتى يوم يقدم اليه فيه فلاحو اقليمه كأسا من الفضة على شكل القرعة ، أو أيقونة لقديسه الراعى ، وسيقول لهم فى خطبة الشكر انه لايستحق هذا الشرف ، ولكنه لن يكون صادقا فى ذلك ، فانه يستحقه ولاريب . وصديقك السيد بمبايف قلب من ذهب ، وان كان أمره كأمر الشاعر يازيكوف الذى ذكروا انه كان يتغنى بمديح باخوس وهو جالس الى كتاب يرشف الماء !.. فحماسته ليس لها هدف محدود ، ولكنها حماسة على كل حال . والسيد فوروشيلوف من أطيب خلق الله نفسا ، وهو كسائر أنداده من أصحاب « لوحة الشرف » يعد نفسه « أركان حرب » للعلم والحضارة ، وهو كثير الجعجعة ، ولكنه صغير السن كما ترى . نعم نعم ، انهم جميعا من خيار الناس ، ولكنك اذا حققت النتائج

لم تخرج بشيء . المواد كلها من الطراز الاول أما الطبخة فكريهة المذاق !

أصغى لتفينوف الى بوتوجين مليا . وكان حديثه المطمئن الواثق ينبيء بأنه ممن يحسنون الكلام ويلذونه . أجل . ان بوتوجين كان يحب الكلام ويحسنه . ولكنه كان رجلا ذهبت بخيلائه تجاريب الحياة . فهو ينتظر فى هدوء فلسفى حتى تسنح له فرصة اللقاء مع روح يرافق روحه .

تابع حديثه بنبرته الحزينة التى لاتشوبها مرارة :

ـ أجل ، ان هذا كله جد غريب . وأمر آخر أود أن تلاحظه : اذا اجتمع عشرة من الانجليز مثلا فانهم سرعان ما يتحدثون عن التلغراف البحرى ، أو عن ضريبة الورق ، أو عن طريقة لدبغ جلود الفيران ـ أى عن شيء واقعى محدد . واذا اجتمع عشرة من الالمان فثمة الحديث عن شلزفج هولشتين ووحدة ألمانيا . فاذا اجتمع عشرة من الفرنسيين فالحديث دائر ـ مهما تحاول أن تغير مجراه ـ حول أحاديث الغرام . أما اذا اجتمع عشرة من الروس فسرعان ما يتناقشون ـ كما رأيت هذا المساء ـ فى عظمة روسيا ومستقبلها فيتحدثون بعبارات غامضة كل الغموض ، بادئين مع بدء الخليقة ، غير مستندين الى حقائق ولا منتهين الى نتائج . بل انهم يبدئون ويعيدون فى ذلك الحديث المجوج كما يلوك الاطفال قطعة من المطاط لا تسمن ولا تغنى من جوع . ثم يأتى موضوع الغرب المتعفن لينال نصيبه . وعجيب أمر هذا الغرب ! فنحن نعلن انه متعفن مع انه يفوقنا فى كل شيء . وياليتنا نحتقره حقا ! ولكن الامر لا يعدو الدجل والتهويش .. ومهما نذم فاننا لا نقدر سوى رأى الغرب ، أعنى رأى صعاليك باريس .. أعرف رجلا من الفضلاء ـ رب أسرة جاوز طور الشباب ـ لازمه الحزن عدة أيام لأنه صاح فى مطعم فرنسى يطلب une portion de biftex aux pommes de terre ثم اذا برجل فرنسى أصيل ينادى garçon, biftex pommes : فمنذ ذلك الحين أخذ ينادى فى كل مكان bifetx pommes وعلم رفاقه أن ينادوا مثله . بل ان بنات الهوى ليعجبن لتلك الرهبة التى تغشى شبابنا الاجلاف حين يدخلون مخادعهن المنكودة ، وكأنهم يقولون لأنفسهم :

« يالله ! أحقا انى هنا مع أنا ديليون نفسها ! »

فسأله لتفينوف :

ـ والى أى شيء تعزو نفوذ جوباريوف الظاهر على كل من حوله ؟ أهى موهبته ؟ أهى ملكاته ؟

ـ لا لا . لا شيء فيه مما تقول .

ـ أتراها شخصيته !

ـ ولا ذلك أيضا. انما هى قوة ارادته . قوة الارادة سلعة نادرة عندنا نحن الصقالبة ، ولهذا نخشع أمامها خشوعا . انجوباريوف يريد أن يكون سيدا فيسلم له الجميع بذلك. ماذا تظن؟ لقد حررتنا الحكومة ـ وهى مشكورة ـ من ربقة العبودية ، ولكن عادات العبودية ما زالت متأصلة فى نفوسنا بحيث لا نستطيع أن نتخلص منها . اننا نريد سيدا فى كل شيء وفى كل مكان . وهذا السيد قد يكون شخصا حيا وقد يكون « اتجاها » يسيطر علينا .. فنحن فى هذه الايام مثلا عبيد أرقاء للعلوم الطبيعية . أما لماذا نقبل على أنفسنا هذا النوع من الرق فأمر لايسهل فهمه ، ولكن يبدو أنه بعض طبيعتنا . وأهم شيء على كل حال هو أن يكون لنا سيد . فاذا كان بيننا هذا السيد فمعنى ذلك أنه لنا ، ولا علينا بعد ذلك من شيء ! عبيد ! وكبرياؤنا كبرياء العبيد ، وخضوعنا خضوع العبيد. فاذا ظهر سيد جديد فقد انتهى أمرالسيد القديم. كان زيدا ثم أصبح عمرا ، فنحن نلكم زيدا ونسجد لعمرو ! تذكر كم مرة لعبت فينا هذه اللعبة ! ونحن نزعم أن الشك هو خصيصتنا الاصلية ، ولكننا حتى عندما نشك لا نكون كمحارب يقاتل بسيفه بل كخادم يضرب بقبضته ، ولعله انما يفعل ذلك طاعة لأمر سيده . ثم اننا شعب لين العريكة ، وليس من العسير أن نبقى ملجمين . وهكذا أصبح السيد جوباريوف قوة بيننا . لقد ظل يدق فى موضع واحد حتى نفذ منه . الناس يرون رجلا معتدا بشخصيته ، يؤمن بنفسه ويلقى الاوامر ـ وهذا أهم ما فى الامر، انه يلقى الأوامر ! ـ فلابد اذن أن نكون على صواب ، ولابد أن نطيعه . هكذا نشأت الفرق الدينية عندنا ، الاونفريون والاكولينيون وغيرهم . من أمسك العصا فهو القائد .

كان بوتوجين غائم العينين ، مشتعل الوجنتين ، ولكن العجب ان حديثه على قسوته وعنفه لم يكن فيه شيء من المرارة ، بل كان يشف عن حزن صادق عميق .

سأله لتفينوف :

ـ كيف عرفت جوباريوف ؟

ـ عرفته منذ زمن طويل .. اليك خاصة أخرى من خصائصنا : الكاتب الذى أمضى حياته كلها يحارب المسكرات بالشعر والنثر ، ويهاجم شركات الخمور بحرارة وعنف ، هذا الكاتب لا جناح عليه ان اشترى معملين للتقطير وافتتح مائة حانة ! ولو فعلها رجل غيره لمحى من وجه الارض ، أما هذا فلا يلومه ولا يعتب عليه أحد ! وكذلك السيد جوباريوف ، فهو سلافوفيل وديموقراطى واشتراكى وما شئت فسمه ، ولكنه كان ـ وما زال ـ يكل ادارة ممتلكاته لأخيه ، وهو سيد من طراز السادة الاقدمين الذين يلقبون « بالجلادين » . ومع ذلك فمدام زوها نتشيكوف تعفر رأسها فى التراب عند قدمى جوباريوف ، وهى التى طربت لأن مسز بيتشر ستو صفعت تنتليف على خده ! وما ذاك الا لأن جوباريوف يوهم الناس انه يقرأ كتبا قيمة ! هذا كل ما له من فضل ! لقد رأيت بعينيك اليوم مبلغ قدرته على التعبير والحمد لله على قلة كلامه وانطوائه على نفسه . فهو حين يتبسط وينطلق لا يطيقه احد ولو كان صبورا مثلى . انه يسترسل فى النكات الغليظة والنوادر البذيئة . أجل، ان السيد جوباريوف المبجل يروى نوادر مكشوفة ويقهقه قهقهة صاخبة وهو يرويها .

قال لتفينوف :

ـ أصبور أنت ! لقد كان يخيل الى عكس ذلك . ولكن اسمح لى أن أسألك عن اسمك .

فرشف بوتوجين قليلا من الكرشفاسر .

ـ اسمى سوزونت .. سوزونت ايفانتش . وقد سمونى بهذا الاسم تيمنا بقريب لى أرشمندريت (١) لا ادين له بغيره . وأنا من بيت دين ان جاز لى أن أقول هذا . أما شكك فى صبرى فلا أساس له . فأنا جد صبور . وقد خدمت الدولة اثنتين وعشرين سنة. وكنت مرءوسا لعمى . وهو الآن مستشار . واسمه ايرينار بوتوجين . هل تعرفه ؟

ـ لا .

ـ اذن أهنئك . أجل . اننى صبور . ولنعد الى الاصل ـ كما كان يقول منذ بضعة قرون زميلى المطران يواقيم (٢) الذى إحرق

(١) الارشمندريت فى الكنيسة الروسية شيخ دير أو مجموعة من الاديرة .

(٢) شيخ « السلفيين » Raskolnik فى القرن السابع عشر ، وكانوا فرقة رفضت الاصلاحات الدينية التى أدخلها بطرك الكنيسة الروسية نيكون (١٦٠٥ ـ ١٦٨١) .

فى عهد القيصر تيودور . اننى أعجب ياسيدى لأبناء وطنى . فكلهم شـديدو الـكآبة يمشون ناكسى الرءوس . وهم مع ذلك مفعمون بالأمل . فما أسرع ما تطيش عقولهم واذا هم ينتفضون حماسة ! انظر الى السلافوفيل الذين يعد جوباريوف نفسه واحدا منهم . انهم من خيار الناس . ولـكن فيهم هذا المزاج نفسه من اليأس والاندفاع . ولهذا تراهم يعيشون فى الزمن المستقبل . كل شىء سوف يكون . واياك أن تنسى انه سـوف يـكون ! أما عن الحاضر فاننا لم نعمل شيئا . ولم تخلق روسيا شيئا من انتاجها الشخصى ، لا فى السياسة ولا فى القانون ، ولا فى الفن . بل ولا فى الصناعة اليدوية !.. ولـكن مهلا مهلا . والصبر الصبر. فكل شىء سوف يكون . ولماذا ! اسمحوا لى أن أسألـكم هذا السؤال!

عجبا ! لأننا نحن المثقفين لا خير فينا . أما الشعب .. آه ! الشعب العظيم . أرأيت الى قميص هذا الفلاح ؟ انه المنبع الذى سيصدر عنه كل شىء . لقد تحطمت كل الاصنام الاخرى ، فعلينا أن نؤمن بالقميص . حسنا ! فماذا اذا أخلف القميص ظننا ..! كلا ، انه لن يخلف الظن . اقرأ مادام كوهانوفسكا وارفع عينيك الى السماء ! حقا لو كنت رساما لرسمت صـورة كهذه : رجل مثقف راكع أمام فلاح وهو يقول له : اشفنى ياسيدى الفلاح ، فان المرض يفتك بى ، وفلاح راكع بدوره أمام الرجل المثقف وهو يقول له : علمنى ياسيدى الشريف ، فان الجهل يفتك بى.. كلاهما باق — طبعا — حيث هو . ان واجبنا هو أن نستشعر شيئا من التواضع — فعلا لا قولا — وأن نستعير من اخوتنا الكبار ما ابتكروه قبلنا وأتقنوه أكثر منا ! Kollner, noch ein glaschen kirsch (١) لا تظن أنى سكير ، ولـكن الخمر تطلق لسانى .

فقال لتفينوف مبتسما :

— لا حاجة بى — بعد ما قلته لى الآن — الى سؤالك عن الفريق الذى تنتمى اليه ، ولا عن رأيك فى أوربا . ولـكن دعنى أوجه اليك ملاحظة واحدة : تقول اننا يجب أن نستعير من اخوتنا الكبار. ولـكن كيف نستطيع أن نستعير بغير أن نراعى ظروف المناخ والأرض ، وخصائص البيئة والأمة ؟ أذكر أن أبى اشـترى من

وقد اضطهدوا اضطهادا عظيما ، ونفى كثيرون منهم الى سيبيريا ، واشتهروا بجدهم وتقواهم وتقشفهم .

(١) « جرسون ! كأسا أخرى من الكرش ! » .

«بوتنوب» مكنة للدراس من الحديد الصب ـ مكنة مشهورة وممتازة في الحقيقة . أتدرى ما الذى حدث ؟ لقد بقيت فى الجرن خمس سنوات طوالا بلا فائدة حتى استبدلت بها أخرى أمريكية مصنوعة من الخشب ، وأقرب الى أساليبنا وعاداتنا كأكثر المكنات الامريكية. لافائدة من أن نستعير دون تدبر ياسوزونت ايفانتش.

فرفع بوتوجين رأسه ، وبقى لحظة صامتا ، ثم قال :

ـ لم أكن أتوقع مثل هذا النقد منك ياعزيزى جريجورى ميهالوفتش . ما الذى يدعوك أن تستعير شيئا ما بدون تدبر؟ أنت تأخذ ما ليس لك لا لأنه ملك لغيرك ، بل لأنه يناسبك . واذن فأنت تراعى وتختار . أما عن النتائج فلا نظلمن أنفسنا ، فسوف يكون لها حظ كاف من الاصالة بفضل تلك الظروف والبيئة المناخية وغيرها مما ذكرته أنت . ما عليك الا أن تضع أمام المعدة الطبيعية غذاء طيبا فتهضمه بطريقتها الخاصة ، وعندما يمر الزمن ويزداد الكيان قوة يمنحه من عنده لونا جديدا . خذ لغتنا نفسها مثلا . لقد غمرها بطرس الاكبر بسيل من آلاف الكلمات الاجنبية، من هولندية ، وفرنسية ، والمانية ، وكانت تلك الكلمات تدل على أفكار يجب أن يألفها الشعب الروسى ، فصبها بطرس علينا بلا تردد ولا تلطف . وكان النتاج الاول بالطبع نتاجا هجينا مختلطا. ثم بدأت عملية الهضم التى أشرت اليها. لقد ثبتت الافكار وهضمت، فتبخرت الصيغ الاجنبية بالتدريج ، ووجدت اللغة فى نفسها مايغنى عن هذه الصيغ . والآن يستطيع أى كاتب عادى أن يترجم لك أية صفحة تريد من هيجل ـ أجل ، من هيجل نفسه ! ـ دون أن يستعين بكلمة واحدة غير صقلبية . وما حدث فى اللغة يجب أن نأمل حدوثه فى النواحى الاخرى : فمرد الأمر كله الى سؤال واحد: ألنا طبيعة ذات حيوية قوية ؟.. حسنا ، اننى أقول ان طبيعتنا.. حسنا ، انها سوف تثبت للتجربة ، فقد اجتازت محنا أعظم من هذه . انما تخشى على سلامتها واستقلالها الأمم الضعيفة المنحلة، وانما يتباهى « بالاصالة الروسية » ضعفاء العقول منا . فقد يكون المرء معنيا كل العناية بصحته ولكن ذلك لا يحمله على أن يتحمس فى الحديث عنها ، ولو فعل ذلك لحق له أن يخجل من نفسه .

ـ هذا كله صواب محض ياسوزونت ايفانتش . ولكن لماذا لا نعفى أنفسنا من التعرض لمثل هذه التجارب ! أنت نفسك تقول ان النتاج الاول كان هجينا مختلطا ! فماذا لو بقى ذلك النتاج

انهجين ! لقد بقى بالفعل كما تعلم أنت نفسك .

ــ ولـكنه لم يبق فى اللغة ــ وليس هذا بالشيء القليل ! ثم ان الشعب هو الذى استبقاه لا أنا ، فلست ملوما اذا كان مقدورا على هذا الشعب أن يتبع مثل هذا النظام . يصيح السلافوفيل : « لقد تطور الالمان تطورا عاديا ! » ولـكن أنى لنا ذلك اذا كانت أول خطوة خطاها جنسنا ــ أعنى استدعاء أمير من وراء البحار ليحكمهم ــ خطوة شاذة غير عادية ، لا تزال تتكرر الى اليوم فى كل امرىء منا ! كل منا بلا ريب قد قال لشيء أجنبى ــ ولو مرة واحدة فى حياته ــ « تعال ، احكمنى وسدنى ! » أنا بالطبع على استعداد لأن أسلم لك بأننا حين نضع مادة أجنبية فى جسمنا لا نستطيع أن نحكم حكم اليقين أى مادة تلك التى نضعها فيــه ، أدسم أم سم . ولـكن من المعروف أن الانتقــال من السيىء الى الحسن لا يكون بشيء أحسن نسبيــا ، بل بشيء أسوأ . والسم نفسه ينفع فى الطب . لا يجدر بغير البله أو اللئــام أن يحتجوا بفقر الفلاحين بعد التحرير ، أو بانتشار السكر منذ الغاء احتكار الخمور ، فالقاعدة دائما : من الأسوأ الى الأحسن ..

مرر بوتوجين يده على وجهه ، واستطرد قائلا :

ــ ســألتنى عن رأيى فى أوربا . وأقول لك انى معجب بها ، ومناصر لمبادئها الى أبعد حد ، ولا أرى حاجة الى اخفاء هــذه الحقيقة . لقد تعلمت من زمن طويل ــ لا ، ليس من زمن طويل ــ لقد تعلمت من زمن ألا أهاب التعبير عن معتقــداتى بجلاء . وقد رأيتك أنت أيضا لا تتردد فى اطلاع جوباريوف على طريقتك الخاصة فى التفكير . اننى أحمــد الله على انى لم أعد أعبأ بآراء الرجل الذى أحادثه ولا بوجهات نظره ولا بعاداته . والحق انى لا أعلم شيئا أقبح من هذا الجبن الذى لا داعى له ــ هذه الرغبة فى الارضاء التى تنبعث عن الملق ، وتجعلك ترى أحيانا رجلا من ذوى الشأن بيننا يحاول أن يتحبب الى طالب صغير ليس بشيء فى عينيه ، فيهبط معه الى نوع من العبث الفكرى ، ويلجأ الى الخداع والحيلة . هب ان ذوى الشــأن قد يلجأون الى ذلك رغبــة فى الشهرة ، ولـكن ما الذى يجبرنا نحن العاديين من الناس على أن نتزحزح عن آرائنا ، وننزل عن كرامتنا ؟ أجل ، أجل ، اننى غربى أدين بالولاء لأوربا . ومعنى ذلك ــ اذا شــئت التحديد ــ أنى أدين بالولاء للحضارة . تلك الحضارة التى يهزأ بها أصحابنا الآن

هزءا شنيعا. معنى ذلك أنى أدين بالولاء للمدنية . أجل ، للمدنية ، فهذه كلمة أفضل . وانى أحبها وأومن بها من صميم قلبى ، وانى لا أومن ولن أومن بشيء سواها . هذه الكلمة « ال م د ن ية » (ونطق بوتوجين بكل مقطع فى جزم وتأكيد) كلمة واضحة نقية مقدسة ، وكل ما عداها من المثل كالقومية والمجد وما اليهما ــ كل هذه المثل تنبعث منها رائحة الدم .. سحقا لتلك المثل !

ــ هذا حسن . ولكن ألا تحب روسيا ــ وطنك ــ ياسوزونت ايفانتش !

فمرر بوتوجين يده على وجهه قائلا :

ــ اننى أحبها حبا عنيفا وأكرهها كرها عنيفا .

فهز لتفينوف كتفيه مرددا :

ــ هذه عبارة قديمة يا سوزونت ايفانتش . هذه عبارة مبتذلة.

ــ وأى شيء فى ذلك ؟ أتراه يخيفك ؟ عبارة مبتذلة ! اننى أعرف كثيرا من العبارات المبتذلة الرائعة . « النظام والحرية » مثلا . هذه عبارة مبتذلة جد معروفة ، فهل تظن أننا لسنا بحاجة اليها مع ما نحن فيه من تحلل من القوانين ، ومن استبداد بيروقراطى ؟ الا تجد أن كل العبارات التى تدير رءوسنا كثيرة شابة ، من مثل « البورجوازية العفنة » و « سيادة الشعب » و « حق العمل » ــ الا تجد أن هذه العبارات أيضا عبارات مبتذلة ؟ أما الحب الذى لايمكن أن ينفصل عن الكره ...

فقاطعه لتفينوف قائلا :

ــ بيرونزم .. رومانتيكية العقد الرابع .

ــ معذرة اذا قلت انك مخطىء . ان مثل هــذه الانفعالات المختلطة قد سبق الى الاشــارة اليها كاتلس ــ الشاعر الرومانى كاتلس ــ منذ ألفى سنة . وقد قرأت ما كتبه فى ذلك ، فانى أعرف شيئا من اللاتينية بفضل دراستى الدينيــة . أجل ، اننى أحب روسيا وأكرهها فى وقت واحد . روسيا ، بلادى الغريبة الحلوة الكريهة العزيزة ! لقد غادرتها منذ قليل لأنى بحاجة الى شيء من الهواء النقى بعد أن جلست عشرين عاما على كرسى كاتب فى ادارة حكومية . لقد غادرت روسيا وانى لأحمد المقام هنا ، ولكننى أشعر انى سأعود اليها عما قريب . هذه الارض طيبة للحدائق ، ولكنها لا تصلح لثمارنا البرية .

قال لتفينوف :

ـ أنت تحمد المقام ، وأنا أيضا أحب هذه البلاد ، وقد جئت اليها لأتعلم ، ولـكن ذلك لا يمنعني ان ارى مثل هذه الاشياء ...

وأشار الى فتاتين من بائعات الهوى تسيران وقد أحاطت بهما ثلة من أعضاء نادي الفروسية وهم يحاولون أن يتكلموا الفرنسية بلهجة باريس ، والى بهو القمار وقد غص بالناس على الرغم من تقدم الليل .

فقاطعه بوتوجين قائلا :

ـ وما أدراك أني لا أرى هذه الاشياء ؟ معذرة اذا قلت لك ان ملاحظتك تذكرني بتهليل صحفيينا المساكين أثناء حرب القرم كلما وصفت جريدة التيمس سيئة من سيئات مجلس الحرب الانجليزي. أنا نفسي لست متفائلا . ان البشرية كلها ، وحياتنا كلها ، وهذه المهزلة كلها بخواتيمها المحزنة ، لاتبدو أمام ناظري في ألوان وردية. ولـكن لماذا نلصق بالغرب ما لعله أن يكون متأصلا في طبيعتنـا البشرية نفسها ؟ ان كان بهو القمار هذا يقذى العين فهل تراك تجد مقامرينا الوطنيين أحسن منظرا ؟ لاياعزيزي جريجوري ميهالوفتش. يجب علينا أن نتواضع قليلا ، ونتراجع قليلا . ان التلميذ النجيب يرى أخطاء استاذه ولـكنه يلزم الصمت ازاءها لأنه يحترم هـذا الأستاذ . وهذه الاخطاء نفسها تنفعه وترشده الى الطريق السوى. أما ان أبيت الا أن تسلق الغرب بلسانك ، فهذا هو الأمير كوكو يعدو الى بهو القمار عدوا ، ولعله سيخسر على المائدة الخضراء في ربع ساعة الايجار الذى انتزع من مائة وخمسين أسرة شقيت في كسبه . ان أعصابه ثائرة ، فقد رأيته اليوم في قهوة ماركس يتصفح رسالة لفايو (١) ... ستجده خير مخلوق تتحدث معه !

فأسرع لتفينوف يقول حين رأى بوتوجين ينهض من مكانه :

ـ لا لا . معذرة . انا لا أكاد أعرف الأمير كوكو . ثم اني أفضل أن أتحدث معك .

فقاطعه بوتوجين وهو ينهض وينحني :

ـ أشكرك كثيرا . ولـكننا تحدثنا طويلا ، أعني انني تحدثت وحدى في الحقيقة . ولعلك لاحظت من قبل أن المرء يعتريه دائما شبه خجل وارتباك حين يجد أنه تكلم وحده ، وخصوصا اذا كان ذلك في مقابلة أولى ، فـكأنه يريد أن يظهر براعته لصاحبه . الى

(١) لوى فايو (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) كاتب وصحفي فرنسي ، عرف بتعصبه الشـديد للكاثوليكية وعدائه العنيف لكل ألوان التفكير الحر .

لقاء قريب . واكرر لك انى سعيد جدا بمعرفتك .

ــ لحظة واحدة ياسوزونت ايفانتش . أخبرنى على الاقل أين تسكن ، وهل تنوى أن تبقى كثيرا ؟

فبدا على بوتوجين شيء من الارتباك :

ــ سأبقى نحو أسبوع فى بادن . نستطيع أن نلتقى هنا على كل حال . فى قهوة فيبر أو فى قهوة ماركس . وقد أزورك .

ــ أريد عنوانك على كل حال .

ــ اننى أعيش وحيدا .

فسأله لتفينوف بغتة :

ــ امتزوج انت ؟

ــ لا . معاذ الله من ذلك ! ولـكن معى بنتا ...

ــ آه !

وكان فى نبرة لتفينوف معنى الاعتـــذار ، وفى ملامحه تأدب مقصود ، فمضى بوتوجين يقول :

ــ ان عمرها لا يتجاوز ست سـنوات . انها يتيمة ... ابنــة سيدة ... صديقة حميمة لى . يحسن بنا اذن أن نلتقى هنا . وداعا .

وكبس قبعته على رأسه الجعد الشعر واختفى سريعا . ولمح لتفينوف شبحه مرتين تحت فوانيس الطريق المعتم المؤدى الى طريق لختنتالر .

ــ رجل غريب ! يجب أن أبحث عنه !

هذا ما جال بخاطر لتفينوف وهو عائد الى فندقه . ودخل حجرته فاستوقفت نظره رسالة على المنضدة . فقال فى نفسه : « آه ! ثانيا ! » واستخفه الفرح ، ولكن الرسالة كانت من بلده ــ من أبيه . وفض لتفينوف الخاتم العائلى السميك ، وكاد يبدأ فى قراءة الرسالة عندما نبهه شذا قوى ممتع مألوف لديه ، ورأى فى النافذة طاقة كبيرة من الهليوتروب الفض فى كوب ماء . فانحنى عليها بشىء من الدهشة ، وشمها ... وكأنما نبض فى ذاكرته شىء سحيق البعد ... ولكن أى شىء هو ؟ لم يستطع أن يعرف . فدق الجرس يدعو الخادم ، وسأله من أين جاءت هذه الازهار . فأجابه الرجل أن سيدة أحضرتها وابت أن تذكر اسمها ، وقالت : ان «الهرتسليتنهوف» سيعرفها من هذه الازهار . وعاد ذلك الشىء ينبض فى ذاكرة لتفينوف . وسأل الرجل كيف كان شكل السيدة ، فأخبره أنها كانت فارعة الطول رائعة الملبس تسدل على وجهها نقابا . وأضاف : « لعلها كونتة روسية » . فسأله لتفينوف :

ــ لماذا تظن ذلك ؟

فأجابه الخادم باسما عن نواجذه :

ــ لأنها أعطتنى جلدين .

وصرف لتفينوف الخادم ، وظل واقفا أمام النافذة وقد غرق فى تفكير عميق ، ثم لوح بيده وانصرف ثانية الى الخطاب الآتى من الريف . كان أبوه يصب عليه شكاواه المعتادة ، مؤكدا له ان القمح قد بار اذ لم يرض أحد أن يأخذه ولو بغير ثمن ، وأن الناس قد خرجوا تماما عن حدود الطاعة ، وأن نهاية العالم ربما كانت وشيكة الوقوع . جاء فى رسالته : « اتذكر سائقى الاخير ــ ذلك الفتى الكالموكى ؟ لقد أصيب بمس من الجنون وأشرف على الموت المحقق ، وكدت أصبح بلا سائق لولا لطف الله . فقد أشار على بعض أولى الخير أن أرسل الفتى المريض الى ريازان حيث يقيم قس مشهور

ببراعته فى افساد السحر ، فنجع علاجه على قدر الامكان . واليك رسالة الأب الطيب تأييدا لما أقول وتذكارا لهذا الحادث . » واجال لتفينوف بصره فى تلك الوثيقة العجيبة فوجد فيها : « أن الخادم نيكافور ديمتريف قد أصابته علة لا ينفع فيها طب ، وكانت هـذه العلة من فعل أناس أشرار ، ولـكنه هو نفسه ، أى نيكافور ، كان السبب فيها ، اذ حنث فى وعده لفتاة معينة ، فاستعانت بغيرها حتى جعلته لا يصلح لشيء ، ولو لم أظهر أنا لمساعدته فى هـذه الحال لقضى عليـه بأن يهلك كما تهلك الديدان ، ولـكنى بايمانى العميق بالعين المطلعة على كل شيء كنت سببا لامتـدادٍ أجله . ولست فى حل من البوح بالطريقة التى سلـكتها لشفائه ، ولـكنى أسأل سعادتكم الا تعطفوا على هذه الفتاة الماكرة ، بل انه لا ضرر من انتهارها حتى لا تعود الى اصابته بأذى » .

شرد ذهن لتفينوف فى هذه الوثيقة . فقد حملت اليه نفحة من الصحراء ، من المروج ، من الظلمة العمياء التى تخيم على الحياة المتعفنة هناك . وبدا له غريبا ان يقرأ مثل هذه الرسالة فى بادن دون غيرها من المدن . وكان الليل قد جاوز منتصفه بكثير فأوى الى فراشه واطفأ النور . ولـكنه لم يستطع نوما . فقد ظلت الوجوه التى رآها والاحاديث التى سمعها تتوارد عليه وتدور وقد تشابكت واختلطت اختلاطا غريبا فى راسه الملتهب المصدع من ادخنة التبغ . فمرة كان يخيل اليه أنه يسمع جوباريوف يهمهم ، ويرى عينيه مثبتتين على أرض الغرفة بتحديقهما البليد العنيد . ثم اذا بهاتين العينين تلمعـان وتقفزان واذا هو يرى وجـه مدام زوها نتشيكوف ويسمع صوتها الحاد ، فيردد هامسا دون وعى : «أجل، أجل ، لقد صفعته على وجهه » ثم يمر امامه وجه بوتوجين المتنافر الملامح ، ويسـترجع للمرة العشرين كل كلمـة قالهـا . ويقفز فوروشيلوف كعفريت العلبة ، فى سترته الانيقة المحبوكة كأنها حلة عسكرية جديدة . ويومىء بشتشالـكن ـــ فى جد ورزانة ـــ برأسه المشذب الذى لا يفكر الا فى الخير ، ويجأر بنداسوف ويقسم ويبكى بمبايف من شدة الطرب ... وفوق كل شيء هذا العطر ... هذا العطر الملح الثقيل لم يترك له راحة ، بل أخـذ يقوى ويقوى فى الظلام ، مذكرا اياه فى دأب بشيء ما زال يند عن ذاكرته ... وخطر للتفينوف ان رائحة الازهار فى حجرة النوم يمكن أن تضره ، فنهض واخذ يتلمس طريقه الى الطاقة حتى نقلهـا الى الفرفة الاخرى .

ولـكن الشذا المتهالك ظل ينفذ من هناك الى وسـادته ، وتحته ملاءته ، وهو يتقلب على جنبيه فى ألم . وبدأت تسـتولى عليه أحلام محمومة ، فاعترض طريقـه مرتين ذلك القس « المشهـور ببراعته فى افساد السحر » على هيئة ارنب لعوب له لحية وذيل كذيل الخنزير . وغرد فوروشيلوف أمامه وهو جالس فى قبعـة جنرال بريشة ضخمة ، وكأنه بابل فى شجيرة ... وفجأة قفز من سريره وصاح وهو يضرب يدا بيد : « أمعقول أنها هى ؟ .. غير معقول ! »

ولـكى نوضح صيحة لتفينوف هـذه يجب أن نسأل القارىء السمح أن يكر معنا بضع سنوات الى الوراء .

فى أوائل العقد الخامس كانت أسرة الأميرين أوزينين تعيش فى موسكو بأفرادها العديدين ، فى ضيق يقرب من الفقر . وكانوا أمراء روسيين أصلاء من سل روريك الخلص لا من تتر جورجيا ، واسمهم يرد فى التواريخ القديمة التى ترجع الى عهد أمراء موسكو الكبار الاول الذين ضموا أطراف الاراضى الروسية . وقد ملكوا اقطاعات وراثية واسعة ، وكوفئوا مرات كثيرة على « بلائهم وحسبهم وتضحياتهم » ، وجلسوا فى مجلس البويار (١) . بل ان احدهم أبيح له أن يستعمل اسمه كاملا طبقا لسلسلة النسب . ولكن أعداءهم نسبوا اليهم « استعمال السحر والرقى المؤذية » ، فحلت عليهم لعنة الامبراطورية ، ونكبوا «نكبة مروعة لم يستطيعوا النهوض منها » . وجردوا من رتبهم ، ونفوا الى جهات نائية . لقد هوى آل أوزينين ثم لم يرتفعوا ثانية. وقد رفعت عنهم اللعنة بعد أزمان، وردت اليهم ممتلكاتهم المصادرة ، وتبوأوا منزلهم القديم فى موسكو. ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئا . فقد افتقرت أسرتهم ، ونضبت مواردها ، ولم تنتعش فى عهد بطرس ولا فى عهد كاترين ، ومازالت تضمحل وتنحدر حتى أصبح من بين أعضائها رؤساء خدم فى المنازل الكبيرة ، ومديرو حانات ومفتشو بوليس .

وكانت الأسرة التى أسلفنا ذكرها زوجا وزوجة وخمسة أبناء . وكانوا يعيشون قرب « ساحة الكلاب » فى منزل خشبى صغير ذى طبقة واحدة ، له مدخل منقوش مطل على الشارع ، وأسود خضر على البوابات ، الى آخر ما هنالك من شعائر النبل ، على الرغم من أنهم كانوا لا يستطيعون تدبير معاشهم الا بجهد شديد ، وكانوا دائما مدينين للخضري ، وربما أعوزهم الشمع والوقود فى الشتاء .

(١) « البويار » لقب كان يطلق منذ أقدم عصور التاريخ الروسى على السادة المقربين من أمراء روسيا ، وكانوا أصدقاء الامير ومستشاريه وقادة حرسه ، والاعضاء البارزين فى مجلسه الاستشارى ، وقد تطوروا حتى أصبحوا طبقة أرستقراطية لها حق امتلاك الاراضى والرقيق .

وكان الأمير نفسه رجلا غبيا خاملا ، كانت له فى شبابه شهرة بالفندرة والاناقة ثم انحدرت به الحال حتى منح وظيفة من وظائف موسكو العتيقة ذات الراتب الصغير والاسم الطنان ، والتى لا عمل فيها على الاطلاق . وكانت هذه المنحة تقديرا لزوجته — التى كانت وصيفة شرف — أكثر مما كانت تكريما لاسمه . . ولم يكن الأمير يشغل نفسه بشيء ، ولم يكن له عمل الا أن يجلس متدثرا بمعطفه ويدخن ويزفر بشدة من الصباح الى المساء . وكانت زوجته امرأة عليلة حادة الطبع ، دائمة الاهتمام بتوافه البيت ، وبادخال أولادها المدارس الاميرية ، والمحافظة على صلاتها فى بطرسبرج . ولم تستطع قط أن تألف حياتها ولا بعدها عن البلاط .

وكان والد لتفينوف قد عرف آل أوزينين فى أثناء اقامته بموسكو ، وأتيح له أن يسدى اليهم بعض الخدمات ، واقرضهم مرة ثلاثمائة روبل . وكان ابنه يتردد عليهم وهو طالب ، وقد اتفق أن مسكنه لم يكن بعيدا عن منزلهم . ولكن الذى اجتذبه لم يكن قرب دارهم ، ولا خشونة معيشتهم ، انما أخذ يكثر من زيارتهم بعد أن أغرم بابنتهم الكبرى ايرينا .

كانت وقتئذ فى السابعة عشرة من عمرها ، جديثة عهد بالمدرسة الداخلية الارستقراطية التىأخرجتها منها أمها لسخطها علىالمديرة . وكان منشأ هذا السخط أن ايرينا اختيرت فى الحفلة السنوية لتلقى أبياتا بالفرنسية فى تكريم المراقب ، وقبيل الاحتفال أحلت محلها فتاة أخرى كان أبوها من كبار موردى الخمور ، ولم تستطع الأميرة أن تسكت على هذه الاهانة . والحقيقة أن ايرينا نفسها لم تغتفر للمديرة قط هذا الظلم ، فقد كانت تحلم كيف انها ستقف أمام الجميع لتلقى أشعارها ، فتتعلق بها الأنظار ، ثم تتحدث عنها موسكو ... والحق أنها كانت جديرة أن تتحدث موسكو عنها . فقد كانت فارعة رشيقة ، ذات صدر لم يكد يمتلىء ، وكتفين ضيقتين لما تستديرا ، وبشرة بيضاء مرمرية نادرة فى مثل سنها ، صافية ملساء كالقاشانى ، وشعر أثيث أشقر تتخلله خصل داكنة تمنحه طرافة عجيبة . وكانت قسماتها الرائعة الدقة — الى حد الكمال المفرط — لم تكد تفقد سذاجة الصبا ، ولكن استدارة جيدها البديع ، وابتسامتها الحالمة الشاردة ، كانا يحدثان عن سيدة شابة حادة المزاج . وكان فى تقويس هاتين الشفتين اللتين لاتكادان تنفرجان بالابتسام ، وفى ذلك الأنف الصغير الاقنى الاقرب الى الضيق ،

شيء من العناد والاندفاع يوشك أن يوردها وغيرها الموارد. وعيناها كانتا رائعتين ، ناعستين حالمتين ، لوزيتين كعينى الهة مصرية ، رماديتين فى خضرة ، وطفاوين مقرونتى الحاجبين وكان لتينك العينين تعبير غريب ، كأنما تتأملان بانتباه من عمق بعيد مجهول .

وكان المشهور عن ايرينا فى المدرسة انها من أذكى الطالبات وأقدرهن ، ولكنها متقلبة المزاج ، مشغوفة بالسلطة ، متشبثة برأيها ، وقد تنبأت لها احدى مدرساتها بأن عواطفها ستكون سببا فى شقائها «Vos Passions vous Perd Eront» على حين عابتها مدرسة أخرى ببرود الطبع وجمود الاحساس . ووصفتها بأنها « فتاة بلا قلب » . وكانت أترابها يرينها متكبرة منقبضة ، واخوتها يكادون يرهبونها ، وأمها لا تثق بها ، وأبوها يجزع حين تثبت عليه نظراتها الغامضة . ولكن أباها وأمها كليهما كانا يشعران نحوها شعورا غير ارادى بالاحترام ، لا لشخصيتها بل لآمال غريبة مبهمة كانت تبعثها فى نفسيهما .

قال الأمير الشيخ يوما وهو يخرج غليونه من فمه :

ــ سوف ترين يابراسكوفيا دانيلوفنا أن صغيرتنا ايرينا سترفعنا من هذا الحضيض .

فغضبت الأميرة وقالت لزوجها ان له «des expressions insupportables» (١) ، ولكنها أخذت تحلم بكلماته بعد ذلك ، وتمتمت بين أسنانها : آه ! ليتنا نرتفع حقا من هذا الحضيض !

وكانت ايرينا فى بيت أبويها لا يكاد يحد من حريتها شيء . لم يكونا يدللانها بل لعلهما كانا يتجنبانها شيئا ما ، ولكنهما كانا لا يعترضان سبيلها ، ولم تكن تريد غير هذا . وعندما كان يحدث أمر شديد الاذلال ، كأن يأتى أحد الباعة ويظل يصيح ليسمعه أهل الفناء كله ، قائلا انه مل المجيء للمطالبة بنقوده ، أو يبدأ الخدم أنفسهم يغلظون القول لسادتهم « انكم أمراء مدهشون حقا ، يمكنكم ان تصفقوا فى طلب العشاء وتذهبوا جياعا الى الفراش » ... كانت ايرينا تلزم كرسيها دون أن تحرك ساكنا ، ولكن وجهها العابس تنزلق عليه بسمة شريرة أمر على أبويها من كل تأنيب . كانا يشعران بأنهما مذنبان ــ وان لم يذنبا ــ نحو هذه الانسانة التى وهبها مولدها وحده الحق فى الثراء والترف والتكريم .

وقد أحب لتفينوف ايرينا من النظرة الاولى . ولم يكن يكبرها

---

(١) « ألفاظا لا تحتمل » .

الا بثلاث سنوات . ولـكنه لبث مدة طويلة عاجزا عن الفوز بحبها بل عن جذب انتباهها . وكان فى سلوكها نحوه شىء من العداوة ، وكأنما أهانها فانطوت على الجرح الا أنها لم تستطع أن تغفر أبدا . وكان فى ذلك الوقت أصغر سنا وأكثر تواضعا من أن يفهم ما قد يكمن تحت هذه الجفوة التى تشبه الازدراء . وربما نسىمحاضراته وواجباته وبقى جالسا فى صالون آل أوزينين الكئيب ، يرقب ايرينا خلسة وقلبه يدق دقا بطيئا مؤلما يكاد يخنقه . فكان يبدو عليهـا حينذاك شىء كالغضب ، فتغادر مجلسها وتتمشى وتنظر اليه نظرات باردة وكأنه منضدة أو كرسى ، ثم تهز كتفيها وتشبك ذراعيها . وربما تجنبت النظر اليه أيضا طول المساء ، حتى عندما يتحادثان، فكأنها تحرمه حتى نعمة النظر !.. وربما عمدت الى كتاب تحدق فيه دون أن تقرأ ، وقد زرت حاجبيها وعضت على شفتيها ، ثم تسأل اباها أو اخاها فجأة بصوت مرتفع : « ما معنى الصـــبر بالالمانية ؟ » وحاول أن ينتزع نفسه من الدائرة المسحورة التى كان يضطرب فيها عاجزا معذبا كطائر فى فخ ، وغاب عن موسكو اسبوعا حتى كاد يجن من الشوق والألم ، ثم عاد الى منزل آل أوزينين نحيلا مريضا .. والعجيب أن ايرينا كانت قد نحلت هى الاخرى نحولا ظاهرا خلال تلك الايام ، وشحب وجهها وذبل خـداها .. ولـكنها قابلته بمزيد من البرود ، واهمال يكاد ينطوى على البغض، وكأنه نكأ ذلك الجرح الخفى الذى طعنه فىكبريائها.. وهكذا عذبته شهرين . ثم انقلب الحال كله فى يوم واحد . اشتعل الحبكالنار، انقض عليهما كالصاعقة . كان جالسا ــ لقد ظل يذكر هذا اليوم سنين ــ فى صالون آل أوزينين قرب النافذة ، ينظر الى الشارع ولا يعى ، وقلبه يعتلج فيه الغيظ والسأم ولـكنه لايستطيع أن يتحرك من مكانه .. وفكر أن لو كان يجرى تحت النافذة نهر لرمى نفسه فيه برعشة خوف ، لـكن بغير ندم . وكانت ايرينـا جالسة غير بعيدة منه فى صمت وسكون غريبين . وكانت قد لبثت أياما عدة لا تكلمه بل لا تكلم احدا ما. ظلتجالسة معتمدة برأسها على يدها وكأنها فى حيرة ، وهى تنظر حولها ببطء بين الفينـة والفينة . واخيرا أصبح هـذا العذاب البـارد أعظم مما يستطيع لتفينوف أن يحتمل . فنهض ، وبدأ يبحث عن قبعتـه دون أن يسلم . واذا بصوت رقيق يهمس : « ابق » .

وخفق قلب لتفينوف ، ولم يعرف لتوه صوت ايرينا ، فقد كانت

فى تلك الـكلمة الواحدة رنة لم تكن فيه من قبل . ورفع راسه فذهل ... لقد كانت ايرينا تنظر اليه بشغف ، اجل ، بشغف ! ورددت قولها : « ابق ، لا تذهب ، اود أن أكون معك » وأردفت وقد زاد صوتها انخفاضـــا : « لا تذهب . انى أريد ذلك » . اقترب منها دون أن يفهم شيئا ، ومد اليها يديه وهو لايكاد يعى ما يفعل ... فأسلمته يديها ، ثم التفتت باسمة وقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وخرجت من الحجرة وهي لاتزال تبتسم. وعادت بعد دقائق قليلة مع أختها الصغرى ، ونظرت اليه مرة اخرىتلك النظرة الطويلة الحنون ، وأجلسته بجانبها ... ولم تستطع أول الأمر أن تقول شيئا ، بل ظلت تتنهد ووجهها يحمر خجلا ، ثم تشجعت فأخذت تسأله عدة مرات أن يصفح عنها لأنها لم تنصفه فيما مضى ، وأكدت له انها قد تغيرت تماما ، وادهشته اذ تحمست فجأة للنظام الجمهورى (وكان فى ذلك الوقت يعبد روبسبير عبادة ، ولا يستبيح لنفسه أن يجاهر بانتقاد مارا) . ولم يعرف انها تحبه الا بعد أسبوع . نعم ، لقد ظل يذكر ذلك اليوم الاول طويلا... ولـكنه لم ينس الايام التى تلته أيضا ، تلك الايام التى رأى فيها ــ وهو لايزال يقهر نفسه على الشك ويذودها عن اليقين ــ رأى فيها بجلاء وفى نشوة من الحبور تكاد تمازجها نشوة الخوف ، تلك النعمة التى يئس منها تبعث الى الحياة ، وتزكو وتجرف كل شىء أمامها حتى تصل اليه . ثم جاءت لحظات الحب الاول ببهجتها واشراقها. لحظات لا تتكرر فى حياة واحدة ، ولا ينبغى لها أن تتكرر. أصبحت ايرينا على غير انتظار هادئة كالحمل ، ناعمة كالحرير ، عطوفا كل العطف. أخذت تعطىاخوتها الصغار دروسا فىالفرنسية والانجليزية الا البيانفانها لم تكنموسيقية ــ وكانت تقرأ معهمكتبهم المنزلية ، وتعنى معهم بشئون المنزل . كانت تجد فى كل شىء طرافة ومتعة ، وكانت اما تثرثر بلا انقطاع واما تسبح فى حنان صامت . وكانت تفكر فىشتى الخطط ، وتهيم فى الحلم بما سوف تعمله عندما تتزوج لتفينوف (لم يرتابا قط فى أن زواجهما سيتم يوما) ، وكيف أنهما معا سوف ... فيقول لتفينوف مسرعا : « نعمــل ؟ » فتردد ايرينا : « أجل نعمل ، ونقرأ ، ولـكن السفر أولا » وكانت شديدة الرغبة فى أن تغادر موسكو بأسرع ما يمكن . وعندما كان لتفينوف يذكرها بأنه لم يتم دراسته فى الجامعة بعــد ، كانت تجيبه دائما بعد تفكير قصير : انه من الممكن جدا أن يتم دراسته فى برلين أو..

فى مكان ما. وكانت ايرينا قليلة التحفظ فى التعبير عن مشاعرها ، فلم تخف علاقتها بلتفينوف طويلا على الأمير والأميرة ، اللذين وان لم يفرحا - فانهما حين قدرا جميع الظروف لم يجدا ضرورة لبتها . فقد كانت ثروة لتفينوف جسيمة ...

- ولكن أسرته ، أسرته !

هكذا كانت تحتج الأميرة فيجيبها الأمير : « نعم ، أسرته بالطبع. ولكنه من النبلاء على كل حال . واهم ما فى الأمر إن ايرينا لن تصغى الينا كما تعلمين . ومتى لم تعمل كما تهوى ؟! ... Vous connaissez sa violence (١) وبعد فلم يتحدد شىء بعد » هكذا كان الأمير يجادل ، ولكنه كان يتبع ذلك فى سره : « مدام لتفينوف - اهذا كل شىء ؟ لقد كنت اتوقع شيئا آخر » . وقد سيطرت ايرينا على خطيبها المستقبل سيطرة تامة ، والحق أنه هو نفسه انقاد لها راضيا وكأنه سقط فى دوامة ، ولم يعد يملك نفسه ...

كان ذلك رهيبا وحلوا ، لم يكن ثمة ما يندم عليه ، ولم يكن ثمة ما يضن به . لم يستطع أن يفكر فى معنى الزواج ومسئولياته ، أو يقرر هل يستطيع رجل خاضع كل هذا الخضوع أن يكون زوجا صالحا ، وأى طراز من الزوجات سوف تصبح ايرينا ، وهل يقف كل منهما فى الموضع الذى ينبغى أن يقفه من صاحبه ؟ .. كان أسير هواه ، كل ما يعلمه أنه يحب أن يتبعها ، أن يكون معها - هكذا دائما - وليكن ما يكون !

ولكنه ، وان لم يبد مقاومة ، وان فاضت ايرينا حنانا دافقا ، فان علاقاتهما لم تخل من سوء تفاهم ونزاع . فذات يوم ذهب اليها توا بعد خروجه من الجامعة وعليه سترة بالية ، ويداه ملطختان بالحبر، وأسرعت لتلقاه بترحابها المألوف ، واذا بها تتوقف فجأة ، وتقول بغير تمهيد :

- أين قفازك ؟.. ثم أضافت مسرعة : يا للخجل ! انك لاتختلف عن أى - طالب !

فقال لتفينوف :

- انت تسرفين يا ايرينا ..

فكررت :

---

(١) « أنت تعرفين استبدادها » .

ــ انك لا تختلف ــ عن أى طالب (١). Vous n'ête pas distingué

واولته ظهرها وخرجت من الحجرة .. الا انها استغفرته بعد ساعة ... وكانت سريعا ما تندم وتسأله أن يسامحها ، ولكن العجيب انها كثيرا ما كانت تتهم نفسها بشرور لا أصل لها الا فى خيالها ، وتنكر بعناد نقائصها الحقيقية . ومرة اخرى وجدها تبكى، وراسها بين يديها وشعرها مشعث ، وعندما سألها فى اضطراب عن سبب حزنها ، اشارت باصبعها الى صدرها ولم تتكلم . فلمعت فى ذهنه كلمة « السل!» وامسك بيدها ، وغمغم بصوت مرتعش:

ــ أانت مريضة يا ايرينا ؟ (وكانا قد اعتادا أن ينادى الواحد منهما الآخر باسمه الاول فى المناسبات الكبرى .) سأذهب حالا لأحضر الطبيب .

ولكن ايرينا لم تدعه يكمل ، بل دقت الارض بقدمها فى غيظ :

ــ اننى بصحة تامة ... ولكن هذا الثوب ... الا تفهم ؟

فردد فى حيرة :

ــ ماذا ؟.. هذا الثوب ؟..

ــ ماذا ؟ ماذا ؟ أنا لا أملك غيره ، وهو قديم كريه ! ولابد لى أن ألبسه كل يوم ... حتى عندما تأتى انت ياجريشا ــ ياجريجورى ــ الى هنا ... ستزهد فى حبى أخيرا حين تجدنى بهذه الرثاثة !

ــ يالله ! ماذا تقولين يا ايرينا ؟ ان هذا الثوب ظريف جدا ... وهو عزيز لدى ايضا لأنى رأيتك فيه اول مرة ياحبيبتى ...

فاحمر وجهها خجلا :

ــ ارجوك الا تذكرنى ياجريجورى ميهالوفتش بأنى لم يكن لدى ثوب غيره حتى فى ذلك الحين .

ــ ولكننى أؤكد لك يا ايرينا بافلوفنا أنه جميل عليك جدا !

ــ لا ، أنه كريه ، كريه .. وألحت فى قولها وهى تشد خصلات شعرها الطويلة الناعمة بحدة عصبية ــ اف ! هذا الفقر ! هذا الفقر وهذه القذارة ! كيف يهرب الانسان منه ؟ كيف ينجو الانسان من هذا المستنقع !

ولم يدر لتفينوف ماذا يقول ، وتحول عنها قليلا .

وفجأة وثبت ايرينا من مقعدها ، ووضعت كلتا يديها على كتفيه،

(١) « أنت غير أنيق » .

وتمتمت وهى تقرب وجهها منه ، وعيناها اللتان ما زالتا مليئتين بالدموع تلمعان بنور السعادة :

– ولكنك تحبنى ياجريشا ؟ أنت تحبنى ؟ أنت تحبنى أيها العزيز حتى فى هذا الثوب الكريه ؟ ..

فركع لتفينوف عند قدميها . فهمست وهى تنحنى عليه :

– آه . أحبنى ياجميلى ! يامنقذى !

وهكذا كانت الايام تعدو، والاسابيع تمر . ولم يعلن شيء رسمى. وظل لتفينوف يؤجل طلب يدها . ولم تكن تلك رغبته طبعا ، ولكنه كان ينتظر ما تشير به ايرينا (فقد كانت تلاحظ أحيانا انهما كليهما صغيران الى درجة مضحكة ، وانهما يجب أن يزيدا على الاقل بضعة أسابيع على سنيهما) . الا أن كل شيء كان يتجه الى خاتمة ، وكان المستقبل فى اقترابه يزداد وضوحا وتحددا ، عندما حدث فجأة حادث بعثر كل أحلامهما وخططهما كأنها غبار الطريق .

فى ذلك الشتاء زار البلاط موسكو ، وتتابعت الاحتفالات تترى، حتى جاء دور الحفلة الراقصة التقليدية الكبرى فى بهو النبلاء . ووصل نبأ تلك الحفلة الى المنزل الصغير فى ساحة الكلاب وان لم يصل اليه الا عن طريق اعلان فى « الجريدة الرسمية » . وكان الأمير أول من أثاره النبأ ، فقرر على الفور أنهما يجب أن يذهبا ومعهما ايرينا ، وان من الاثم الا ينتهزهذه الفرصة لرؤية مليكيهما وان هذا ليس الا نوعا من الواجب على أبناء الأسر العريقة . ودافع عن رأيه فى حرارة ظاهرة غير مألوفة منه ، ووافقته الأميرة الى حد ما ، ولم يكن ضجرها الا حسرة على ما يقتضيه ذلك من نفقات ، ولكن ايرينا أظهرت معارضة شديدة ، وأجابت على كل حجج والديها بأن «لا ضرورة للذهاب ، وأنها لن تذهب» وبلغ عنادها حدا جعل الأمير يقرر آخر الأمر ان يرجو لتفينوف ليحاول هو اقناعها ، بأن يذكرها — بين ما يسوقه من الاسباب — أنه لايحسن بفتاة صغيرة أن تتجنب المجتمع ، وأنها ينبغى أن « تمر بهذه التجربة » ، وأن احدا لم يرها قط فى أى مكان — وكان هذا صحيحا . واخذ لتفينوف على نفسه أن يعرض عليها « الحيثيات » فنظرت اليه ايرينا نظرة ثابتة فاحصة جعلته يرتبك . ثم قالت بهدوء وهى تعبث بطرفى زنارها :

— أتريد أنت ذلك ؟

فأجاب لتفينوف مترددا :

— نعم . اظن هذا . انى أوافق اباك ... حقا لماذا لاتذهبين؟..

وضحك ضحكة قصيرة وأضاف : لترى النـــاس ، ويروك ...

فكررت ببطء :

— يرونى ؟ حسن جدا . سأذهب اذن ... ولكن تذكر أنك انت الذى أردت ذلك .

— اننى ...

— انك انت الذى اردت ذلك . وهاك شرطا آخر : يجب أن

تعدنى بألا تحضر هذه الحفلة .
ــ لمــاذا ؟
ــ انى أرغب فى ذلك .
فرفع لتفينوف يديه :
ــ سمعا وطاعة ... ولــكنى أعترف بأنى كنت اود أن أستمتع برؤيتك فى كامل بهــائك ، وملاحظــة الاعجــاب الذى لابد أنك ستثيرينه ...
وأضاف وهو يتنهد :
ــ واذن كم كنت افخر بك ...
فابتسمت ايرينا :
ــ ان كامل البهاء لن يكون الا ثوبا ابيض . اما الاعجاب ... حسنا ، لا أريد أن تــكون هناك على كل حال .
ــ ايرينا أيتها الحبيبة ، كأنك غاضبة !
فابتسمت ثانية :
ــأوه ، لا ، لست غاضبــة . ولكن ياجريشا (وثبتت عينيها عليه ، وظن انه لم ير قط مثل هذا التعبير فيهما ، وأضــافت هامسة) .. لعله لابد أن يكون .
ــ ولــكنك تحبيننى يا أيرينا ، ياعزيزتى ؟
فأجابت فى جد يوشك أن يكون حزينا ، وشدت على يده بقوة كأنها رجل :
ــ انى أحبك !
وظلت أيرينا طيلة الايام التالية منصرفة الى ثوبها وتزيين شعرها. وفى اليوم السابق للحفلة أحست بوعكة ، ولم تستطع أن تستقر، وانفجرت بالبكاء مرتين فى وحدتها ، أما أمام لتفينوف فقد تكلفت تلك الابتسامة التى لا تتغير ... لم يتبدل حنانها المعهود ، ولكنها كانت شاردة اللب ، دائمة النظر الى نفسها فى المرآة . وفى يوم الحفلة ظلت صامتة شاحبة ، ولــكنها كانت مالــكة زمام نفسها . وجاء لتفينوف فى الساعة التاسعة مساء ليراها ، فلما أتت لتقابله فى ثوب من حرير أبيض شف ، وفى شعرها المرفوع قليلا عنقود أزهار صغيرة زرقاء ، كادت تبدر منه صيحة ، فقد بدت أجمل وأروع من سنها كثيرا ، وقال فى نفسه « أجل ، أنها كبرت منذ الصباح ! وكم تبدو شامخة ! هذا ما تصنعه الوراثة ! » ووقفت ايرينا أمامه ، ويداها مسترخيتان ، لا تبتسم ولا تتصنع ، وهى

تنظر فى ثبات يشبه التحدى، لا اليه بل الى الفضاء البعيد امامها.
قال لتفينوف أخيرا :
ــ لــكأنك أميرة فى كتاب قصص . أنت تشبهين محاربا قبــل المعركة ، قبل النصر ... واستمر فى قوله وهى لا تزال واقفة بغير حراك ، وكأنها تصغى ... لا اليه بل الى صوت آخر فى أعمــاق نفسها : انك لم تسمحى لى بأن اذهب الى هذه الحفلة ، ولــكن لعلك تقبلين هذه الازهار وتأخذينها معك ؟

وأهــدى اليها طاقة من الهليوتروب ، فلحظته لحظا سريعا ، وامسكت فجأة طرف العنقود الذى كان يزين شعرها ، وقالت :
ــ أتريدنى ان أبقى ؟ قلها فأمزق هذا كله ، وابقى فى المنزل !
وخيل الى لتفينوف أن قلبه ينشق . وكانت يد ايرينا قــد سبقت الى انتزاع العنقود ...
فبادر يقول مسرعا ، فى فيض من الــكرم والسماحة :
ــ لا ، لا . لماذا ؟ انا لست انانيا ... لماذا أحبس حريتك ، فى حين اعلم ان قلبك ..
فقالت مسرعة :
ــ حسنا ، لا تقترب منى والا كسرت ثوبى .
واضطرب لتفينوف ، وسأل :
ــ ولــكنك ستأخذين الزهور ؟
ــ طبعا . انها جميلة جدا . وأنا أحب هذه الرائحة . شكرا . سأحفظها ذكرى ...
ــ لحفلتك الاولى . لانتصارك الاول .
ونظرت ايرينا من فوق كتفها الى نفسها فى المرآة ، وهى تثنى قوامها ولا تــكاد .
ــ وهل أبدو جميلة حقا ؟ ألا تغالى ؟
فأفاض لتفينوف فى الثناء الحار ، بينما كانت ايرينا غير منصتة اليه ، وقد قربت الازهار من وجهها وجعلت تنظر مرة أخرى الى الفضاء البعيد بعينين غريبتين كأنما زادتا دكنة وسعة . وارتفع شريطاها الرقيقان خلفها قليلا وقد حركهما تيار خفيف من الهواء فــكانا أشبه بجناحين.
وظهر الأمير فى رباط عنق ابيض وسترة سهرة سوداء باهتة ، وقد صفف شعره ووضع وســام النبالة على شريط فلاديمير فى عروة سترته . وجاءت الأميرة بعده فى فستان حرير صينى عتيق

الطراز ، وبتلك الصرامة القلقة التى تحاول الأمهات أن تخفين بها اضطرابهن أصلحت هيئة ابنتها من خلف ، بأن هزت ثنيات ثوبها دونما ضرورة . وزحفت عربة أجرة مقفلة عتيقة بأربعة مقاعد ، يجرها حصانان هرمان أشعثان ، الى مدخـل الدار ، على الأكوام المتجمدة من الثلج المتراكم . وأطل من باب الصالون سائس عجوز فى حلة غريبة الشكل ، وأعلن بنوع من المخاطرة أن العربة معدة.. وبعد أن استودع الأميران الله أبناءهما الباقين بالمنزل الى الصباح، لبسا معطفيهما وخرجا الى الدرج . وتبعتهما ايرينـا وقد التفت بحرملة شديدة الرقة شديدة القصر ــ كم كرهت هـذه الحرملة الصغيرة فى تلك اللحظة ! ــ وصحبها لتفينوف الى الخارج طامعا فى نظرة أخيرة من ايرينا ، ولـكنها جلست فى مقعدها من العربة بغير أن تلتفت .

وحول منتصف الليل سـار تحت نوافذ بهو النبلاء . وكانت أضواء لا تحصى من شمعدانات ضخمة تبدو من خلال السـتائر الحمراء أشبه شيء بوشي معدني لامع ، وانغام فالس لشتراوس تطير مرحة فاضحة متحدية فوق الميدان الذى ازدحم بالعربات .

وفى الساعة الواحدة من اليوم التالى ذهب لتفينوف الى منزل آل أوزينين . فلم يجد فى المنزل احدا سوى الأمير ، الذى اخبره على الفور بأن ايرينا أصابها صداع واعتكفت فى سريرها ، وأنها لن تغادره حتى المساء ، لـكن مثل هذه الوعكة غير مستغربة بعد أول مرة تذهب فيها الفتاة الى حفلة راقصة . ودهش لتفينوف حين أردف الأمير بالفرنسية :

C'est trés naturel, vous savez, dans les jeunes filles (١)

ولاحظ فى الوقت نفسـه انه لايرتدى ثوب المنزل كعادته ، بل يلبس سترة رسمية . واضاف الأمير :

ــ ثم أنها كانت مضطربة قليلا بعد أحداث البارحة !

فتمتم لتفينوف :

ــ أحداث ؟

ــ اجل ، اجل ، أحداث ، أحداث des vrais événements

انك لا تستطيع أن تتخيل ياجريجورى ميهالوفتش quel sucеés elle a eu (٢) لقد استرعت أنظـار البـلاط كله ! وقال الأمير

(١) « هذا طبيعى جدا عند الفتيات كما تعلم » .

(٢) « أى نجاح نالته ! »

الـكسندر فيدوروفتش ان مكانها ليس هنا ، وانها تذكره بالكونتة ديفونشير (١) : أنت تعرف ... هذه ... السيدة المشهورة ... وأعلن بلازنكراميف العجوز على مسمع من الجميع أن ايرينا هى ملـكة الحفلة ، ورغب فى أن يقدم اليها . وقدم نفسه الى . أعنى قال لى انه يذكرنى عندما كنت فى سلاح الفرسان ، وسألنى : ماذا تعمل الآن ؟.. انه ظريف جـدا ذلك الـكونت ... ياله من (٢) adonateur du beau sexe ! . ولم يكتفوا بى ... زوجتى أيضـا لم يتركوها فى حالهـا . لقد تحدثت معهـا ناتاليا نيكتشنا نفسها .. هل كنا نطمع فى أكثر من ذلك ؟ لقـد رقصت ايرينـا (٣) avec tous les meilleurs cavaliers كانوا يحضرونهم الى باستمرار . لم أستطع فى الحقيقة أن أذكر عددهم . أتصـدق ؟ لقد كانوا جميعا يتزاحمون حولنا . وأرادوا كلهم أن يرقصوا معها المازوركا . وعندما سمع أحد الدبلوماسيين الاجانب انهـا فتـاة من موسكو قال للقيصر : Sire, décidement c'est (٤) Moscou qui est le centre de votre empire وأضـاف دبلوماسى آخر (٥) C'est une vrais revolution, sire, لعله قال : (٦) révélation أو (٧) revolution . شيئا كهـذا . أجل . أجل . لقد كانت ... لقد كانت فوق التصور !

سأل لتفينوف وقد سرت برودة فى يديه وقدميه لسماع حديث الأمير :

ـ حسنا : وايرينا بافلوفنا نفسها ؟ هل استمتعت بالحفلة ؟ هل كان يبدو عليها السرور ؟

ـ طبعا استمتعت بالحفلة . السرور؟ ! لابد انها كانت مسرورة ! ولـكنك تعرفها ... لايمكنك أن تعرف دخيلة نفسها ! لقد كان كل انسان يقول لي البارحة « هذا عجيب Jamais on ne dirait que

---

(١) دوقة ديفونشير (١٧٥٧ ـ ١٨٠٦) انجليزية كانت من أجمل وأذكى نسـاء عصرها وكان لها جيش من المعجبين وصالون يتردد عليه مشاهير العصر ، وكانت تقول الشعر وتشتغل بالسياسة .

(٢) « عابد للجنس اللطيف » .

(٣) « مع كل الفرسان البارزين » .

(٤) « مولاى ! لا شك أن موسكو هى قلب امبراطوريتكم ! » .

(٥) « هذه ثورة حقا يا مولاى ! »

(٦) الهام .

(٧) ثورة .

(١) « mademoiselle votre fille est à son premier bal » .
الكونت ريزنباخ مثلا ... أظنك تعرفه ؟

ــ لا . لا أعرفه مطلقا . ولم أره فى حياتى .

ــ من أقرباء زوجتى .

ــ انى لا أعرفه .

ــ رجل ثرى . من أمناء القصر . يعيش فى بطرسبرج . فى ذروة السلطان وهو الحاكم بأمره فى ليفونيا . لم يكن يهتم بنا قبل اليوم ... ولكن لا تظن أنى حانق عليه لهذا . J'ai l'humeur (٢) facile, comme vous savez. حسنا ، هذا هو الرجل . لقد جلس بجانب ايرينا وكلمها ربع ساعة لا أكثر ، وبعد ذلك قال لأميرتى : « ma cousine. votre fille est une perle, c'est (٣) une perfection » « ان كل امرىء يهنئنى بقرابتها ... » وبعد ذلك رأيته يذهب الى ... الى شخصية عظيمة جدا ، ويكلمه وهو ينظر الى ايرينا ... وكان الآخر ينظر اليها أيضا ...

فسأل لتفينوف مرة أخرى :

ــ واذن فلن تظهر ايرينا بافلوفنا طول اليوم ؟

ــ بالضبط . فهى تعانى صداعا شديدا . وقد سألتنى أن أبلغك تحيتها ، وأن أشكرك على أزهارك (٤) qu'on a trouvé charmants انها بحاجة الى الراحة ... لقد خرجت الأميرة لتؤدى بعض الزيارات ... وأنا أيضا ... كما ترى ...

وتنحنح الأمير ، وأخذ يتململ فى مجلسه كأنه لايدرى ماذا يقول بعد الذى قاله . فتناول لتفينوف قبعته وخرج ، قائلا انه لايريد ازعاج الأمير ، وانه سيأتى مرة أخرى ليسأل عن صحة ايرينا .

وعلى مسيرة خطوات من منزل آل أوزينين رأى عربة أنيقة ذات مقعدين واقفة أمام كشك رجل الشرطة . وكان سائس فى حلة أنيقة أيضا ينحنى بتراخ ويسأل الشرطى الفنلندى عن مسكن الأمير بافل فاسيليفتش أوزينين . ورمق لتفينوف العربة . كان يجلس بداخلها رجل متوسط العمر ، مترهل الجلد ، ذو وجه مغضن شامخ وأنف مقوس وفم قاس ، متدثر بفراء ثمين ، تدل جميع المظاهر على انه حقا رجل عظيم جدا .

---

(١) « من يقول ان هذه هى أول حفلة راقصة تذهب اليها الانسة كريمتكم ! »

(٢) « اننى طيب القلب كما تعلم » .

(٣) « يا عزيزتى ، ان ابنتك جوهرة ، انها تحفة » .

(٤) « التى لقيت الاستحسان » .

لم يف لتفينوف بوعده أن يعود فيما بعد ، فقد فكر أن يؤجل زيارته الى اليوم التالى . وعندما ذهب فى الساعة الثانية عشرة الى الصالون المألوف وجد هناك الأميرتين الصـــــغيرتين فكتورنكا وكليوباترنكا . فحياهما ، وسأل : هل تحسنت حال ايرينا بافلوفنا ، وهل يستطيع أن يراها ؟

فأجابته فكتورنكا ، وكانت على الرغم من لثغتها أسرع جوابا من أختها :

ـ ايرينوتشكا ذهبت مع مامى .

فردد لتفينوف:

ـ ذهبت ؟ كيف ؟ ـ واحس فى قرارة قلبه شـــــبه رعشة حبيسة ـ اليست .. اليست تعطيكما دروسا فى مثل هذا الوقت؟

فأجابت فيكتورنــكا :

ـ ايرينوتشكا لن تدرس لنا بعد الآن .

وكررت كليوباترنــكا بعدها :

ـ لن تدرس لنا بعد الآن .

فسأل لتفينوف :

ـ هل بابا فى المنزل ؟

فمضت فــكتورنــكا تقول :

ـ بابا ليس فى المنزل . وايرنيوتشكا مريضة . طول الليل هى تبكى ، تبكى ...

ـ تبكى ؟

ـ نعم تبــكى . هكذا اخبرنى يجوروفنا . وعينــاها حمراوان جدا . انهما مل .. مل .. تهبتان جدا .

ومشى لتفينوف فى الغرفة جيئة وذهابا مرتين ، وهو يرتجف كأنما اصابه برد ، ثم عاد الى منزله ، وخالجه احســـاس كذلك الذى يتملك الناظر من برج عال . تهافت كل شيء فى باطنه ، واستولى عليه دوار بطيء ممرض . حيرة خرساء ، وأفكار تركض كالفيران ،

وفزع مبهم ، وتوقع أشل ، ودهشة غريبة توشــك أن تــكون وحشية . وفى حلقه مرارة الدموع المحتبسة ، وعلى شفتيه بسمة فارغة مفتصبة . ثم دعاء ضارع بغير معنى ، لغير أحد ... آه ، ما أقسى وما أذل وما أفظع ! « ايرينا لاتريد أن ترانى » ـ كانت هذه هى الفكرة التى ظلت تدور فى رأسه . « هذا واضح . ولكن ما سببه ؟ ليت شعرى ماذا حدث فى تلك الحفلة المشئومة ؟ وكيف يمكن أن يتم هذا التحول فجأة ... فجأة هكذا ؟ » ان النــاس يرون الموت يأتى دائما فجأة ، ولــكنهم لايمكن أن يألفوا مفاجأته ، بل يجدون هذه المفاجأة شيئا لا يقبله العقل . « انها لم تكتب الى . لم تفسر لى شيئا ! »

وسمع لتفينوف صـــــوتا مرتفعا يناديه بالقرب من اذنه : « جريجورى ميهالتش ! » فانتفض ، ورأى أمامه الخادم وفى يده ورقة . وتبين فيها خط ايرينا . وأحس قبــل أن يفض الخاتم بالويل المحيق ، وثنى رأسه على صدره وحدب كتفيه كأنه يتقى الضربة النازلة .

ثم استجمع شجاعته أخيرا ، وفض الغلاف ، فوجد على قصاصة صغيرة من الورق هذه الاسطر :

« سامحنى ياجريجورى ميهالتش . لقد انتهى كل شىء بيننا . سأذهب لأعيش فى بطرسبرج . اننى شديدة التعاسة ـ ولكن المسألة كلها مقررة الآن . يبدو أن هذا هو القدر المــكتوب على ... ولكن لا . أنا لا اريد أن أبرىء نفسى . لقد تحققت مخاوفى . سامحنى ، وانسنى . اننى غير جديرة بك . كن كريما لا تحاول أن ترانى . « ايرينا » .

قرأ لتفينوف هذه الاسطر وتهافت على الاريكة كأن احدا صك صدره . وســقطت منه الورقة ، والتقطها وقرأها مرة أخرى ، وتمتم : « فى بطرسبرج » ثم سقطت منه ثانية . وانتهى الأمر . بل لقد هبط عليه شعور بالسلام . بل انه سوى بيديه المنطرحتين خلفه الوسادة التى تحت رأسه . وقال فى نفســه : « من يطعن طعنة الموت لا يترنح . كما جاءت ذهبت . كل هذا طبيعي . لقد كنت اتوقعه دائما (كان يكذب على نفسه ، فانه لم يتوقع قط شيئا كهذا .) تبكى ؟.. أهى كانت تبكى ؟.. علام ؟ أنها لم تكن تحبنى ! ولــكن هذا كله مفهوم ، متفق مع شخصيتها ... هى ـ هى غير جديرة بى... أجل أجل (وضحك بمرارة) انها لم تكن

تعلم القوة الكامنة فى نفسها ، ولـكنها تبينت تأثيرها فى الحفلة ، فهل يعقل أن تبقى مع طالب متواضع ؟.. كل هذا طبيعى . »

ولـكنه لم يلبث أن تذكر ألفاظها الرقيقة ، وتلك البسمة وتلك العينين، العينين اللتين لن ينساهما ، العينين اللتين لن يراهما أبدا ، العينين اللتين كانتا تسطعان وتذوبان كلما قابلتا عينيه ! وتذكر قبلة واحدة سريعة وجلة مشتعلة ... واذا هو ينتحب . ينتحب انتحابا متشنجا عنيفا حانقا . ثم انقلب على وجهه يكاد يخنقه انفعاله المجنون ، كأنه يود لو يمزق نفسه وكل ماحوله اربا ، ودس وجهه المحرور فى وسادة الاريكة وراح يعضها بأسنانه .

ياحسرتاه ! ان السيد الذى رآه لتفينوف بالامس فى العربة لم يكن الا قريب الأميرة أوزينين ، أمين القصر الـكونت ريزنباخ. فان الـكونت لما رأى الاعجاب العظيم الذى أثارته ايرينا فى شخصيات عليا ، فـكر لساعته فى المزايا التى يمكن الظفر بها من ذلك mit etwas akkuratesse (١) وكان رجلا سريع التصرف يعرف من أين تؤكل الـكتف ، فوضع خطته من فوره ، وصمم على أن يعمل عملا نابليونيا خاطفا ، قال لنفسه : « سآخذ هذه الفتاة النادرة الى منزلى فى بطرسبرج . يا للشيطان ! سأجعلها وريثتى ؛ بل وريثتى الوحيدة ، فليس لى ولد . انها قريبتى ، وقرينتى الكونتة تعيش فى وحدة مملة ... الافضل على كل حال أن يكون فى صالون المرء وجه جميل . نعم ، نعم ... هـذا هو الصواب ! Est ist eine Idee, Est ist eine Idee (٢) . المهم أن ينبهر الأبوان ويذهلان فيسلما أمرهما . وتابع الـكونت تفكيره وهو فى العربة فى طريقه الى ساحة الكلاب . « انهما يعيشان عيش الـكفاف . وما أظنهما يتشددان . ثم انهما من طراز لايمتاز بحنانه المفرط . ويمكننى أن أعطيهم فى الصفقة مقدارا من المـال . وهى ؟ انها ستوافق . الشهد حلو . وقد ذاقت طعمه فى الليلة الماضية . لعلها نزوة منى ، فليستغلوها ... هؤلاء الحمقى ! سأدخل عليهم من كل باب ... ويجب أن تقرروا ، والا فانى أتبنى فتاة أخرى ـ يتيمة ، لعل هـذا أفضل . نعم أو لا . ولـكم أربع وعشرون ساعة لتفكروا ، und damit Punctum (٣)

---

(١) « بشيء من المهارة » ـ بالالمانية .
(٢) « انها فكرة ! فكرة ! » .
(٣) « ولا كلام بعد ذلك » .

وقابل الكونت الأمير وهذه الكلمات نفسها على شفتيه ، وكان قد أعلمه بزيارته فى الليلة الماضية أثناء الحفلة . ونحن فى غنى عن اطالة القول فى نتائج هذه الزيارة . فان الكونت لم يكن مخطئا فى تنبؤاته ، وقد كان الأمير والأميرة حقا غير عنيدين ، وقبلا مبلغا من المال ، ووافقت ايرينا قبل أن تنتهى الاربع والعشرون ساعة .
ولم يكن يسيرا عليها أن تقطع ما بينها وبين لتفينوف ، فقد كانت تحبه ، وبعد أن أرسلت اليه كلمتها كادت تمرض ، ولزمت فراشها معظم الوقت وظلت تبكى ، ونحلت وشحبت . ورغم هذا كله فقد رافقتها الأميرة بعد شهر الى بطرسبرج ، واستودعتها منزل الكونت ، ووكلتها الى عناية الكونتة ، وهى امرأة فى غاية الطيبة ، ولكن لها مخ دجاجة ، وشكل دجاجة أيضا .
وانقطع لتفينوف عن الجامعة . وعاد الى أبيه فى الريف . وأخذ جرحه يندمل رويدا رويدا . ولم تكن تصل اليه أنباء عن ايرينا فى أول الأمر ، وكان فى الحقيقة يتحاشى كل حديث عن بطرسبرج ومجتمع بطرسبرج . ثم أخذت تنتشر حولها الاشاعات ــ اشاعات لا نقول انها فاضحة ولكنها غريبة على كل حال ، واشتغلت الألسن بالحديث عنها ، وأخذ اسم الأميرة أوزينين الشابة يتردد بكثرة متزايدة حتى فى مجتمعات الاقاليم ، حيث كان ينطق فى شغف واحترام وحسد ، وقد أحاطت به هالة غريبة من المجد ، كما كان اسم الأميرة فوروتنسكى فى يوم من الايام . وأخيرا جاء نبأ زواجها . ولكن لتفينوف لم يكد يهتم بهذا النبأ الاخير ، اذ كانت خطبته لتاتيانا قد تمت .
والآن يستطيع القارىء بلا شك أن يفهم بسهولة وعلى وجه الدقة ما تذكره لتفينوف حين صاح : « أيمكن أن تكون هى ؟ » .
الى بادن اذن لنصل ما انقطع من قصتنا !

نام لتفينوف متأخرا ، ولم تطل نومته ، فحين استيقظ كانت الشمس قد أشرقت ولما تكد ، وكانت قمم الجبال السود التى تبدو من نوافذ حجرته ترتسم وردية باهتة على صفحة السماء الصافية. فقال فى نفسه : « لاشك ان الجو لطيف هناك تحت الاشجار. » ولبس على عجل ، ونظر بلا اهتمام الى الطاقة التى ازدادت تفتحا أثناء الليل، ثم تناول عصا وبدأ السير قاصدا الى «القلعة القديمة» على « الجبال » الشهيرة . واحتواه الصبــاح فى أحضانه اللطيفة المنشطة ، وتنفس أنفاسا طويلة ، وأخذ يخطو بحماسة ، وكل عرق من عروقه يتنزى بقوة الشباب ، وكأن الارض نفسها تميد تحت خطواته الخفيفة . وكانت كل خطوة تزيده مرحا وسعادة وسار فى الظل المطلول على حصباء الدروب الصغيرة ، بجانب أشجار الشربين التى زهت اطراف اغصانها ببراعم الربيع الناشئة . وظــل يكرر لنفسه : « ما أبدع وما أروع ! » وفجأة سمع نبرات مألوفة ، ونظر أمامه فرأى فوروشيلوف وبمبايف قادمين نحوه . فأزعجه مرآهما ، وابتعد مسرعا كتلميذ صغير يتحاشى رؤية معلمه ، واختبأ خلف شجيرة ... ودعا فى سره : « اللهم برحمتك ابعد عنى بنى وطنى ! » وهان عليه أن يدفع أى مقدار من المال ولايرياه ... وكان الله رحيما به فمر مواطنــاه دون أن ينتبهــا اليه . وكان فوروشيلوف يحاضر بمبايف بصوته الصبيانى المعجب بنفسه عن «الاطوار» المختلفة لفن العمارة القوطية ، وبمبايف يكتفى بأن يزمجر مستحسنا ، وكان واضحا أن فوروشيلوف قد امتعه طويلا بالحديث عن هذه الاطوار ، حتى بدأ المتحمس الطيب القلب يشعر بالملل . وأنصت لتفينوف برهة طويلة الى وقع خطاهما المبتعدة ، وقد زم شفتيه ومد عنقه . وظلت الانغام الحلقيــة والانفيــة من محاضرة فوروشيلوف تصل الى أذنيه مدة ، ولــكن السكون عاد فشمل كل شيء . وتنهد لتفينوف مرتاحا ، وغادر مخبأه ، وواصل المشى .

وظل يتجول بين الجبال ثلاث ساعات . وكان يبتعد عن الدرب

أحيانا ويثب من صخرة الى صخرة ، منزلقا بين الحين والحين على الطحلب الناعم ، أو يجلس على نتوء من الجبل تحت سنديانة أو زانة ، ويسبح فى خيالات لذيذة ، على خرير الجداول التى حنا عليها نبات السرخس ، وحفيف الاوراق اللطيف ، وأنغام ضحلة يهتف بها شحرور وحيد . وأخذ يتسلل اليه نعاس خفيف لذيذ، وكأنه يقترب منه ملاطفا ، ثم غلبه النوم ... ولكنه ابتسم فجأة ونظر حواليه ، فداعب عينيه ذهب الغابة وخضرتها ، وأوراق الشجر المتحركة ، فأغمضهما ثانية وهو لايزال يبتسم . وأخيرا شعر بالرغبة فى الافطار ، فقصد الى القلعة القديمة حيث يستطيع ببضع « كرويتزرات » أن يحصل على كوب من اللبن الجيد والقهوة . ولكنه لم يكد يستقر على احدى الموائد البيضاء الصغيرة فى الشرفة أمام القلعة حتى سمع وقع حوافر جياد ، وأقبلت ثلاث عربات مكشوفة ، نزلت منها جماعة كبيرة من السيدات والسادة .. وعرف لتفينوف للحال أنهم روس ، وان كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية... بل لأنهم كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية . وكانت ملابس السيدات تمتاز بأناقة مسرفة ، أما السادة فكانوا يلبسون سترات محبوكة مخصرة غير مألوفة فى هذه الايام ، وسراويل رمادية منقطة، وقبعات مدنية صقيلة . وكان رباط عنق اسود منخفض يقبض بشدة على عنق كل واحد من هؤلاء السادة ، وشيء عسكرى يبدو فى هيئتهم وتصرفاتهم كلها . والحقيقة أنهم كانوا رجالا عسكريين . لقد التقى لتفينوف بصحبة من الجنرالات الشبان ذوى المكانة العالية فى المجتمع ، والنفوذ البارز فى الحكومة . وكانت أهميتهم تتجلى فى كل شيء . فى مرحهم المتحفظ ، وتهاتفهم الساحر ، ونظراتهم الشاردة المتكلفة واهتزازات أكتافهم الصغيرة المخنثة ، وطريقتهم فى تحديب أجسامهم وثنى ركبهم . وكانت تتجلى فى نبرات أصواتهم نفسها ، فكأنهم يشكرون فى تلطف متكلف جمهورا ذليلا من الناس . كان هؤلاء المحاربون كلهم ملمعين محففين مضمخين بعطر النبلاء والحرس الاصيل — وهو مزيج من دخان أفخر أنواع السيجار وأجمل عطور الباتشولى . وكلهم كانت لهم أيدى النبلاء أيضا — أيد بيضاء كبيرة ، ذات أظافر صلبة كالعاج ، وكلهم كانت لهم شوارب مصقولة ، وأسنان لامعة ، وبشرات رقيقة ، وردية على الخدود ، زرقاوية على الذقون . وكان بعض الجنرالات الشبان ممراحا ، وبعضهم جادا ، ولكن طابع الادب العالى كان مرتسما

عليهم جميعا . كان كل واحد كأنما هو شاعر شعورا عميقا بكرامة شخصه ، وبأهمية الدور الذى سيلعبه فى الحكومة فى المستقبل ، وكان يمازج هذا الايمان شيء من النزق والاستهتار اللذين يتعودهما المرء بالضرورة خلال تجواله فى بلاد أجنبية . وبعد أن جلسوا بكثير من الضوضاء والأبهة نادوا الندل الذين بادروا الى تلبية أوامرهم . وأفرغ لتفينوف كوب لبنه ، ودفع ثمنه ، ولبس قبعته ، وبينما كان مارا بجماعة الجنرالات سمع صوت امرأة تناديه :

ــ جريجورى ميهالتش ... ألا تعرفنى ؟

فوقف بلا وعى . ذلك الصوت ... ذلك الصوت كثيرا جدا ما خفق له قلبه فى الايام الخالية ... والتفت حوله ورأى ايرينا . كانت جالسة الى مائدة ، معتمدة بيديها على ظهر كرسى قد قربته منها ، تنظر اليه وهى تبتسم ورأسها مائل الى ناحيته .. نظرات فيها حنان يكاد يكون فرحا بلقائه .

عرفها لتفينوف من أول نظرة ، وان كانت تغيرت منذ رآها للمرة الاخيرة قبل عشر سنين ، واستحالت من فتـاة الى امرأة . كان قوامها النحيل قد امتـلأ وتفتح ، وكتفاها اللتان كانتا ضيـقتين تذكرانك الآن بصور الالهات على سقوف القصور الايطالية القديمة . ولكن عينيها بقيتا كسابق عهده بهما .. وخيل الى لتفينوف انهما تنظران اليه تماما كما كانتا تنظران قديما فى ذلك المنزل الصـغير فى موسكو .

قال فى تردد :

ــ ايرينا بافلوفنا ...

ــ هل عرفتنى ؟ ما أسعدنى ! ما أسعدنى !..

وصمتت فجأة ، واحمر وجهها قليلا ، واعتدلت فى جلستها . واستمرت تقول ، ولـكن بالفرنسية :

ــ اننى سعيدة بلقائك . دعنى أقدمك الى زوجى . فاليريان ! هذا هو السيد لتفينوف ، صديق من أصدقاء الطفولة . فاليريان فلاديميروفتش راتميروف ، زوجى .

ونهض احد الجنرالات الشبان من مقعده ــ ولعله كان أشدهم تأنقا ــ وانحنى للتفينوف بأدب بالغ ، بينما زوى بقيـة رفاقه حواجبهم ، أو بالاحرى انكمش كل واحد منهم لحظة فى نفسه ، وكأنه يحتج مقدما على أى اتصال بمدنى غريب . ورأت السيدات الأخريات المشتركات فى النزهة أن يخزرن عيونهن قليلا ويبتسمن

ببلاهة ، بل يتكلفن مظاهر الحيرة والدهشة .

سأل الجنرال راتميروف وهو يتقصع بحركات غير روسية مطلقا — وكان بينا انه لم يدر فيم يتحدث مع صديق طفولة زوجته :

— آ ... أأنت فى بادن من زمن طويل ؟

فأجابه لتفينوف :

— لا ، ليس من زمن طويل .

فاستمر الجنرال المهذب سائلا :

— وهل تنوى البقاء طويلا ؟

— لم افكر فى الأمر بعد .

— آه ! جميل . جميل جدا ...

وسكت الجنرال . ولم يجد لتفينوف هو الآخر ما يقوله . وكان كلاهما ممسكا قبعته فى يده ، منحنيا الى الأمام بابتسامة ، يحدق فى قمة رأس صاحبه .

وبدأ أحد الجنرالات يدندن — بنغم مضطرب طبعا ، ولم تر قط نبيلا روسيا الا يدندن بنغم مضطرب : Deux gendarmes un beau Dimanche

(١) ~~«I say, Velerien, give me som fire»~~

وكان أرمد العينين أصفر الوجه ، ينم تعبير وجهه عن حنق دائم ، كأنه لايستطيع أن يغتفر لنفسه سوء منظره . وكان ممتازا من رفاقه جميعا بأن بشرته لا تشبه الوردة .

واخيرا قالت ايرينا :

— لماذا لا تجلس ياجريجورى ميهالتش ؟

فأطاع لتفينوف وجلس .

«I say, Velerien, give me some fire قال جنرال آخر بالانجليزية (٢) .

وكان هذا الجنرال صغير السن أيضا ، وان ظهرت عليه البدانة قبل الاوان ، وكانت عيناه ثابتتين كأنهما تحملقان فى الهواء ، وعارضاه غزيرين ناعمين كالحرير يدس فيهما ببطء أصابعه الناصعة البياض .

وأعطاه راتميروف علبة كبريت فضية .

وسألت احدى السيدات :

— Avez vous des papiros ?

وكانت تلثغ الراء كالنطق الباريسى .

---

(١) « كان شرطيان ذات يوم أحد » .

(٢) « بالله يا فاليريان أعطنى شعلة » — وتلاحظ ركاكة العبارة الانجليزية .

— (١) Des vrais papelitos, contesse

ودندن الجنرال الأرمد العينين مرة أخرى بغيظ شديد :

Deux gendarmes un beau dimanche

وكانت ايرينا تقول للتفينوف فى الوقت نفسه :

— يجب أن تأتى لتزورنا ، نحن نقيم فى فندق أوربا . وأنا فى المنزل دائما من الساعة الرابعة الى السادسة . اننا لم نتقابل من زمن طويل .

ونظر لتفينوف الى ايرينا ، فلم تغض بصرها .

— أجل يا ايرينا بافلوفنا . انه لزمن طويل ، مذ كنا فى موسكو.

فردت باختصار :

— فى موسكو . نعم ، فى موسكو . تعال . سنتكلم ونتذاكر الايام الخالية ، أتدرى ياجريجورى ميهالتش انك لم تتغير كثيرا ؟

— حقا ؟ ولكنك أنت تغيرت يا ايرينا بافلوفنا .

— لقد كبرت .

— لا ، لم أعن هذا .

— « ايرين ؟ » نادتها سيدة ذات قبعة صفراء وشعر أصفر، بعد أن مهدت لذلك بهمس وضحك مع الضابط الجالس بجانبها . وكان فى صوتها نبرة الاستفهام .

— ايرين ؟

ومضت ايرينا تقول بغير أن تجيب السيدة :

— اننى أكبر مما كنت ، ولكنى لم أتغير .لا ، انى لم أتغير فى شىء .

— «Deux gendarmes un beau dimanche»

سمع اللحن مرة أخرى . وكان الجنرال الضيق الصدر لايذكر غير السطر الاول من الاغنية المشهورة .

« انها لا تزال تخز قليلا يا صاحب السعادة . » قالها الجنرال السمين ذو العارضين ، فى نبرات عالية ممطولة ، مستعيدا — على ما يظهر — عبارة من قصة مسلية ، معروفة فى « المجتمع الراقى » بأسره . ثم ضحك ضحكة قصيرة جافة وعاد يحدق فى الهواء من جديد . وضحك سائر الجماعة أيضا . وقال راتميروف هامسا : « يالك من جرو حزين يا بوريس ! » وكان يتكلم

(١) سوء تفاهم حول اسم نوع الكبريت أو اللفائف لا تمكن ترجمته .

بالانجليزية ، ونطق اسم بوريس نفسه كأنه اسم انجليزى .

قالت السيدة ذات القبعة الصفراء مستفهمة للمرة الثالثة :

— ايرين ؟

فالتفتت اليها ايرينا بحدة :

— (١) Eh bien? quoi? que me voulez-vous?

فأجابت السيدة ، وهى تعبث بالحروف وتتفامز :

— (٢) Je vous le dirai plus tard.

وكانت تلك السيدة على قبحها لا تزال تتعابث وتتفامز. كانت تفامز الهواء ، كما قال عنها أحد الظرفاء .

وقطبت ايرينا جبينها وهزت كتفيها بصبر نافد . وصاحت احدى السيدات بتلك النبرة المطوطة التى اختص بها أهل روسيا الكبرى ، والتى لا تكاد تطيقها الاذن الفرنسية :

— Mais que fait donc monsieur Verdier ? Pourquoi ne vientil pas ? (٣)

فزفرت سيدةأخرى ، كان مسقط راسها أرزاماس :

(٤) Ah wooi, ah wooi, M'sieur Verdier, M'sieur Verdier.

وتدخل راتميروف فى حديثهما قائلا :

Tranquillisez-vous, mesdames, Monsieur Verdier m'a promis de venir se mettre à vos pieds (٥)

— هى هى هى !

وحركت السيدات مراوحهن .

وأحضر النادل بضعة أكواب من البيرة ، فسأل الجنرال ذو العارضين ، مصطنعا صوتا أجش :

— (٦) Baierisch-Bier ? guten morgen!

وسأل جنرال شاب جنرالا آخر فى برود وتراخ :

— حسنا ، الا يزال الكونت بافل هناك ؟

فأجابه الآخر يمثل بروده :

(١) « حسنا ، ماذا ؟ ماذا تريدين منى ؟ » .

(٢) « سأقول لك فيما بعد » .

(٣) « ترى ماذا يفعل مسيو فردييه ؟ لماذا لا يأتى ؟ » .

(٤) « آه نعم ، آه نعم ، مسيو فردييه ، مسيو فردييه » .

(٥) «صبرا ياسيداتى ، لقد وعدنى مسيو فردييه بأن يأتى ليرتمى عند أقدامكن»

(٦) « بيرة بافارية ؟ صباح الخير ! » (بالالمانية) .

ـ نعم . (١) Mais c'est provisoire. يقولون ان سرج سوف يحل محله .

فنفث الاول من بين أسنانه :

ـ آها !

ونفث الثانى :

ـ آه ، نعم ..

وبدأ الجنرال الذى كان يدندن بالاغنية يقول :

ـ انى لا أفهم ما الذى جرى لعقل بول ، لماذا يحاول تبرئة نفسه ، ويحتج بشتى الاسباب ؟ صحيح انه كان قاسيا على التاجر (٢) Il lui a fait rendre Gorge ولكن أى بأس فى ذلك ؟ لعل له دوافعه الخاصة .

فتمتم واحد منهم :

ـ لقد خاف ... أن تتحدث عنه الصحف .

فاحتد الجنرال الحنق :

ـ لم يبق الا هذا ! الصحف ! تتحدث عنه ! لو كان الأمر بيدى لما تركت شيئا يطبع فى هذه الصحف الا الضرائب على اللحم والخبز ، والاعلانات عن بيع الفراء والاحذية .

فأضاف راتميروف :

ـ وممتلكات النبلاء المعروضة فى المزاد .

ـ نعم ، ربما ، فى هذه الاوقات .. ولكن هذا ليس موضوعا نتكلم فيه فى بادن ، (٣) au vieux château .

فأجابت السيدة ذات القبعة الصفراء :

ـ Mais pas du tout! Pas du tout ! انى J adore les questions Politiques (٤)

وزاد جنرال آخر ذو وجه طلق أشبه بوجوه الفتيات :

ـ (٥) Madame a raison . لماذا نتجنب هذه الموضوعات... وان كنا فى بادن ؟ (ونظر الى لتفينوف متلطفا وابتسم فى تسامح ، ان الرجل الشريف يجب ألا ينكر معتقداته مهما تكن الظروف . الا ترى ذلك ؟

---

(١) « لكن هذا مؤقت » .

(٢) « وطفحة الدم » .

(٣) « فى القلعة القديمة » .

(٤) « أبدا أبدا . اننى أعبد الموضوعات السياسية » .

(٥) « السيدة على حق » .

فأجاب الجنرال الحنق ، وهو يرمى لتفينوف بنظرة ، وكأنه يهاجمه من طريق خفى :

ــ طبعا . ولــكنى لا أجد ضرورة ...

فقاطعه الجنرال المتسامح بتلك الرقة عينها :

ــ لا لا . ان صديقك فاليريان فلاديميروفتش قد أشار منــذ برهة الى بيع ضياع النبلاء . أليست هذه حقيقة واقعة ؟

فصاح الجنرال الحنق :

ــ ولــكنها لا تباع فى هذه الايام . فلا أحد يرغب فيها !

ــ ربما ... ربما . هذا أدعى الى أن نقرر الحقيقة ــ المحزنة ــ فى كل مناسبة . اننا نفتقر ، نعم ، وتضيع هيبتنا ، هذا لاشك فيه . ولــكننا ، نحن الملاك الــكبار ، نمثل مبــدأ : un principe وواجبنا هو أن نحافظ على هــذا المبدأ . Pardon, Madame أظن ان منديلك وقع . عندما تشتبه الامور على أكبر العقول يجب علينا ــ بوصفنا مواطنين ــ أن نشير فى تواضع الى الهاوية التى ينحدر اليها كل شيء (وأشار الجنرال بأصبعه) . يجب أن نقول فى أدب وحزم : « ارجعوا ، ارجعوا ... » هــذا ما يجب أن نقوله .

فقال لتفينوف ساهما :

ــ ولــكنك تعلم أن الرجوع مستحيل .

فلم يزد الجنرال المتسامح على أن ابتسم وقال :

الرجوع ، الرجوع ، (١) mon trés cher وكلما رجعنــا وجدناه خيرا .

ونظر الجنرال مرة أخرى الى لتفينوف متلطفا . فنفد صــبر لتفينوف .

ــ أترى سعادتك أن نتراجع حتى البويار السبعة ؟

ــ لم لا ؟ اننى أقول رأيى بصراحة تامة . كل ما عمل يجب ، نعم ، يجب الغاؤه .

ــ و ١٩ فبراير ؟ (٢)

ــ و ١٩ فبراير ــ كلما أمكن (٣) . On est patriote ou on ne l'est pas . تسألوننى : « والحرية ؟ » ولــكن هــل تظنون أن

---

(١) « يا عزيزى » .

(٢) صدر مرسوم تحرير الارقاء فى ١٩ فبراير سنة ١٨٦١ .

(٣) « أما أن يكون المرء وطنيا أو لا يكون » .

الشعب يقدر هذه الحرية ؟ سلوهم ...
فقاطعه لتفينوف :
ــ حاولوا اذن أن تنتزعوا تلك الحرية مرة أخرى !
فهمس الجنرال مخاطبا راتميروف :
Comment nommez-vous ce monsieur ? (١)
وانطلق الجنرال السمين فجأة يقول :
ــ فيم تتناقشون هنا ؟ ــ وكان جليا أنه يمثل بين أصدقائه دور الطفل المدلل ــ أكل هذا عن الصحف ؟ عن الجرنالجية ؟ سأخبركم بحكاية لى مع كاتب صغير ــ لذيذ جدا . قيل لى انه كتب يشهر بى . أمرت بشده حالا . فشدوه . قلت له : «كيف حدث أنك شهرت بى ؟ هل حتمت عليك الوطنية هذا ؟ » قال : « نعم .» قلت له : « والنقود ياحضرة الجرنالجى ؟ هل تحبها ؟» قال : «نعم» . عند ذلك ياسادتى الاعزاء وضعت مقبض عصاى تحت أنفه ، وقلت له : « وهل تحب هذا ياملاكى ؟ » قال : « لا ، انى لا أحب هذا . » قلت له : « شمه جيدا . ان يدى نظيفتان . » فما قدر الا انه كرر : « لا ، انى لا أحبه . » قلت : « أما أنا فأحبه جدا يا عزيزى . ولكنى لا أحبه لنفسى . أتفهم هذا المثل ياكنزى ؟ » قال : « نعم . » قلت : « اذن فاعمل على أن تكون غلاما طيبا فى المستقبل . والآن هاك روبلا فضيا جميلا من أجلك . اذهب وسبح بحمدى آناء الليل وأطراف النهار . »
وهكذا ذهب الجرنالجى .
وانفجر الجنرال ضاحكا . وحذا الباقون حذوه مرة أخرى ، الا ايرينا فانها لم تبتسم بل نظرت الى المتكلم نظرة سوداء .
وضرب الجنرال المتسامح بيده كتف بوريس :
ــ هذا كله من خيالك يا صديقى العزيز ...أأنت تهدد أى انسان بعصا؟ بل أنت لا تحمل عصا (٢) C'est pour faire rire ces dames. انما تريد أن تروى قصة مسلية . ولكن ليس هذا هو المهم . لقد قلت منذ برهة اننا يجب أن نرجع الى الوراء تماما . افهمنى . اننى لست عدوا لما يسمى التقدم . ولكن كل هذه الجامعات والمعاهد والمدارس ــ كل هؤلاء الطلاب أبناء القسس والعوام ، كل هذا الفقس الصغير ، tout se fond du sac, la petite *proprieté*, pire

(١) « ما اسم هذا السيد ؟ » .
(٢) « انما أردت أن تضحك السيدات » .

que la proletariat ، نطق الجنرال هذه العبارة بصوت متراخ يكاد يكون متهالكا) (١) Voilà ce qui m effraie . هنـــــــا يجب على المرء أن يقف ، ويضع حدا فاصلا. (ونظر الى لتفينوف مرة أخرى نظرة لطيفة .) نعم ، يجب أن نضع الحد الفاصل ــ تذكروا أننا لا نريد شيئا . ليست لنا أي مطالب . الحكم الذاتى مثلا ــ من يطلبه ؟ أتطلبه انت ، أو انت ، أو انت ، أو أنتن ياسيداتى ؟ أنكن لا تحكمن أنفسكن فقط ، بل تحكمننا جميعا أيضا . (وأشرق وجه الجنرال بابتسامة رضا .) اذن لماذا نجامل يا أصدقائى الاعزاء ؟ ان الديمقراطية ترحب بكم ، انها تتملقكم ، انها مستعدة لتحقيق أهدافكم ... ولكنها سلاح ذو حدين. خير من هذا أن نعود الى طريقنا القديم ، طريقنا المجرب.. انه أكثر أمنا . لا تتركوا الفوغاء يجترئون عليكم ، بل ثقوا بالارستقراطية ، ففيها وحدها القوة ... لاشك ان هذا أفضل. أما التقدم.. فأنا لا أعارضه فى الحقيقة بشرط ألا تعطونا محامين ومحلفين وموظفين منتخبين .. بشرط ألا تمسوا النظام . النظام قبل كل شيء . تستطيعون أن تبنوا الجسور ، والارصفة ، والمستشفيات ، ولا بأس أيضا بأن تضيئوا الشوارع بالغاز ...

فتنحنح الجنرال الحنق :

ــ انهم يضرمون الحرائق فى بطرسبرج من كل ناحية . هذا هو التقدم الذى تتحدث عنه !

وقال الجنرال السمين ، وهو يترجح فى كرسيه ببلادة :

ــ انت شديد المرارة . هذا واضح . يجب أن يجعلوك نائبا عاما . ولكنى أعتقد أن (٢) Avec «Orphée aux enfers» le progrés a dit son dernier mot.

فقالت السيدة التى من أرزاماس ضاحكة :

ــ (٣) Vous dites toujours des bâtises.

فأظهر الجنرال الغضب :

Je ne suis plus serieux, madame, que quand je dis dee bêtises. (٤)

---

(١) « كل هذه الحثالة : صغار الملاك الذين هم شر ممن لا يملكون ـ هذا ما يرعبنى » .

(٢) التقدم قال كلمته الأخيرة عندما ظهرت « أورفى فى الجحيم » (أوبرا هزلية للموسيقى الالمانى أوفنباخ ـ ١٨٥٨) .

(٣) « أنت دائما تهزل » .

(٤) « أنا أكثر ما أكون جدا ياسيدتى عندما أهزل » .

فقالت ايرينا بصوت خفيض :
ـ لقد قال السيد فردييه هذه العبارة نفسها عدة مرات من قبل .
وصاح الجنرال السمين :
De la poigne et des formes, de la poigne surtout. —
او بالروسية : « كن مؤدبا لكن استعمل قبضتيك . »
فقاطعه الجنرال المتسامح :
ـ آه . أنت شيطان ، شيطان خبيث . سيداتى ، لا تستمعن اليه. ان الكلب النابح لايعض . انه لايهتم بشىء سوى الفزل .
وبدأ راتميروف يقول ، بعد أن تبادل مع زوجته نظرة :
ـ أنت مخطىء يابوريس . لابأس بأن تكون ماجنا ، ولكنك تبالغ كثيرا . ان التقدم ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية ، وهذا ما لايجب أن ننساه . انه بادرة يجب علينا أن نراقبها .
فأجاب الجنرال السمين مجعدا أنفه :
ـ حسنا . نحن جميعا نعلم أنك طامع فى الوزارة .
ـ كلا ، مطلقا ! تقول الوزارة ! ولكن المرء لا يسعه أن يغمض عينيه عن الحقيقة .
ودس بوريس أصابعه فىعارضيه مرة أخرى ، وحدق فىالهواء .
ـ .. الحياة الاجتماعية مهمة جدا . فى تطور الشعب ، وفى مصاير البلاد ان صح التعبير ...
فقاطعه بوريس مؤنبا :
ـ (١) . Valerien, il y a des dames ici لم أكن أتوقع هـذا منك . أم انت تريد أن تصبح عضوا فى لجنة ؟
فعلق الجنرال الحنق على ذلك قائلا :
ـ ولكن هذه اللجان حلت كلها الآن والحمد لله .
وأخذ يدندن مرة أخرى :
Deux gendarmes un beau dimanche
ورفع راتميروف منديلا من الكتان الكبرى الرقيق الى أنفه وانسحب من المناقشة . واستمر الجنرال المتسامح يكرر : « شيطان ! شيطان ! » ولكن بوريس التفت الى السيدة التى « تغامز الهواء » ، ونفد أن يخفض صوته أو يغير تعبير وجهه ،

(١) « فاليريان ، هنا سيدات ! » .

أخذ يلح عليها بالسؤال « متى تقدر اخلاصه » ، لأنه يحبهـا ، ويقاسى العذاب من جراء ذلك .

وفى أثناء هذا الحديث كان لتفينوف يزداد ضيقا فى كل لحظة. وثارت كبرياؤه ، كبرياؤه الشعبية النظيفة ، ثورة بالغة . فى أى شيء يشارك هو ، ابن الموظف البسيط ، أولئك الارســتقراطيين العسكريين من بطرسبرج ؟ انه يحب كل ما يكرهون ، ويكره كل ما يحبون . وان شعوره بذلك لقوى حاد ، يحسه فى كل جزء من كيانه . انه يجد نكاتهم سمجة ، ونبراتهم ممجوجة ، وكل اشارة من اشاراتهم كاذبة مصطنعة . وحتى نعومة حديثهم كان يجد فيها نبرة احتقار تثير كراهيته . ولـكنه كان كالخجل أمامهم ! أمام هذه المخلوقات ، هؤلاء الاعداء ! « اف ! يا للخزى ! ان وجودى يضايقهم . انهم يروننى أضحوكة . » كانت هذه هى الفكرة التى ظلت تدور برأسه . لماذا أبقى ؟ فلأذهب ، فلأنج الآن ! » وماكان وجود ايرينا ليستبقيه ، فانها هى أيضا كانت تثير فيه انفعالات سوداوية . فنهض عن مقعده وبدأ يستأذن فى الانصراف . فقالت ايرينا :

ـ أذاهب الآن ؟

ولـكنها بعد قليل من التفكير لم تلح عليه فى البقاء ، بل انتزعت منه وعدا بأن يزورها . وودعه الجنرال راتميروف بتلطفه البالغ ، وصافحه ورافقه الى نهاية الشرفة .. ولـكن لتفينوف لم يـكد يعرج فى أول منحنى من منحنيات الطريق حتى سمع ضحكا صاخبا خلفه . ولم يكن لهذا الضحك صلة به ، بل أثاره مقدم السيـد فرديبه المرتقب ، وقد ظهر فجأة على الشرفة ، لابسا قبعة تيرولية وجلبـابا أزرق ، وراكبا حمـارا . ولـكن الدم اندفع الى خـدى لتفينوف اندفاعا ، وأحس بمرارة فظيعة ، وانطبقت شفتاه كأنه تجرع علقما . وتمتم : « مخلوقات سافلة حقيرة » ، ولم يفكر ان الدقائق القليلة التى أمضاها فى صحبتهم غير كافية لأن يصـدر عليهم مثل هذا الحكم القاسى . هذه هى الدنيا التى سقطت فيها ايرينا ! ايرينا التى كانت له فى يوم من الايام ... فى هذه الدنيا كانت تتحرك ، وتعيش ، وتحكم . لأجلها ضحت كرامة نفسها ، وانبل مشاعر قلبها ... هذا بلا ريب ما كان يجب أن يكون . لاشك أنها ما كانت تستحق مصيرا أفضـل ! ما أسعده لأنها لم تسأله عما ينتويه ! لعـله كان يفتح قلبـه « أمامهم » ، « فى

محضرهم » ... وتمتم لتفينوف وهو ينشق انفاسا عميقة من الهواء النقي ، ويهبط في الطريق المنحدر الى بادن يكاد يعدو : « لايمكن ! أبدا ! أبدا ! » وفكر في خطيبته .. في تاتيانا الحلوة الطيبة النقية ، وفي طهرها ونبلها وصدقها ، فبأي حنان صادق تمثل ملامحها وكلماتها وعاداتها ، وبأي شوق تمنى عودتها !

وهدأ المجهود السريع أعصابه . فلما عاد الى مسكنه جلس الى منضدته وتناول كتابا ، وفجأة تركه يسقط ، وقد أصابته رعدة: ماذا جرى له ؟ لا شيء ، ولكن ايرينا ... ايرينا ... وعلى حين غرة بدا له لقاؤه واياها شيئا مدهشا ، غريبا ــ غير عادي. أهذا ممكن ؟ لقد رأى ايرينا نفسها ... لقد تحدث معها ... وكيف لم يجد فيها أثرا من تلك الدنيوية البغيضة التي كانت تتجلى في كل أولئك الآخرين ؟ لماذا خيل اليه انها كالضجرة أو كالحزينة أو كالساخطة على ما يحيط بها ؟ انها في معسكرهم ، ولكنها ليست بعدو . وماذا يجبرها على أن تبش له وتدعوه لزيارتها ؟

وذعر لتفينوف ، وصاح بحرارة : « تانيا ! تانيا ! أنت وحدك ملاكي الحارس ــ ملاكي الطاهر ، اني احبك وسأحبك دائما . ولن أذهب اليها ... سأنساها نسيانا ..! فلتسل نفسها مع جنرالاتها ! »

وعاد لتفينوف الى كتابه .

تناول لتفينوف كتابه ثانية ، ولكنه لم يستطع أن يقرأ . فغادر المنزل ، وسار قليلا ، واستمع الى الموسيقى ، وشاهد القمار ، وعاد مرة أخرى الى غرفته ، وحاول أن يقرأ ، فلم يفلح فى هذه المرة أيضا . كان الزمن يمر متثاقلا كئيبا . وجاء بشتشا لكن - قاضي التحكيم الطيب - وجلس ثلاث ساعات كاملة . وكان يتكلم ويجادل ، ويثير مسائل ، ويحاضر من حين الى حين . وكانت محاضراته فى موضوعات فكرية عالية أول الأمر ثم فى موضوعات عملية بعد ذلك. وقد نجح فى أن يشيع حوله جوا من الملل الفظيع، حتى ان لتفينوف المسكين كاد يصرخ . كان بشتشا لكن لا يجارى فى قدرته على أن يرفع الاملال - الاملال المؤلم المروع المؤئس - الى فن جميل ، ولم يكن له نظير فى ذلك حتى بين ذوى الاخلاق الممتازة أنفسهم ، وهم أساتذة ذائعو الصيت فى هذا الباب . وكان مرأى رأسه المشذب يبعث فى النفس قنوطا لا فكاك منه ، ونبرات صوته الوئيدة الكسلانة كأنها لم تخلق الا لتقرر فى يقين وجلاء حقائق من طراز أن اثنين فى اثنين تساوى أربعة لا خمسة أوثلاثة ، وان الماء سائل ، وان العفو من شيم الكرام ، وان نظام الائتمان ضرورى فى المعاملات المالية - ضرورى للدولة كضرورته للأفراد ؛ وضرورى للأفراد كضرورته للدولة . وكان على الرغم من هذا كله رجلا من خيار الناس !. ولكن هذا هو ما حكمت به الاقدار على روسيا . ان خيار الناس أغبياء .

واخيرا ذهب بشتشا لكن وجاء بنداسوف ، وسأل لتفينوف من فوره - فى صفاقة غريبة - ان يقرضه مائةجلد. واعطاه لتفينوف ما طلب ، مع أنه لم يكن يميل الى بنداسوف ، بل كان يبغضه ويحتقره ، وكان واثقا أنه لن يرى نقوده ثانيا ، وكان هو نفسه فى حاجة اليها . وسوف يسأل القارىء : فما الذى جعله يعطيه النقود اذن ؟ الشيطان وحده يعلم ! فهذه ناحية قد برز فيها الروس أيضا . وليضع القارىء يده على قلبه وليتذكر كم عملا

أتاه هو نفسه فى حياته بلا سبب ما . لم يعن بنداسوف حتى بأن يشكر لتفينوف بل طلب كوبا من الافنتالر (نبيذ بادن الاحمر) ، وانصرف دون أن يمسح شفتيه ، وهو يدق الارض بقدميه دقا عاليا مثيرا . وما كان أشد سخط لتفينوف على نفسه وهو ينظر الى قفا البلطجى الفليظ الاحمر وهو خارج !

وقبل المساء تلقى لتفينوف رسالة من تانيانا تخبره فيهـا بأن عمتها مريضة ، وانهما لاتستطيعان الحضور الى بادن الا بعد خمسة أيام أو ستة . وكان لهذا النبأ أثر سيىء فى نفس لتفينوف ، فزاد غيظه ، وأوى الى سريره مبكرا وهو ضيق الصـدر . ولم يكن اليوم التالى خيرا من سابقه ، بل لعله كان شرا منه . فقد امتلأت حجرة لتفينوف من الصباح الباكر بأبنـاء وطنـه : بمبايف ، وفورشيلوف وبشتشالكن ، والضابطين ، والطالبين من هيدلبرج ، تكاثروا عليه جميعا دفعة واحدة ، ولم ينصرفوا الا وقت العشاء ، مع انهم كانوا قد افرغوا سريعا ما عندهم من حديث وبدا عليهم الملل .

والحقيقة انهم كانوا لايعلمون ماذا يصـنعون بأنفسهم ، فلمـا وجدوا فى مسكن لتفينوف « لزقوا » فيه كما يقولون . تكلموا أولا عن عودة جوباريوف الى هيدلبرج ، وضرورة رحيلهم فى اثره . ثم تفلسفوا قليلا ، وذكروا المسألة البولندية ، ثم عرجوا على القمار وبنات الهوى ، واستطردوا الى نوادر فاحشة . واخيرا هبطوا الى حكايات « الدباغين » وذوى القوة المفرطة . فتذاكروا أولا كل ماكان يروى عن لوكيه ، وعن ذلك الشماس الذى التهم فى رهان اكثر من ثلاث وثلاثين « رنجة » ، وعن الاولانى ازيدينوف المشـهور بفرط بدانته ، وعن ذلك الضابط الذى كسر عظمة ساق على جبهته . ثم تلا ذلك كذب صراح . فروى بشتشالكن نفسه وهو يتثاءب أنه عرف امرأة فلاحة فى روسيا الصفرى ، وجد عند وفاتها أن وزنها اكثر من نصف طن ، وعينا افطر بثلاث وزات وسمكة ضخمة . وتحمس بمبايف فجأة واعلن انه يستطيع ان يأكل شاة كاملة ـ بشرط ان تكون « متبلة » طبعا . وانفجر فوروشيلوف يروى شيئا عن رفيق له فى المدرسة شديد الأيد ، وكانت روايته مختلطة اختلاطا الزمهم الصمت ، وبعـد برهة نظر بعضهم الى بعض وتناولوا قبعاتهم وانصرفوا .

وحين فرغ لتفينوف لنفسه حاول ان يعمل ، ولكنه احس كأن

راسه ملىء بأبخرة متكاثفة . فلم يستطع أن يعمل شيئا ، وضاعت منه الليلة كما ضاع النهار. وفى صبيحة اليوم التالى لم يكد يتأهب لتناول فطوره حتى طرق بابه ، فقال لتفينوف فى نفسه : يالله ! انه واحد من أصدقاء الامس ايضا » . ونطق بشىء من الوجل :

— ! Herein (1) .

فانفتح الباب ببطء ودخل بوتوجين . وسر لتفينوف برؤيته سرورا عظيما ، وجعل يقول وهو يشد بحرارة على يد ضيفه غير المنتظر :

— أهلا أهلا ! لقد احسنت صنعا بمجيئك ، كنت أود أن أذهب اليك ، ولكنك لم تشأ أن تخبرنى بمثواك . تفضل بالجلوس . ضع قبعتك . اجلس .

ولم يجب بوتوجين على ترحاب لتفينوف الحار ، وظل واقفا وسط الغرفة وهو يبدل ساقيه ، ولم يزد على أن ابتسم وهز راسه ، وكان جليا أن استقبال لتفينوف الحفى قد مس قلبه ، ولكن تعبير وجهه نم بشىء من الارتباك .

بدأ يقول فى تردد :

— هناك ... سوء تفاهم بسيط . طبعا ... يسرنى دائما أن أراك . ولكن الحقيقة ... انى رسول اليك .

— أتعنى أنك ما كنت لتأتى الى هنا من تلقاء نفسك ؟

— بلى ! ولكنى ... لا أظننى كنت أقدم على أن أتطفل عليك اليوم ، لولا أنى سئلت المجىء اليك . أجل ، اننى أحمل رسالة اليك .

— أأستطيع أن أعلم مرسلها ؟

— شخص تعرفه . أنها من ايرينا بافلوفنا راتميروف . لقد وعدتها منذ ثلاثة أيام أن تزورها ولم تفعل .

فحدق لتفينوف فى بوتوجين دهشا :

— أتعرف مدام راتميروف ؟

— كما ترى .

— وتعرفها جيدا ؟

— يمكننى أن أقول انى صديق لها .

وصمت لتفينوف برهة . وأخيرا قال :

---

(١)« أدخل ! » (بالالمانية) .

ـ اسمح لى ان ان أسألك : هل تعلم لماذا تريد ايرينا بافلوفنا ان ترانى ؟
فمشى بوتوجين الى النافذة :
ـ الى حد ما . لقد سرت برؤيتك سرورا عظيما على ما يبدو لى . وهى تريد أن تجدد علاقتها القديمة بك .
فردد لتفينوف :
ـ تجدد ... معذرة اذا اثقلت عليك . ولكن اسمح لى أن أسألك سؤالا آخر : أتعلم انت ماذا كانت طبيعة تلك العلاقة ؟
ـ لا ... لا أعلم فى الحقيقة .. وأضاف بوتوجين وهو يلتفت الى لتفينوف فجأة وينظر اليه بعطف : ولكنى أظنها كانت علاقة وثيقة . لقد أثنت عليك ايرينا بافلوفنا ثناء عظيما ، واضطررت ان أعدها باحضارك . فهل تأتى ؟
ـ متى ؟
ـ الآن . حالا .
فرفع لتفينوف يديه دهشا . وأضاف بوتوجين :
ـ ان ايرينا بافلوفنا تظن ان الـ ... لا أدرى ماذا أقول ... ان الملابسات التى صادفتها فيها أول أمس ما كانت تسر كثيرا . ولكنها كلفتنى أن أقول لك ان الشيطان ليس حالك السواد كما يصورونه .
ـ م ـ م .... أهذا القول عن الملابسات ذاتها ؟
ـ نعم .. وعلى العموم أيضا .
ـ م ـ م ... حسنا ، وما رأيك انت فى الشيطان ياسوزونت ايفانتش ؟
ـ أظن ياجوريجورى ميهالتش انه ليس كما يصورونه على اية حال .
ـ أهو خير مما يصورونه ؟
ـ لا ادرى ان كان خيرا أو شرا ، ولكنه مختلف . حسنا . هل نذهب ؟
ـ أرجو أن تجلس قليلا أولا . يجب أن أعترف بأن الأمر ما زال يبدو غريبا .
ـ أى غرابة ، ان جاز لى أن أسأل ؟
ـ كيف أمكن أن تصبح صديقا لايرينا بافلوفنا ؟
فأخذ بوتوجين يفحص نفسه بنظرة . ثم قال :

ـ حقا ان الأمر يبـدو بعيد التصـديق بالنسبة الى منظرى ومنزلتى فى المجتمع ولـكنك تعلم ان شكسبير قال : ان فى السماء والارض ياهوراشيو ... الخ . ليست الحياة سهلة . واليك هذا المثل : هذه شجرة قائمة أمامك والريح ساكنة ، فـكيف تتلقى ورقة من غصن منحط مع ورقة من غصن عال ؟ هـذا محال . ولـكن العاصفة تهب ، فيتغير كل شيء ، وتتلقى الورقتان .

ـ ايه ؟ اذن فقد كانت ثمة عواصف ؟

ـ كيف لا؟ هل تمر الحياة بغير عواصف؟ ولـكن كفانا فلسفة، فقد آن أن نذهب .

وكان اتفينوف لايزال مترددا ، فصاح بوتوجين وقد جعد وجهه ليثير الضحك :

ـ يالله ! ماذا جرى للشبان فى هذه الايام ؟ سيدة رائعة الجمال تدعوهم الى زيارتها ، وتبعث أليهم الرسـل ، وهم يتهيبون ويترددون ! يجب أن تخجل ياسيدى العزيز . يجب أن تخجل . هذه قبعتك . خذها و « الى الامام » كما يقول أصدقاؤنا الالمان المتحمسون !

وطال تردد لتفينوف برهة أخرى ولـكنه تنـاول قبعته أخيرا وخرج من الحجرة مع بوتوجين .

ذهبـا الى أحـد الفنـادق الـكبرى فى بادن وسألا عن مدام راتميروف . وسألهما الحارس أولا عن اسميهما ، ثم أجاب على الفور أن « الأميرة بالمنزل » ، وصـعد هو نفسه الدرج معهما ، وطرق باب المسكن ، وأنبأ بحضـــورهما ، فخفت الأميرة الى استقبالهما . وكانت منفردة ، فقد سـافر زوجها الى كارلسروهة ليقابل شخصية رسمية كبيرة كان مارا بتلك المدينة .

وكانت ايرينا جالسة الى منضدة صغيرة تطرز حين عبر بوتوجين ولتفينوف عتبة الباب . فألقت بسرعة ما كانت تطرزه ، وأزاحت المنضدة الصغيرة ونهضت وقد غمر وجهها سرور صادق . وكانت تلبس رداء صباحيا مرتفعا عند العنق ، يشف نسيجه الرقيق عن تعاريج كتفيها وذراعيها ، وكان شعرها المعقوص بغير اعتناء قد تهدل على جيدها النحيل. ورمقت ايرينا بوتوجين بنظرة سريعة وتمتمت : Merci ، ومدت يدها الى لتفينوف وهى تؤنبه برقة على نسيانه. واضافت :

– وانت صديق قديم !

وبدأ لتفينوف يعتذر . فأسرعت تقول C'est bien, c'est bien (١)

وأخـذت منه قبعته وألحت عليـه بلطف حتى جلس . وكان بوتوجين قد جلس أيضا . ولـكنه نهض مسرعا ، واستـأذن فى الذهاب قائلا انه على موعد لايستطيع تأجيله وانه سيأتى ثانية بعد الغداء . ورمقته ايرينا مرة أخرى بنظرة سريعة ، وأومأت اليه برقة ، ولـكنها لم تحاول أن تستبقيه وما كاد يختفى خلف ستر الباب حتى التفتت بتلهف نحو لتفينوف ، وقالت : بالروسية فى صوتها الموسيقى الرقيق :

– ها قد أصبحنا وحيدين أخيرا . واستطيع أنأقول لك كم أنا مسرورة برؤيتك . لأنها ... لأنها تمنحنى فرصة ... (وثبتت

(١) « حسن ، حسن » .

ايرينا عينيها على وجهه بغير اضطراب) لأن أسألك المغفرة .

وأجفل لتفينوف على الرغم منه . انه ما كان يتوقع مثل هذا الهجوم السريع ما كان يتوقع أن تدير هي نفسها الحديث على الايام الخالية . فتمتم :

ـ المغفرة ... عمه ؟

فاحمر وجه ايرينا . وقالت :

ـ عمه ؟ أنت تدرى عمه ـ وأشاحت بوجهها قليلا ـ لقد أسأت اليك ياجريجورى ميهالتش ، وان كان ذلك قدرا كتب على (وتذكر لتفينوف رسالتها) ولست آسفة على شيء ... وعلى كل حال فقد فات أوان الاسف . ولكنى حين التقيت بك ذلك اللقاء المفاجيء ، قلت لنفسى اننا يجب أن نصبح صديقين ، لابد من ذلك ... وسوف أتألم كثيرا ان لم يتم ... ويبدو لى أن أول ما يجب هو أن نفسر مافات ، ولا نؤجل ذلك ولا نترك شيئا لما بعد ، حتى لايكون هناك أى ... gêne ... أى ارتباك ... يجب أن نفرغ من ذلك سريعا ياجريجورى ميهالتش ، ويجب أن تقول انك عفوت عنى ، والا خلتك تحس ... de la rancune. Voila (١) . لعله غرور منى ، ولعلك نسيت كل شيء منذ زمن طويل جدا ، ولكن لابأس قل لى انك عفوت عنى .

نطقت ايرينا بهذا الحديث كله دون أن تتوقف ، واستطاع لتفينوف أن يرى دموعا تلمع فى عينيها ... أجل ، دموعا . فأخذ يقول مسرعا :

ـ كيف هذا يا ايرينا بافلوفنا ؟ كيف تسألينني العفو والغفران؟ ان كل هذا قد مضى وانقضى ، وانى لا أملك الا أن أدهش حين أراك ـ فى كل ما يحيط بك من مظاهر البذخ ـ مازلت تذكرين رفاق شبابك الخاملين ...

فقالت ايرينا برقة :

ـ أيدهشك هذا ؟

فأضاف لتفينوف :

ـ انه يهزنى . لأنى ما كنت أظن ...

فقاطعته ايرينا :

ـ ولكنك لم تقل لى انك عفوت عنى ..

(١) بعض الموجدة . هذا هو ! .

ـ انى مسرور بسعادتك سرورا صـادقا يا ايرينا بافلوفنا . وانى لأتمنى لك من صميم قلبى كل خير ...

ـ ولن تذكرنى بشر ؟

ـ لن اذكر شيئا الا اللحظات السعيدة التى كنت مدينا لك بها فى وقت من الاوقات .

ومدت ايرينا اليه كلتا يديها ، فقبض عليهما بحرارة ، وأبقاهما بين يديه زمنا ... وكأنما تحرك فى قلبه لتلك الملامسة الرقيقة شىء لم يحس به منذ زمن طويل . وكانت ايرينا مثبتة عينيها على وجهه مرة أخرى ، ولـكنها كانت تبتسم هذه المرة ... ونظر هو اليها للمرة الاولى نظرة طويلة فاحصة ... فعرف ثانيـة تلك القسمات التى كانت عزيزة عليه زمنا ، العينين العميقتين بأهدابهما الرائعة ، الشامة الصغيرة على خدها ، منبت شعرها العجيب على جبينها ، عادتها فى عقد حاجبيها ولى شفتيها بطريقة فاتنة بديعة.. كل ذلك عرفه . ولـكن أى جمال ! أى سحر أنثوى وأى حميا شباب فى جسمها الفتى ! ولا طلاء ولا مساحيق على الوجه النضر النقى ... نعم ، ان هذه امرأة جميلة . وغمرت لتفينوف موجة من التفكير ... ظل ينظر اليها ، ولـكن أفـكاره كانت بعيدة ... ولاحظت ايرينا ذلك ، فقالت بصوت مرتفع :

ـ حسنا . هذا جميل جدا . الآن استراح ضميرى . ويمكننى أن أرضى تطلعى . فرد لتفينوف شبه حائر :

ـ تطلعك ؟

ـ اجل ، اجل . انى أود قبل كل شىء أن أعرف ماذا كنت تعمل كل هذا الوقت ، وماذا تريد أن تعمل فى المستقبل ، أريد أن أعرف كل شىء . كيف وماذا ومتى ... كل شىء . وحذار أن تخفى عنى الحقيقة ، فان أخبارك لم تنقطع عنى ... بقدر استطاعتى ...

ـ اخبارى لم تنقطع عنك .. انت .. هناك .. فى بطرسبرج ؟

ـ بين مظاهر البذخ التى تحيط بى ، كما قلت منذ برهة . اجل ، انها لم تنقطع عنى فى الحقيقة . اما ذلك البذخ فسوف نتحدث عنه فيما بعد ، ولـكنك يجب أن تخبرنى الآن بكل ماعندك ، وأن تطيل ، ولا تختصر ، فلن يقطع احد علينا حديثنا .

ثم اضافت ايرينا وهى تجلس فرحة مستروحة فوق كرسى كبير :

ـ ما احلى هذا الحديث ! هات ما عندك !

فبدأ لتفينوف قائلا :
ـ قبل أن أروى قصتى يجب أن أشكرك .
ـ علام ؟
ـ على طاقة الزهر التى وجدتها فى غرفتى .
ـ أية طاقة ؟ اننى لا أعرف شيئا عنها .
ـ ماذا ؟
ـ أقول لك انى لا أعرف شيئا عنها ... ولكنى منتظرة ... منتظرة سماع قصتك .... ما أكرم بوتوجين اذ جاء بك الى هنا !
وأرهف لتفينوف أذنيه . وسأل :
ـ هل عرفت هذا السيد بوتوجين منذ وقت طويل ؟
ـ أجل ، منذ وقت طويل ... ولكن أخبرنى بقصتك .
ـ وهل تعرفينه جيدا ؟
فتنهدت ايرينا وقالت :
ـ أجل ! لأسباب خاصة ... لقد سمعت بالطبع عن اليزا بيلسكى .. التى ماتت منذ عامين تلك الميتة المروعة ؟.. آه ، كلا، لقد نسيت أنك لست عالما بكل فضائحنا ... هذه نعمة ! اوه ! quelle chance (۱) أخيرا ، أخيرا ألتقى بانسان ، بانسان حقيقى لايعلم شيئا عنا ! وأتكلم معه بالروسية ... ولو أنها روسية رديئة ، بدلا من هذه الفرنسية البطرجية الكريهة الباهتة المملة!
ـ تقولين ان بوتوجين كان على اتصال بـ ...
فقاطعته ايرينا قائلة :
ـ ان مجرد الاشارة الى هذه القصة يؤلمنى . لقد كانت اليزا صديقتى الحميمة فى المدرسة ، وكنا نتزاور دائما بعد ذلك فى بطرسبرج . وكانت تفضى الى بكل أسرارها ، فقد كانت شقية معذبة . وبوتوجين كان شهما حقا فى مسلكه نحو المسألة كلها . لقد ضحى بنفسه ، ولم أقدره الا منذ ذلك الحين .
ولكننا ابتعدنا عن موضوعنا مرة أخرى . انى منتظرة قصتك ياجريجورى ميهالتش .
ـ ولكن قصتى لا تشوقك البتة يا ايرينا بافلوفنا .
ـ هذا لايعنيك .
ـ تذكرى يا ايرينا بافلوفنا أننا لم نتقابل منذ عشر سنوات .

(۱) « ياله من حظ سعيد ! » .

عشر سنوات كاملة . ما أكثر ما فعل الزمن فى هــذه السنوات العشر !

ــ ولهذا اريد أن أسمع حديثك .

ــ ثم انى لا أدرى من أين أبدأ .

ــ من البداية . منذ ... منذ رحلت الى بطرسبرج. لقد غادرت انت موسكو بعدئذ . أتدرى انى لم أعد قط الى موسكو منذ ذلك الحين ؟

ــ حقا ؟

ــ كان ذلك مستحيلا فى أول الأمر . ثم لما تزوجت ...

ــ هل تزوجت منذ زمن طويل ؟

ــ منذ أربع سنوات .

ــ أليس لك أبناء ؟

ــ فأجابت بخشونة :

ــ لا .

وصمت لتفينوف برهة .

ــ وهل مكثت عند ذلك ... الـكونت ريزنباخ حتى تزوجت ؟

فنظرت اليه ايرينا نظرة ثابتة ، كأنها تريد أن تعلم لماذا سأل هذا السؤال . وأخيرا أجابت :

ــ لا .

ــ أظن أبويك ... معذرة ، انى لم أسأل عنهما . أهما ...

ــ انهما كليهما بخير .

ــ ويعيشان فى موسكو كما مضى ؟

ــ ويعيشان فى موسكو كما مضى .

ــ واخوتك واخواتك ؟

ــ كلهم بخير . وأنا أرعاهم جميعا .

فقال لتفينوف وهو يرمق ايرينا من طرف خفى :

ــ آه ! لست أنا الذى يجب أن أروى قصتى ، بل أنت . لو..

وارتبك فجأة وصمت . ورفعت ايرينا كفيها الى وجهها وأخذت تدير خاتم الزواج فى أصبعها . وأخيرا قالت :

ــ حسنا . لن أرفض ذلك . ربما .. فى يوم من الايام ... ولـكن ابدأ انت ، فأنى لا أكاد أعلم شيئا عنك ، مع انى حاولت أن أتتبع أخبارك . أما أنا فقد سمعت عنى كثيرا . أليس كذلك؟ ألم تسمع عنى ؟

ــ انك يا ايرينا بافلوفنا قد شغلت مكانا ظاهرا فى المجتمع ، فهل كان يمكن الا يتحدث الناس عنك . خصوصا فى الريف ، حيث كنت أعيش ، وحيث كل شائعة تصدق ؟

ــ وهل تصدق الشائعات ؟ وما نوع هذه الشائعات ؟

ــ ان أردت الحقيقة يا ايرينا بافلوفنا فان هـذه الشائعات كانت نادرا ما تصلنى . لقد كنت أحيا فى عزلة تامة .

ــ كيف هذا ؟ ألم تـكن فى القرم ؟ وفى الجيش ؟

ــ أتعلمين هذا أيضا ؟

ــ كما ترى . لقد قلت لك انك كنت مراقبا .

فاحس لتفينوف بالحيرة مرة أخرى . وقال هامسا :

ــ ولمـا أخبرك بما تعرفينه من قبل ؟

ــ لماذا ؟ لانى أسألك. الا ترى أنى أسألك هذا منك ياجريجورى ميهالتش ؟

فحنى لتفينوف رأسه وبدأ ... بدأ يقص على ايرينا فى أسلوب مضطرب مجمل مغامراته التى لا تشوق . بل انه كان كثيرا مايقف وينظر الى ايرينا مستفهما ، كأنه يســأل هل اكتفت بما روى ، ولـكنها الحت عليه ليتم قصته ، وبدت وهى تنحى شعرها خلف أذنيها ، وتعتمد بمرفقيها على ذراع كرسيها ، كأنما هى تلتقط كل كلمة فى انتباه شديد . ولعلك لو نظرت اليهـا من جانب وتابعت تعبير وجهها لخيل اليك أنها لا تسمع شيئا مما يقوله لتفينوف ، ولـكنها غارقة فى تأملها . بيد أنها لم تكن تتأمل لتفينوف ، وان أطالت اليه النظر حتى اضطرب واحمر وجهه . لقد كانت تتمثل أمامها حياة بأسرها ، حياة مخالفة جد المخالفة لما كانت تسمع ، حياتها هى لا حياته .

لم يتم لتفينوف قصـــــته ، بل قطعها وقد خامره احساس بالضيق . ولم تقل له ايرينا شيئا فى هذه المرة ، ولم تحثه على المضى فى قصته ، بل ضغطت راحتها على عينيها كأنما هى متعبة ، واضطجعت فى الـكرسى ببطء ، وظلت بغير حراك. وانتظر لتفينوف قليلا ، ثم تذكر ان زيارته قد دامت أكثر من ساعتين ، فمد يده يريد قبعته ، واذا بصوت حذاء منجلد الماعز ينبعث من الحجرة المجاورة ، وفاليريان فلاديميروفتش راتميروف يدخل مســـبوقا بعطره الارستقراطى البديع .

ونهض لتفينوف ، وتبادل الانحناء مع الجنرال الوسيم ، بينما

رفعت ايرينا يدها عن وجهها فى غير عجلة ، وقالت بالفرنسية وهى تنظر الى زوجها نظرة باردة :

ــ آه ، لقد عدت ! ولكن كم الساعة الآن ؟

فأجابها الجنرال :

ــ نحو الرابعة ياعزيزتى ــ وأنت لم تلبسى بعد . ان الأميرة تنتظرنا .

وحنى قوامه المحبوك نحو لتفينوف انحناءة رشيقة ، وقال بنبرته العابثة المتهالكة التى تكاد تكون انثوية :

ــ الظاهر ان ضيفك العزيز أنساك الوقت .

وليسمح لنا القارىء عند هذه النقطة أن نحدثه بشىء عن الجنرال راتميروف . لقد كان أبوه ابنا غير شرعى لشخصية ممتازة فىعصر الكسندر الاول ، من ممثلة فرنسية صغيرة حلوة . وقد مهد ذلك الشخص الممتاز لابنه طريقا فى الحياة ، ولكنه لم يترك له مالا ، ولم يتسع الوقت للابن (والد بطلنا) حتى يجمع ثروة ، بل مات قبل أن يجاوز رتبة كولونيل فى البوليس . وكان قد تزوج قبل وفاته بعام أرملة شابة حسناء اتفقأناستظلت برعايته، وادخلت « الواسطة » ابنهما فاليريان الكسندروفتش المدرسة الثانوية العسكرية ، وهناك لم يجتذب انتباه الرؤساء اليه بنجاحه فى العلوم ، بقدر ما اجتذبه بهندامه وآدابه وحسن سلوكه (وان تعرض لكل ما لم ينج منه تلاميذ المدارس الحربية فىتلكالايام). ثم عين فى الحرس . ووصل فيه الى مركز ممتاز بفضل تودده المؤدب ، ومهارته فى الرقص ، وحسن جلسته على ظهر الجواد فى الاستعراضات (وكان غالبا يستعير الجواد الذى يركبه) وقبلهذا كله براعة خاصة فى رفع الكلفة مع الرؤساء دون غض منأقدارهم، ونوع من الملق اللطيف المهذب تمازجه مسحة من التحرر باهتة خفيفة كالهواء ... الا أن هذا التحرر لم يمنعه من أن يجلد خمسين فلاحا فى قرية من روسيا البيضاء بعث اليها ليخمد ثورة وكان جذاب المظهر ، زاهر الشباب ، مورد الخدين ، ناعما خفيفا لعابا ، فوفق أعظم التوفيق مع النساء ، وجنت به السيدات الارستقراطيات الناضجات . وكان الحذر له عادة ، والصمت ذريعة ، فراح يتنقل بين أرقى الأوساط كنحلة نشيطة تجمع العسل حتى من أتفه الازهار . وكان بلا خلق ولا علم ، ولكنكانت له شهرة رجل عملى ، وحاسة فى معرفة الناس ، ومقدرة على

فهم الظروف ، وكان له قبل ذلك كله عزم لايتزعزع على منفعة نفسه ، فتفتحت له الأبواب كلها آخر الأمر .

ابتسم لتفينوف ابتسامة مغتصبة ، بينما لم تزد ايرينا على ان هزت كتفيها ، وقالت دون أن يزايلها برودها :

— حسنا ، هل رأيت آلكونت ؟

— نعم رأيته . وقد أمرنى أن أبلغك تحيته .

— آه ! ألا يزال نصيرك هذا غبيا كما كان ؟

فلم يجب الجنرال راتميروف ، ولكنه ضحك ضحكة صغيرة من أنفه ، كأنه يتجاوز عما فى حكم امرأة من تسرع . كانت ضحكته هى تلك التى يجيب بها الكبار الطيبون على نزوات الاطفال . واستمرت ايرينا تقول :

— نعم ، ان غباء صديقك الكونت لشىء عجيب . وما أكثر ما رأيت من أعاجيب !

فتمتم الجنرال بين اسنانه :

— أنت التى ارسلتنى اليه .

التفت الى لتفينوف وسأله بالروسية هل يعالج نفسه بمياه بادن ؟

فأجاب لتفينوف :

— انى بصحة تامة والحمد لله .

فمضى الجنرال يقول وهو يبتسم ابتسامة تودد :

— هذه أعظم نعمة . الحق ان الناس لايأتون الى بادن عادة طلبا للمياه ، ولكن المياه هنا طيبة الأثر je veu dire efficace وكل من يعانى سعالا عصبيا مثلى ...

فنهضت ايرينا مسرعة ، وقطعت بازدراء حديث زوجها قائلة بالفرنسية :

— نتقابل مرة أخرى ياجريجورى مهالتش ، وأرجو أن يكون ذلك قريبا ولكنى يجب أن أستعد للخروج الآن . ان تلك الأميرة لاتطاق بحفلاتها الدائمة التى لا تبعث الا الملل .

فتمتم زوجها وهو يدلف الى الحجرة المجاورة :

— أنت قاسية على كل انسان اليوم .

وكان لتفينوف متجها الى الباب ... فاستوقفته ايرينا قائلة :

— لقد أفضيت الى بكل شىء ، ولكنك أخفيت عنى أهم شىء .

— وما ذاك ؟

ـ ألست خاطبا ؟ لقد سمعت ذلك .

فاحمر لتفينوف حتى أذنيه ... والحق انه تعمد الا يشير الى تانيا ، ولـكنه أحس بغيظ شديد لأن ايرينا كانت عالمة بزواجه ، ثم لأنها اتهمته بالرغبة فى اخفاء الأمر عنها . وحار فيما يقول ، بينما لم ترفع ايرينا عينيها عنه . وأخيرا قال :

ـ نعم ، انى خاطب .

وانصرف على الفور .

وعاد راتميروف الى الحجرة وسأل :

ـ حسنا . لماذا لم تلبسى ؟

ـ اذهب وحدك . انى أحس صداعا .

ـ ولـكن الأميرة ...

فقاست ايرينا زوجها من رأسه الى قدمه بنظرة واحدة ، وأولته ظهرها ، وذهبت الى مخدعها .

سخط لتفينوف على نفسه سخطا شديدا كأنه خسر فى الروليت أو أخلف وعدا . قال له صوت فى باطنه انه ما كان يجوز له ، وهو على عتبة الزواج ، وهو رجل رزين لا صبى حدث ، أن يخضع لنوازع التطلع أو اغراء الذكريات . قال فى نفسه : «ماكان أغنانى عن الذهاب ! الأمر من جانبها لايعدو أن يكون نزوة طارئة . انها ملول . انها ضجرة بكل شيء . لقد اشتاقت الى كمن اتخمته أطايب الطعام فهو يتوق فجأة الى الخبز الاسود ... حسنا ، ان هذا طبيعى جدا ... ولكن لماذا ذهبت اليها ؟ اننى لا استطيع أن أحس نحوها شيئا .. سوى الاحتقار ! لم يستطع أن يفوه بهذه العبارة — حتى فى خياله — الا بجهد ... وتابع أفكاره : ليس هناك أدنى خطورة بالطبع ، ولا يمكن أن تكون . اننى أعرف من أواجه ، غير ان المرء يجب ألا يلعب بالنار... لن أضع قدمى فى منزلها ثانية . ولم يجرؤ لتفينوف أو لم يستطع حتى ذلك الحين أن يعترف لنفسه كم بدت له ايرينا جميلة ، وكم أحس انه منجذب اليها .

ومضى اليوم مرة اخرى ثقيلا كئيبا . واتفق أن جلس لتفينوف على الغداء بجانب رجل أنيق مصبوغ الشارب ، لم ينبس بكلمة ، بل ظل يلهث ويدير عينيه فى محجريهما . ثم اخذه الفواق فاذا هو روسى مثل لتفينوف ، فقد صاح بالروسية فى حرارة : « آه ! ما كان يحب لى أن آكل الشمام ! » ولم يحدث فى المساء أيضا ما يعوض اليوم المفقود . وربح بنداسوف ، أمام عينى لتفينوف ، أربعة أضعاف ما اقترضه منه ، ولكنه — بدلا من أن يرد اليه دينه — حدق فى وجهه تحديقا فيه شيء من الوعيد ، كأنه مستعد لأن يقترض منه اكثر مما اقترض ، لا لشيء الا لأنه رآه يربح . وفى اليوم التالى غزاه مرة اخرى جحفل من مواطنيه . وتخلص لتفينوف منهم بصعوبة ، وانطلق الى الجبال .

التقى أولا بايرينا ، فتجاهلها ومر بها مسرعا . ثم التقى

بوتوجين . وكان موشكا ان يبدأه بالحديث ، لولا ان بوتوجين لم ينشط لاجابته ، وكان ممسكا بيد طفلة أنيقة الملبس . ذات خصل خفيفة ناعمة تكاد تكون بيضاء اللون ، وعينين سوداوين واسعتين، ووجه صفير مدنف ، عليه طابع الاصرار ونفاد الصبر الذى يتسم به الاطفال المدللون . وأمضى لتفينوف ساعتين فى الجبال . ثم سار فى طريق لختنتالر عائدا الى مسكنه ... واذا هو بسيدة جالسة على مقعد ، وعلى وجهها نقاب أزرق ، تنهض مسرعة وتقبل نحوه. وعرف فيها ايرينا .

قالت فى ذلك الصوت المضطرب الذى يدل على انفعال كظيم :

ــ لماذا تتجنبنى ياجريجورى ميهالتش ؟

فأجفل لتفينوف :

ــ أنا أتجنبك يا ايرينا بافلوفنا ؟

ــ أجل . انت ... انت ...

وكانت ايرينا تبدو ثائرة الى حد الغضب :

ــ أؤكد لك انك مخطئة .

ــ لا . لست مخطئة . أتظننى لم أعرف هذا الصباح ــ حين التقينا ــ انك عرفتنى، أم تريد أن تقول انك لم تعرفنى؟ أخبرنى!

ــ حقا ... يا ايرينا بافلوفنا ...

ــ جريجورى ميهالتش ! انت رجل صريح . لقد كنت صادقا معى دائما . اخبرنى . اخبرنى . ألم تعرفنى ؟ ألم تدر وجهك عامدا ؟

ونظر لتفينوف الى ايرينا . كانت عيناها تلمعان ببريق غريب ، بينما كان خداها وشفتاها شاحبة شحوب الموت تحت قناعها الكثيف . وكان فى تعبير وجهها ، وفى همسها المتقطع ، شىء حزين ضارع لا سبيل الى مقاومته ... فلم يستطع لتفينوف أن يمضى فى ادعائه . قال بجهد :

ــ نعم ... عرفتك .

ارتجفت ايرينا رجفة خفيفة ، وارخت ذراعيها ، وهمست :

ــ لماذا لم تأت الى ؟

ــ لماذا ؟ لماذا ؟

ومال لتفينوف الى جانب الطريق ، وتبعته ايرينا صامتة . وردد مرة اخرى « لماذا ! » واتقد وجهه فجأة ، وشد على قلبه وحلقه غضب مرير :

ــ أتسألين بعد كل ما حدث بيننا ! لا أعنى الآن بالطبع ، لا أعنى الآن ، بل هناك ... هناك ... فى موسكو .

وبدأت ايرينا تقول :

ــ ولـكننا اتفقنا ... لقد وعدتنى ...

ــ لم أعدك بشيء ! معذرة اذا تكلمت بخشونة ، فانك تريدين الحقيقة . احكمى أنت نفسك : كيف أفسر ... لست أدرى ماذا أسميه ! كيف أفسر الحاحك الا أن يكون لعبا لا أفهمه ، رغبة فى أن تختبرى مقدار سلطانك الباقى على؟ لقد سار كل منا فى طريق . لقد نسيت كل شيء . لقد قاسيت هذه المحنة كلها منذ عهد بعيد . لقد أصبحت رجلا آخر . وأنت متزوجة ، وسعيدة فى الظاهر على الأقل ، تشغلين مكانا مرموقا فى المجتمع ، فما الغاية وما الفائدة من لقائنا ؟ ما أنا عندك ؟ وما أنت عندى ؟ اننا لا نستطيع حتى أن نتفاهم الآن . لا شيء مشترك بيننا الآن ، لا من الماضى ولا من الحاضر ! وخصوصا ... وخصوصا الماضى !

قال لتفينوف هذا كله سريعا متقطعا ، لم يلتفت أثناء كلامه ، ولم تبد ايرينا حراكا ، الا أنها مدت يديها نحوه بضعف . كانت كأنها تضرع اليه أن يسكت ويستمع اليها ، ولـكنها عضت شفتها السفلى عضا خفيفا عندما سمعت كلماته الاخيرة ، وكأنها تريد أن تصمد لألم جرح حاد سريع .

وأخيرا بدأت تقول فى صوت أهدأ ، وهى تزداد ابتعادا عن الجادة حيث كان المارة يعبرون من حين الى حين :

ــ جريجورى ميهالتش !

وتبعها لتفينوف بدوره :

ــ جريجورى ميهالتش ! صدقنى ! اننى لو كنت أتوهم أن لى ذرة من السلطان عليك ، لـكنت أول من يتجنبك . فان كنت لم أصنع ذلك ، ان كنت قد جرؤت على أن أجـدد معرفتى بك ، رغم ... رغم الاساءة التى قدمتها اليك فى الماضى ، فما ذلك الا لأن ... لأن ...

فسأل لتفينوف بشيء من الفظاظة :

ــ لأن ماذا ...؟

فمضت ايرينا تقول بحدة مفاجئة :

ــ لأنى لم أعد أحتمل ، لأنى أختنق فى هذا « المجتمع » ، فى هـذه المـكانة المرموقة التى تتحدث عنها . لأنى اذ ألقـاك أجـد

رجلا حيا بعد كل هؤلاء الدمى — لقد رأيت نماذج منهم منذ ثلاثة أيام فى القلعة القديمة — فأسعد بك كأنك واحة فى الصحراء، بينما أنت تظننى أغازل، وتحتقرنى وتصدنى محتجا بأنى أسأت اليك! لقد أسأت اليك حقا، ولكنى أسأت الى نفسى اكثر، مما أسأت اليك!

فقال لتفينوف مرة أخرى، وبغير أن يلتفت أيضا:

— لقد اخترت مصيرك بنفسك يا ايرينا بافلوفنا.

فقالت ايرينا مسرعة، وكأنها تجد عزاء خفيفا فى خشونة لتفينوف:

— أجل، لقد اخترته بنفسى، وأنا لا أشكو، ولا يحق لى أن أشكو. أنا أعلم أنك لابد أن تظن بى السوء، ولن أبرىء نفسى. انى لا أريد الا أن أوضح لك احساسى. أريد أن أقنعك أنى لست بحيث أغازل الآن ... أنا أغازلك! كيف! ان هذا غير معقول! عندما رأيتك انبعث كل ما كان شابا ونبيلا فى ... ذلك الزمن حين لم أكن بعد قد اخترت مصيرى، كل ما فى تلك الفترة المشرقة التى اختفت وراء هذه الاعوام العشرة ...

— مهلا يا ايرينا بافلوفنا! ان مبلغ علمى ان اشراق حياتك يبدأ بالضبط منذ افترقنا ....

فوضعت ايرينا منديلها على شفتيها:

— ان ما تقوله شديد القسوة ياجريجورى ميهالتش، ولكنى لا أستطيع أن أحس حنقا عليك. كلا. لم يكن ذلك العهد مشرقا. اننى لم أرحل عن موسكو لأعدو سعيدة، بل لم أعرف لحظة واحدة من السعادة ... صدقنى، مهما قيل لك. لو كنت سعيدة لم حدثتك كما أحدثك الآن ... أؤكد لك أنك لا تدرى حقيقة هؤلاء الناس ... انهم لايفهمون شيئا ولا يعطفون على شىء. حتى الذكاء ليس عندهم (١) ni esprit ni intelligence لا شىء الا الـ faire savoit (٢). والخبث. وفى باطنهم لا يبالون بموسيقى ولا برسم ولا بشعر ... سوف تقول انى أنا أيضا لم أكن أبالى بشىء من ذلك، ولكن ليس الى هذه الدرجة ياجريجورى ميهالتش ... ليس الى هذه الدرجة! ان هذه التى تقف أمامك الآن ليست سيدة صالون، ما عليك الا أن تنظر لترى — ليست

---

(١) « لا روح ولا عقل ».
(٢) « المكر ».

« نجمة مجتمع » ــ أظنهم يلقبوننا بهــذا الاسم ــ لــكن مخلوقة مسكينة مسكينة ، تستحق الرثاء حقا . لا تعجب لــكلماتى ... فكبريائى لا تعنينى الآن ! انى أمد يدى اليك كشحاذة ... انى أسألك الصدقة ..

وأضافت باندفاع وقد عجزت عن كبح نفسها :

ــ انى أسألك الصدقة ، وأنت ...

وتهدج صوتها . ورفع لتفينوف رأسه ونظر الى ايرينا . كانت أنفاسها تتلاحق ، وشفتاها ترتعشان . ودق قلبــه سريعا وسكت عنه الغضب .

ومضت ايرينا تقول :

ــ تقول ان كلا منا سار فى طريق . وأعلم أنك على وشــك الزواج عن حب ، وأنك رسمت خطة حياتك . هذا كله صحيح . ولــكننا لم نصبح غريبين كلا عن الآخر ياجريجورى ميهالتش . ما زلنا نستطيع أن نتفاهم . أم تظن أنى تفهت تماما ، أنى غرقت فى الوحل الى أذنى ؟ كلا ! أرجوك ألا تظن هذا ! أرحنى قليلا من هذه الحياة ــ أضرع اليك بحق الايام القديمة نفسها ، ان كنت لا تريد أن تنساها . افعل هذا ، حتى لايمر لقاؤنا وكأنه ما كان فهذا مرير ، ولن يطول لقاؤنا على كل حال ... لست أدرى كيف أوضح ... ولــكنك ستفهمنى ، لأنى أريد شيئا قليلا ، شيئا قليلا جدا ... لا أريد غير قليل من العطف . أريد ألا تصــدنى وأن تدعنى أتنفس ...

وكف ايرينا عن الــكلام ، وكان صوتها دامعا . تنهدت ، ونظرت الى لتفينوف نظرة باحثة شبه مختلسة ، ومدت يدها اليه ...

فأخذ لتفينوف اليد وضغط عليها ضغطة خفيفة .

وهمست ايرينا :

ــ لنكن صديقين .

فردد لتفينوف حالما :

ــ صديقين .

ــ نعم صديقين . أما ان كان هــذا اسرافا فى الطلب ، فليكن بيننا على الاقل شىء من الود ... لنكن كأن لم يحدث بيننا شىء من قبل .

فردد لتفينوف مرة أخرى :

ــ كأن لم يحدث بيننا شىء من قبل ... لقد قلت يا ايرينــا

بافلوفنا منذ برهة انى لا أريد أن أنسى الايام الماضية ... فما قولك ان كنت لا أستطيع أن أنساها ؟

فعبرت وجه ايرينا بسمة سعادة اختفت على الفور ، وتلاها تعبير من الألم يوشك أن يكون رعبا .

— كن مثلي ياجريجورى ميهالتش. تذكر أطيب منها . وعدنى قبل كل شيء ... عدنى بشرفك ...

— ماذا ؟

— ألا تتجنبنى . ألا تؤذينى من غير داع . أتعد ؟ قل !

— نعم .

— وستبعد من عقلك كل فكرة سيئة عنى ؟

— نعم ... أما فهمك — فلن أحاوله .

— لا ضرورة لذلك... على أنك بعد قليل ستفهم . أتعد ؟

— لقد وعدتك فعلا .

— شكرا . لقد اعتدت أن أصدقك . سننتظرك اليوم وغدا . لن أخرج من المنزل . والآن يجب أن أتركك . ان عظمة الدوقة مقبلة على الطريق ... لقد لمحتنى . ولابد ان أذهب لأكلمها ... وداعا حتى نلتقى ... هات يدك ! Vite, vite (١) . الى اللقاء .

وبعد أن ضغطت ايرينا على يد لتفينوف بحرارة . سارت نحو سيدة وقور في منتصف العمر . تتهادى على الممر المغطى بالحصباء ؛ وفى صحبتها سيدتان أخريان وخادم جليل المنظر فى بزة رسمية .

قالت السيدة عندما انحنت ايرينا باحترام :

(٢) Eh bonjour, chére Madame. Comment allez-vous aujourd hui? Venez un peu avec moi.

فسمع صوت ايرينا يجيبها متملقا :

— Votre altesse a trop de bonté. (٣)

---

(١) « أسرع ، أسرع ! » .

(٢) « صباح الخير يا سيدتى العزيزة . كيف أنت اليوم ؟ تعالى معى قليلا » .

(٣) « هذا عطف كبير من عظمتك » .

انتظر لتفينوف حتى غابت الدوقة وحاشيتها عن نظره ، ثم سار منحدرا فى الطريق هو أيضا ، ولم يستطع أن يتبين مشاعره ، فقد كان خجلا بل خائفا ، وكان يحس مع ذلك زهوا ... لقد أخذه حديث ايرينا على غرة ، وغرق من كلماتها السريعة المندفعة فى سيل عاصف ، وقال لنفسه : ما أعجب نساء المجتمع هؤلاء ! متقلبات ... ما أشد ما تفسد عن البيئة التى يعشن فيها ، والتى يشعرن هن أنفسهن بفظاعتها !.. وكان فى الحقيقة لا يفكر فى شيء من ذلك ، ولكنه كان يكرر هذه العبارات المحفوظة تكرارا آليا ، وكأنه يريد أن يدفع عن نفسه أفكارا أخرى أشد ايلاما . أحس أنه يجب ألا يفكر الآن بجد فيندم ، فجعل يمشى بخطى متثاقلة ، يكاد يضطر نفسه الى الانتباه لكل ما يصادفه ... وفجأة رأى نفسه أمام مقعد ، ولمح أمامه قدمين ، فصعد بصره فوجدهما لرجل جالس على المقعد يقرأ صحيفة . ووجد ذلك الرجل بوتوجين . وبدرت من لتفينوف نبرة تعجب خافتة . فألقى بوتوجين الصحيفة على ركبتيه ونظر الى لتفينوف بانتباه وبغير أن يبتسم ، ونظر لتفينوف اليه أيضا بانتباه وبغير أن يبتسم .

وسأل أخيرا :

— اتسمح لى أن أجلس بجانبك ؟

— بكل سرور . ولكنى أرجو ألا تغضب منى اذا حدثتنى ، فانى اليوم منقبض المزاج ، ساخط على البشرية ، يبدو لى كل شيء فى أسوأ صورة .

فأجاب لتفينوف وهو يهبط على مقعده :

— هذا حسن ياسوزونت ايفاتش . الواقع أن هذا المزاج يناسبنى جدا . ولكن ما الذى أوصلك اليه ؟

فأخذ بوتوجين يقول :

— فى الحقيقة يجب الا أسخط . فقد قرأت فى الصحيفة منذ برهة مشروعا لاصلاح المحاكم فى روسيا . وقد سررت جدا لأن

قادتنا سلكوا السبيل الصحيح أخيرا . فأبوا ان يضيفوا الى المنطق الاوربى الواضح المستقيم ذيلا من عندياتنا ، متعللين بالاصالة أو الوطنية ، بل أخذوا شيئا طيبا بكل حذافيره ، وان كان أجنبيا . يكفى أننا تسامحنا فى موضوع الاراضى الزراعية ، فليس من السهل أن تلغى الملكية المشاعية ! أجل ، أجل ، لا يحق لى أن أسخط . ولكننى وقعت لسوء حظى على أحد « ذوى المواهب الفطرية » وتحدثت معه ، ويا ويلى من ذوى المواهب الفطرية هؤلاء ، الذين علموا أنفسهم ! انهم سيجعلوننى أتململ فى قبرى !

فسأل لتفينوف :

ــ من تعنى ؟

ــ أوه ! هنا رجل يتسكع ويتوهم أنه موسيقى عبقرى . يقول لك : طبعا أنا لست شيئا ، أنا صفر ، لأنى لم أتعلم ، ولكن فى راسى أنغاما وأفكارا أكثر مما عند مايربير . وأنا أقول : أولا ، لماذا لم تتعلم ؟ وثانيا : دعنا من مايربير ، ان أحقر نافخ ناى ألمانى ، يؤدى دوره فى أحقر أوركسترا ألمانية ، لديه من الافكار أكثر عشرين مرة مما لدى « ذوى المواهب الفطرية » مجتمعين . الا أن عازف الناى يحتفظ بأفكاره لنفسه ، ولا يهلل لها فى بلاد مليئة بأمثال موزار وهايدن ، أما صاحبنا الموهبة الفطرية فما ان يعزف فالسا أو أغنية عزفا مخلخلا حتى يضع يديه فى جيبى بنطلونه وبسمة ازدراء على شفتيه ــ انه عبقرى ! وهكذا الحال فى الرسم وفى كل شىء آخر . آه من هذه المواهب الفطرية ! كم أبغضهم ! كأن الناس جميعا لايعلمون أن هــــذه الهوشة الفنية والعلمية لا توجد الا حيث لا فن حقيقى أصيل ولا علم حقيقى عميق الجذور . لقد حان الوقت لنطرح هذا التهويش ، بل هذا الهراء السخيف ، مع تلك العبارات المجوجة من مثل قولهم : لا أحد يموت جوعا فى روسيا ... السفر البحرى فى روسيا أسرع منه فى أى بلد آخر ... نحن الروس لا أحد يستطيع أن يغلبنا ... انى أسمع دائما عن غنى الفطرة الروسية ، وعن غريزة الروس التى لا تخطىء ، وعن كوليبين ... ولكن ما هذه الفطرة الفنية ياسادة ؟ انها ككلام النائم ، أو كحكمة الحيوان . الغريزة ! أى فخر ! خذ نحلة فى الغابة وضعها على مســافة ميــل من بيتها ، فستهتدى اليه . ان الانسان لايستطيع أن يصنع شيئا كهذا ، ولكن هل تقول انه أحقر من النحلة؟ ان الغريزة لاتليق بالانسان ،

ولو أصابت دائما . العقل ، العقل السليم البسيط المستقيم ، هذا هو تراثنا وفخارنا . ان العقل لايأتى بمثل هذه الغرائب ولكنه عماد كل شيء . أما كوليبين الذى توصل الى صنع ساعات بالغة الرداءة دون أن يعلم شيئا عن الميكانيكا ، فأعتقد أن ساعاته يجب أن تعرض على الملأ مع هذه العبارة : أنظروا ! هكذا يجب ألا تصنع الساعات . ليس لأحد أن يلوم كوليبين نفسه ، ولكن عمله لاخير فيه . ولا بأس بأن نعجب بجراة تيلوشكين وبراعته اذ تسلق برج وزارة البحرية . ولكن لا حاجة بنا أن نصيح بأنه أظهر جهل المهندسين الالمان ، وأن كل ما يعملونه هو سرقة أموالنا ... فانه لم يظهر جهلهم مطلقا ، لأنه البرج احتاج الى اصلاح فلم يكن بد من رفع سقالة حوله وترميمه بالطريقة المعروفة . بالله لا تشجعوا قولهم فى روسيا ان كل شيء يمكن عمله بلا تعلم ! كلا . قد يكون لك عقل سليم ، ولكنك يجب أن تدرس ، وأن تبدأ من ألف باء . والا فألجم لسانك واصمت وتواضع ! أف ! ان هذا يجعلنى أغلى ! ونزع بوتوجين قبعته وجعل يروح عن نفسه بمنديله . ثم عاد يقول :

ــ الفن الروسى ! الفن الروسى حقا !.. اننى أعرف الغرور الروسى ، والعجز الروسى ، أما الفن الروسى فاسمح لى أن أقول لك انى لم أعثر عليه قط . لقد مكثوا عشرين سنة يمجدون ذلك النكرة الهزيل بريولوف ، ويتوهمون أننا أنشأنا مدرسة فى التصوير خاصة بنا ، بل أن هذه المدرسة لا تقاس بها جميع المدارس الاخرى ... الفن الروسى ! ها ها ها ! هو هو هو !

فعقب لتفينوف :

ــ معذرة ياسوزونت ايفانتش . أتأبى الاعتراف بفضل جلنكا أيضا ؟

ــ ان الشاذ كما تعلم يثبت القاعدة . على أننا لا نستغنى عن التنفج حتى فى أمر جلنكا . ولو قلنا مثلا أن جلنكا موسيقار ممتاز حقا ، وانه لولا ظروف خارجة عنه وأخرى خاصة به لكان منشىء الاوبرا الروسية ، لو قلنا ذلك لما جادلنا فيه أحد . ولكن لا ! اننا لايمكن أن نكتفى بهذا . بل يجب أن نرفعه فورا الى رتبة القائد الأعلى فى الموسيقى . يجب أن نلزم الشعوب الاخرى حدها ، فليس عندهم من يضارعه . وسيؤيدنا فى ذلك عبقرى وطنى عجيب لا تعدو ألحانه الكبرى أن تكون تقليدا للموسيقيين الاجانب من

الطبقة الثانية لأن تقليدهم أسهل . ليس عندهم من يضارعه ! حقا ! يالـكم من برابرة بلهاء مساكين لايقدرون الفن ، بل يرون الفنانين أشبه شيء ببطلنا رابو ! فهم يقولون ان العملاق الاجنبي يستطيع أن يرفع مائة رطل بيد واحدة ، أما رجلنا فيستطيع أن يرفع أربعمائة ! ليس عندهم من يضارعه ! انى أخبرك بشيء أذكره ولا أستطيع نسيانه : فى الربيع الماضى زرت قصر البلور قرب لندن ، وفى ذلك القصر كما تعلم شبه معرض لـكل ما ابتـكرته عبقرية الانسان ، أو ان شئت دائرة معارف للانسانية . جعلت أسير ذهابا وجيئة بين المكنات والآلات وتماثيل عظماء الرجال ، وقلت لنفسى : لو حكم بأن الأمة التى تختفى عن وجه الارض يختفى معها كل ما لها فى قصر البلور من مخترعات لـكان لأمنا روسيا المقدسة أن تختبىء فى أعماق الارض بغير أن ينقل مسمار واحد من المكان . كل شيء يمكنه أن يستقر حيث هو . حتى السماور وأحذية الليف والشكيمة والسوط ـ منتجاتنا الشهيرة ـ لسنا نحن مخترعيها . ولـكنك لا تستطيع أن تجرى هذه التجربة حتى مع سكان جزر ساندوتش ، فهؤلاء الجزريون قد صنعوا قوارب ومزاريق خاصة بهم ، فسوف يلاحظ زوار المعرض غيابهم . انها معرة ! لعلك تقول ان هـذه قسوة . ولكنى أجيبك أولا أنى لا أستطيع أن أهدل مثل الحمام وأنا أنظر الى هـذه العيوب ، وثانيا أن الشيطان ليس هو وحده الذى يخاف المرء أن ينظر الى وجهه ، فما من أحد يجرؤ أن ينظر الى نفسه ، ولا الاطفال وحدهم هم الذين يهدهدون حتى يناموا . لقد جاءتنا مخترعاتنا القديمة من الشرق ، واستعرنا مخترعاتنا الحديثة من الغرب ، وكدنا نفسدها بينما نصر على الحديث عن استقلال الفن الروسى . بل لقد اكتشف بعض الاجرياء علما روسيا أصيلا . ان اثنين فى اثنين تساوى أربعة عندنا كما هىَ عند سوانا ، لكن يظهر أننا وصلنا الى هذه النتيجة ببراعة أعظم !

فصاح لتفينوف :

ـ ولـكن مهلا ياسوزونت ايفانتش ! أرجو أن تنتظر دقيقة ! فأنت تعلم أننا نرسل بعض الاشياء الى المعارض العالمية . كما أن أوربا تستورد منا أشياء .

ـ نعم . الخامات . ولا تنس ياسيدى العزيز أن خاماتنا الجيدة يرجع الفضل فى جودتها الى أشياء أخرى رديئة . فالشعر الذى

نصدره مثلا كبير وقوى لأن خنـــــازيرنا هزيلة . والجلود قوية وسميكة لأن أبقـــارنا نحيلة ، والشحم دسم لأنه أغلى مع نصف اللحم ... ولـكن لماذا أطيل عليك فى هذا الـكلام ؟ لقـد درست التكنولوجيا ، ولاريب أنك تعرف هذا كله خيرا منى. انهم يحدثوننى عن قدرتنا على الابتكار ! قدرة الروس على الابتكار ! هؤلاء فلاحونا يشكون مر الشكوى ويعانون الخسائر الفادحة لأنهم لا يجدون آلة صالحة لتجفيف القمح ، تغنيهم عن وضع حزمهم فى حجرة الفرن كما كانوا يفعلون أيام روريك . ان هذه الافران عظيمة الضرر ـ مثلها فى ذلك مثل أحذية الليف والحصر الروسيـــة ـ وكثيرا ما تسبب الحرائق . والفلاحون يشكون ، وليس هناك ما يبشر بآلة تجفيف لم لا تظهر آلات التجفيف ؟ لأن الفلاح الالمانى لا يحتاج اليها . لأنه يستطيع أن يدرس قمحه كما هو ، فلا حاجة به الى اختراع مثل هذه الآلة . ونحن ... نحن لانستطيع أن نخترعها مهما نحاول . سأقول منذ اليوم كلما قابلت أحد هـذه المواهب الفطرية ، هؤلاء العباقرة الذين علموا أنفسهم بأنفسهم : « مهـلا ياصديقى الفاضل ! أين آلة التجفيف ، نريد أن نراها ! » ولكن أنى لهم هذا ! اننا قادرون أن نلتقط حذاء اطرحه سان سيمون أوفوربيه (١) منذ أجيال ، فنضعه فوق رءوســــــنا ونعده أثرا مقدســـا ، وقادرون على أن نلفق مقـــالا عن الدور الذى لعبتـــه البروليتاريا فى مدن فرنسا الـكبرى قديما وحديثا ، ولكنى سألت مرة كاتبا وعالما اقتصاديا من هذا النوع ـ أشبه بصديقك السيد فوروشيلوف ـ أن يسمى عشرين مدينة فى فرنســـا ، فماذا تظنه فعل ؟ لقد ألجأه اليأس الى ذكر مونت فرمى على أنها مدينـــة فرنسية ، ولعله تذكرها من قصة لبول دى كوك . وهذا يذكرنى بقصة حدثت لى . كنت أجوس ذات يوم خـــلال غابة ومعى كلب وبندقية ...

فسأل لتفينوف :

ــ ألأنت من هواة الصيد ؟

ــ اننى أخرج للصيد أحيانا . فذات يوم كنت أبحث عن مستنقع ـ أطنب لى هواة الصيد فى وصفه ـ لاصطياد الشناقب ، وبينما كنت مارا فى فرحة من الغابة رأيت شابا ظريفا جالسا أمام كوخ

(١) فيلسوفان اشتراكيان فرنسيان ، من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

احد تجار الخشب – ولابد أنه كان كاتب حساباته – وكان يبتسم لسبب لم أعلمه . فسألته : أين المستنقع ، وهل فيه كثير من الشناقب ؟ فانطلق مرحبا وقد بدا عليه السرور كأنى منحته روبلا : « أى خدمة . المستنقع من الطراز الاول ، أما الطيور البرية بأنواعها . ياسلام ! انها كما تريد كثرة » . فانطلقت ، غير أنى لم أجد شيئا من الطيور البرية . وكان المستنقع نفسه جافا منذ زمن طويل . خبرني الآن بربك : لماذا كان الروسي كذابا ؟ لماذا يكذب عالم الاقتصاد ، ولماذا الكذب على الطيور البرية أيضا ؟

فلم يجب لتفينوف ، بل تنهد موافقا ، واستمر بوتوجين فى حديثه :

– أما اذا حدثت هذا الاقتصادى نفسه عن أدق مشاكل علم الاجتماع ، دون أن تتجاوز حدود النظرية ، أو تتناول الحقائق ، فانه يحلق كالطائر بل كالنسر . على أنى نجحت مرة فى اقتناص أحد هذه الطيور . وكان الفخ الذى استعملته فخا بديعا ، وان يكن ظاهرا ، كما سترى . كنت أتحدث مع واحد من شبابنا المتحرر فى مختلف « المشاكل » كما يقولون ، فتحمس كعادتهم دائما ، وانطلق يهاجم فى حرارة صبيانية حقة ، وكان من بين ما هاجمه نظام الزواج . وأوردت عليه الحجة بعد الحجة ... فكأنى أحدث جدارا . ورأيت أنى لن أغلبه بهذه الوسيلة ، فخطرت لى فكرة موفقة ! قلت له : « اسمح لى بملاحظة ياسيدى – ولابد أن تكون رسميا دائما حين تكلم هؤلاء الشباب المتحررين – انى لأعجب منك حقا ، فأنت تدرس العلوم الطبيعية ، ومع ذلك غاب عنك أن جميع الحيوانات الجارحة وآكلة اللحوم ، سواء أكانت وحوشا أم طيورا ، لابد لها أن تخرج باحثة عن الفريسة وأن تجتهد فى الحصول على طعام حيوانى لها ولأولادها ... أظنك تعد الانسان من جنس هذه الحيوانات ؟ » فقال « الشاب المتحرر » : « أجل انى أعد الانسان من جنسها . ليس الانسان الا آكل لحم . » فزدت : «وجارحا ؟» فصرح : « وجارحا . » قلت : « حسنا . فكيف اذن لم تلاحظ أن هذه الحيوانات تعيش أزواجا ؟» فانتفض «الشاب المتحرر» : « كيف هذا ؟ » قلت : « هو هذا . انظر الى الأسد ، والذئب ، والثعلب ، والنسر ، والصقر ... الواقع أنها لايمكن أن تكون غير ذلك . فبالكاد يستطيع الأبوان أن يعولا صغارهما . » ففكر الشاب ثم قال : « حسنا . يجب اذن الا نقيس الانسان على الحيوان . » وهنا قلت له انه مثالى ، ففزع وكاد يبكي . واضطررت

أن أطمئنه بان وعدته ألا أخبر أصـــدقاءه . فليس من الهين أن يستحق المرء أن يدعىمثاليا ! ولـكنأهم نقطة يضل عندها شبابنا هي أنهم ينوهمونأنالعمل السرى المتواضع القديم قد مضىأوانه ، وان آباءهم الشيوخ لم يكن أمامهم الا أن يحفروا فى باطن الارض كالخلد ، اما هم فلا يليق بهم مثل هـذا العمل ، فهم يقولون : سنعمل فى وضح النهار! سننزل الميدان ! يا أصدقائى المساكينحتى أبناؤكم لن ينزلوا الى الميدان ، فلماذا لا ترجعون الى الحفر فى بطن الارض لتواصلوا عمل الأسلاف ؟

وساد صمت قصير ، ثم عاد بوتوجين يقول :

ـ أعتقد ياسيدى إلعزيز أننا لسنا مدينين للمدنية بالعلم والفن والقانون فحسب ، بل أن الاحساس بالجمال والشعر يتطور أيضا ويقوى بتأثير تلك المدنيـه نفسها ، وأن ما يسمى بالخلق الفطرى الشعبى أن هو الا سخف وهذيان . حتى هوميروس نجد فيه آثار مدنية رافهة منوعة ، وحتى الحب يزداد بالمدنية غنى وعمقا . لو لم يكن السلافوفيل أناسا طيبى القلوب لشنقونى على هذا الكفر ، ولـكنى لن أغير رأيى ، ومهما يقـدموا لى من مدام كوهانوفسكى و « عش النحل » فانى لا أستطيع أن أحتمل رائحة مايسمونه الـ Triple extrait de moujik Russe (١) ، لأنى لست من الطبقة الراقية التى تحتاج أن تطمئن نفسها من حين الى حين الى أنها لم تعد فرنسية خالصة ، والتى لم يصـنع ذلك الادب En cuir de Russie (٢) الا لفائدتها . حاول أن تقرأ أمتع وأذيع القطع من « العش » على فلاح حقيقى ، فسيظن أنك تقرأ عليه تعويذة تدفع شر الحمى أو تذهب داء السكر ، أعود فأقول : انه بغير المدنية لا يوجد شىء حتى ولا الشعر . واذا أردت أن تظفر بفكرة واضحة عن المثل الاعلى الشعرى للروسى غيرالمتمدن فارجع الى أغانينا وأساطيرنا . لن أطيل القول فى أن الحب يصور كأنه نتيجة للأشربة السحرية والتعـــاويذ ، وأنه يسمى كهانة و « عملا » ، ولا فى أن ما يسمى بأدب الملاحم عندنا هو الادب الوحيد فى الشرق والغرب ـ الادب الوحيد ـ الذى لم يصور قط حبيبين نموذجيين ، الا اذا كنت تصد فانكا وتانكا (٣) من هـذا

---

(١) « روح الفلاح الروسى » .
(٢) « ذو الجلد الروسى » .
(٣) اشارة الى أغنية شعبية .

الطراز ، ولا فى أن فارس روسـيا المقدسة انما يبـدأ معرفتـه بعروسه المقبلة بأن يضربها على جسمها الابيض «بسوطه المجدول» ، « لأنه يجعل جنس النساء لينات كالحرير » . سأترك هذا كله ، لأنبهك الى الصورة الفنية للبطل الشاب ، « للجان بروميبه » كما رسمه خيال الصقلبى الساذج غير المتمدن . انظر اليه . ها هو « الجان بروميبه » مقبلا ، « عليه معطف من السنجاب صـنعه لنفسه ، وأتقن خياطته ، وألحم غرزه وحزام من سبعة أدرج من الحرير عقده بأناقة على صدره ، وأصابعه مختفية فى كميه الطويلين الجميلين، وياقته مرفوعة فوق رأسه تحجب وجهه المشرب بحمرة ، وكذلك رقبته الطويلة البيضاء وقد أمال قبعته الصغيرة على جنب ، ولبس فى قدميه حذاء من الجلد البـديع ، له طرفان مدببـان مقوسان وكعبان عاليان ، بحيث يمكنك أن تدير بيضة حول الطرفين ويمكن أن يطير عصفور بين الـكعب والنعل . » وهـذا الشـاب الجميـل يمشى بخطوات قصـيرة سريعـة مثـل الـكيبيادنا (١) ـ تشوريلو بلنكوفتش ـ الذى كان لمشيته المتصنعة تأثير عجيب أشبه بالدواء فى قلوب العجائز والفتيات . وما زال ندل الفنادق عندنا يمشون هذه المشية ، فيخيل أليك حين يثبون بخطا صغيرة أن كل مفاصلهم محلولة . وهذه المشية هى زبدة الفندرة الروسية وزهرتها ، وغاية ما يتمناه الذوق الروسى . أنا لا أهزل . جمـال الزكائب هذا مثل فنى . ما رأيك فى هذا النموذج ؟ أتراه نموذجا طيبا ؟ أتراه يقـدم مادة جيدة للرسم والنحت ؟ وتلك الحسناء التى تخلب لب البطل الشاب ، ذات « الوجه الاحمر كدم الارنب»؟ أظنك غير مصغ الى .

وانتبه لتفينوف ، فانه لم يسمع فى الحقيقة ما قاله بوتوجين . لقد كان يفكر تفكيرا مستمرا ملحا فى ايرينا ، وفى لقائه الاخير بها.

وبدأ يقول :

ـ معذرة ياسوزونت ايفانتش ، ولـكنى سأتطفل عليـك مرة أخرى بسؤالى السابق عن ... عن مدام راتميروف .

فطوى بوتوجين صحيفته ووضعها فى جيبه .

ـ اتريد أن تعلم مرة أخرى كيف عرفتها ؟

(١) الكيبيادس قائد أثينى (٤٥٠ ـ ٤٠٤ ق ٠ م) اشتهر بجماله وثرائه وذكائه المفرط ، وقدرته الحربية النادرة ، ولكنه لم يكن يثبت على مبدأ ، وكان شديد لمجا مع هواه ، فلم يطمئن اليه الايكتيون وانتهت حياته بالقتل ٠

ـ لا . ليس هذا ما أعنيه بالضبط . انى أود أن أسمع رأيك .. فى الدور الذى كانت تلعبه فى بطرسبرج . ماذا كان ذلك الدور فى الحقيقة ؟

ـ لا أدرى ماذا أقول لك ياجريجورى ميهالتش . لقد اتصلت بمدام راتميروف اتصالا وثيقا ... غير أن ذلك الاتصال كان مصادفة محضة ، ولم يدم طويلا . ولم أطلع قط على عالمها ، بل ظل ما يحدث فيه مجهولا لدى . وقد سمعت شيئا من القيل والقال ، ولكن الغيبة عندنا ـ كما تعلم ـ لاتسود الاوساط الديموقراطية وحدها . ثم انى لم أكن أسأل . وأضاف بعد صمت قصير :

ـ ولكنى أراك مهتما بها .

ـ نعم . لقد تحدثت معها مرتين بكثير من الصراحة الا أنى لا أزال اتساءل : أهى صادقة ؟ فخفض بوتوجين بصره :

ـ انها ككل امرأة عاطفية ، تصدق حين يغلبها وجدانها . ثم أن الكبرياء كثيرا ما تمنعها من الكذب .

ـ أهى متكبرة ؟ أغلب ظنى انها عنيدة .

ـ بل متكبرة كالشيطان . ولكن هذا لا يعيبها .

ـ يخيل الى أنها تبالغ أحيانا ...

ـ ليس هذا بشىء أيضا . انها صادقة مع ذلك . وبعد فأين تجد الحرص على الحقيقة ؟ ان خير نساء المجتمع هؤلاء عفنات حتى نخاع عظامهن .

ـ ألا تذكر ياسوزونت ايفانتش أنك سميت نفسك صديقها ؟ ألم تجبرنى اجبارا على زيارتها !

ـ وماذا فى ذلك ؟ لقد سألتنى أن أجىء بك . فلم أر بأسا بذلك . ثم انى صديقها حقا . انها لا تخلو من خير ، فهى كريمة ، أعنى انها تسخو على غيرها بما لا تحتاج هى اليه . ولكنك بلا ريب تعرفها قدر ما أعرفها على الاقل .

ـ كنت أعرف ايرينا بافلوفنا منذ عشر سنين . ولكن منذ ذلك الحين ...

ـ آه ! ماذا تقول ياجريجورى ميهالتش ، أتظن أن أخلاق الانسان تتغير ؟ كما يكون المرء فى المهد يكون فى اللحد . أم لعلك (وهنا بالغ لتفينوف خفض رأسه) ... أم لعلك خائف أن تقع فى شباكها ؟ لاشك أن هذا ... ولكن المرء لابد له بطبيعة الحال أن يقع فى شباك امرأة ما .

— فضحك لتفينوف ضحكة مغتصبة :
— أتظن ذلك ؟
— لا مفر من هذا . الرجل ضعيف ، والمرأة قوية ، والمصادقة قادرة على كل شيء ، واحتمال حياة لا مسرة بها أمر عسير ، وسيان المرء نفسه جد مستحيل ... وفى أحد الجانبين الجمال والعطف والدفء والنور ، فكيف يستطيع المرء أن يقاوم ؟ ان المرء ليسرع اليها كما يسرع الطفل الى حاضنته . حقا انه يجيء بعد ذلك البرد والظلام والفراغ ... فى دورها الطبيعى . وينتهى الأمر بأن تصبح غريبا عن كل شيء . فى أول الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تحب ، وفى آخر الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تعيش .

نظر لتفينوف الى بوتوجين ، وراعه أنه لم ير من قبل رجلا يشبهه فى وحدته ووحشته ... وشقائه . فى هذه المرة لم يكن خجولا ولا جامدا ، بل كان يجلس مطأطىء الرأس شاحبا ، ورأسه على صدره ، ويداه على ركبتيه ، وهو لايتحرك بل يبتسم ابتسامته الحزينة. وأحس لتفينوف بالأسى لذلك الرجل السوادوى الغريب .

بدا لتفينوف يقول بصوت خفيض :
— لقد ذكرت ايرينا بافلوفنا فى أثناء حديثها صديقة حميمة لها ، أظنها — ان لم تخنى الذاكرة — تسمى بيلسكى .. أو دولسكى.

فرفع بوتوجين عينيه الصغيرتين الحزينتين ونظر الى لتفينوف. ثم عقب متثاقلا :
— آه ! لقد ذكرت ... حسنا ، وماذا عنها ؟
ثم أضاف وهو يتصنع التثاؤب :
— آن أن أعود الى مسكنى للعشاء . فى أمان الله .

وترك المقعد فجأة ومضى قبل أن يستطيع لتفينوف النطق بكلمة. فاستحال عطفه سخطا ، سخطا على نفسه طبعا ، فما كان التطفل من أخلاقه ، ولكنه أراد أن يعبر عن عطفه نحو بوتوجين ، فاذا به يلمزه لمزا غير رقيق . فعاد الى فندقه معذب الضمير .

وبعد قليل كان يقول لنفسه : « عفنة حتى نخاع عظامها ... ولكنها متكبرة كالشيطان ! هى — تلك المرأة التى تكاد تركع أمامى — متكبرة وليست عنيدة ؟ »

وحاول أن يطرد من رأسه صورة ايرينا فلم يفلح . ولهذا السبب نفسه تعمد الا يفكر فى خطيبته . فقد شعر أن تلك

الصورة التى سكنت مخيلته لن تزول منها اليوم . فعزم على أن ينتظر انجلاء هذا « الأمر الغريب » دون أن يزيد نفسه قلقا .

لم يكن هذا الجلاء ليتأخر طويلا ، ولم يدرك لتفينوف أدنى شك فى أنه سيأتى بلا عناء ولا افتسار . هكذا كان يحدث نفسه ، بينما ظلت صورة ايرينا ماثلة أمامه ، وكل كلمة قالتها تعود – فى دورها – الى ذاكرته .

وأحضر اليه خادم الفندق بطاقة ، وكانت هى أيضا من ايرينا :

« ان لم يكن لديك ما تعمله هذا المساء فأرجو أن تأتى . لن أكون وحيدة . سيكون لدى ضيوف . وستنظر من قرب الى أصحابنا ، الى مجتمعنا . انى شديدة الرغبة فى أن تطلع عليهم ، وأتوقع أنهم سيظهرون بكامل روعتهم . يجب أن تعلم أى جو ذلك الذى أتنفس فيه . تعال . ستسعدنى رؤيتك ، أما أنت فلن تشعر بالضجر (أخطأت ايرينا فى كتابة هذه الكلمة الروسية الاخيرة) . أثبت لى أن حديثنا اليوم قد جعل كل خصام بيننا مستحيلا الى الأبد . المخلصة . ا . »

لبس لتفينوف سترة سهرة ورباط عنق أبيض ، وانطلق الى مسكن ايرينا . وكان يردد فى نفسه وهو ذاهب : « لا ضرر... النظر اليهم ... لماذا لا أنظر اليهم مرة ؟ انه مشهد مسل . » مع أن هؤلاء الناس انفسهم أثاروا فيه منذ أيام قلائل شعورا آخر ، لقد أثاروا فيه السخط والكراهية .

سار بخطا حثيثة وقد أنزل قبعته على عينيه ، واغتصب ابتسامة على شفتيه ، بينما كان بمبايف جالسا أمام ندى فيبر يشير اليه من بعيد ليراه فوروشيلوف وبشتشالكن ، ويصيح بحماسة : « أترون هذا الرجل ؟ انه حجر ! انه صخر ! انه صوان ! »

وجد لتفينوف عند ايرينا ضيوفا غير قليلين . فكان ثلاثة من الجنرالات الذين رآهم يوم النزهة ، وهم الجنرال السمين، والجنرال الحنق ، والجنرال المتسامح جالسين الى منضدة للعب الورق فى أحد الاركان ، يلعبون « البشكة » . وليس فى لغة الانسان كلمات تعبر عن وقارهم وهم يرمون الورق ، ويدبرون الخطط ، ويؤلفون بين البسطونى والكومى ... لاشك الآن فى كونهم من رجال الدولة! فهم يتركون للعوام — البورجوا — تلك العبارات والاشارات الصغيرة التى تتردد عادة فى أثناء اللعب ، ولا ينطقون الا بما لا غنى عنه من المقاطع ، وان أباح الجنرال السمين لنفسه أن يقول بحرارة بين رميتين : ce satané a de pique (١) وعرف لتفينوف من بين الزوار سيدات كن فى النزهة ، ولكن كان هناك أيضا سيدات أخريات لم يرهن من قبل . وكانت احداهن عريقة فى القدم حتى لتبدو كل لحظة وكأنها توشك أن تتداعى . وكانت تهز كتفيها العاريتين السمراوين القاتمتين المخيفتين ، وتحجب فمها بمروحتها ، وترمق راتميروف بعينيها اللتين تماثلان عيون الموتى. وعنى بها راتميروف عناية كبيرة ، فقد كانت ذات مكانة عظيمة فى المجتمع الراقى ، لأنها آخر من بقى من وصيفات الشرف للامبراطورة كاترين . وكانت الكونتس « س » ملكة الضباب تجلس عند النافذة متنكرة فى زى راعية ، وقد أحاط بها الشبان . وكان المليونير الشهير فينيكوف الجميل ظاهرا بينهم بمسلكه المترفع ، وجمجمته المسطحة ، وتعبير وجهه الوحشى الذى لايرحم ، كأنه وجه خان من بخارى أو هليوجابال من روما (٢) . وكانت سيدة أخرى — هى أيضا كونته ، وتعرف تدليلا باسم «ليز» — تتحدث الى محضر أرواح شاحب أشقر الشعر مرسله ، وقد وقف بجانبهما سيد شاحب مرسل الشعر أيضا ، لايزال يضحك ضحك

(١) « هذا الشيطان معه الاسباتى ! » .
(٢) امبراطور رومانى ، حكم من ٢١٨ الى ٢٢٢ ، كان مشهورا بجماله وقسوته وعهره

من يعنى شيئا ما . وكان هذا السيد أيضا يؤمن بمخاطبة الارواح ، ولـكنه جمع الى ذلك هواية التنبؤ ، فكان يستخرج من التلمود ورسائل القديس يوحنا نبوءات شتى عن أحداث عجيبـة . ولم يتحقق حدث واحد من هذه الأحداث ، ولـكن هذه الحقيقة ما كانت لتزعجه قط ، بل ظل مثابرا على تنبؤاته . وكان الموسيقى العبقرى صـاحب المواهب الفطرية ، الذى أثار فى بوتوجين ذلك الحنق الشديد ، جالسا الى البيان يضرب على أوتاره بغير اعتناء d'une main distraite (١) وهو يديم التحديق فيما حوله تحديقا زائغا مبهما .

وكانت ايرينا جالسة على أريكة بين الأمير كوكو ومدام س ، وهى سيدة اشتهرت قديما بجمالها البارع وفكاهتها الحـاضرة ، واستحالت منذ أزمان الى كمأة ذابلة تفوح منها رائحة زيت الصيام وبخار السم . وحين وقع نظر ايرينا على لتفينوف احمر وجهها ونهضت من مقعـــدها ، وأقبل عليها فصافحته بحرارة ، وكانت تلبس ثوبا من الحرير الرقيق الاسود يزينه وشى ذهبى لا يـكاد يلحظ ، وكانت كتفاها بيضـاوين كاللؤلؤ ، أما وجهها الذى بدا شاحبا تحت فيض حمرته الوقتية فكان يتألق بزهو الجمال ، بل بأكثر من الجمال . كان سرور خفى — يكاد يكون ساخرا — يلمع فى عينيها المسبلتين ، ويرتعش حول شفتيها ومارنها .

تقدم راتميروف من لتفينوف ، وبعد أن تبادل واياه التحيات المألوفة ، دون أن يصحبها بتدلله المألوف ، قدمه الى سيدتين أو ثلاث : الطلل البالى ، وملـكة الضبابير ، والكونتس ليز.. وقد رحبن به ترحيبا جميلا ، فقد كان لتفينوف — وان لم ينتم الى مجتمعهن — على حظ كبير من الوسامة ، واجتذبهن وجه الشاب المعبر ، الا أنه لم يعرف كيف يستبقى هذا الاهتمام ، فقد كان قليل الخبرة بالمجتمعات ، وكان يشعر بشىء من الخجل ، وزاده اضطرابا أن الجنرال السمين ظل يحدق فيه تحديقا ملحا ، وكأنما كانت نظرته الثقيلة الثابتة تقول : « آها ! أهذا أنت أيها الثائر؟ أيها المفكر الحر ؟ اذن فقد جئت وقبعتك فى يدك لتقدم فروض الولاء ! » وأنقذت ايرينا لتفينوف فسهلت له أن ينتقل الى ركن قرب الباب ، خلفها بقليل . فكانت تضطر كلما خاطبته أن تلتفت اليه ، فيبهره انثناء جيدها الرائع ، ويعب من شـذا شـعرها

---

(١) « بيد ذاهلة » .

الخفى . ولم يفارق وجهها قط تعبير من الشكر رقيق عميق : انه الشكر ولا شيء غيره ما كانت تنم به تلك البسمات والنظرات. اضطر لتفينوف أن يعترف بذلك ، فتوهج فيه مثل هذا الشعور، وامتلأ قلبه بالندم والسرور والخوف ...

وكانت تبدو فى الوقت نفسه وكأنها تريد أن تسأله : «حسنا ، ما رأيك فيهم ؟ » وكان هذا السؤال غير المنطوق يزداد وضوحا فى سمع لتفينوف كلما لفظ واحد من الاضياف كلمة سخيفة أو أتى عملا مزريا . وقد حدث ذلك غير مرة فى أثناء المساء . وذات مرة لم تستطع ايرينا اخفاء شعورها ، فضحكت ضحكا عاليا .

وكانت الكونتس ليز تؤمن بالخرافات ، وتميل الى الغرائب . فبعد أن شبعت من الحديث مع محضر الأرواح عن هوم ، والموائد التى تدور ، والاكورديون الذى يعزف بلا عازف ، وما الى ذلك ، انتهت الى سؤاله : هل ثم حيوانات يؤثر فيها التنويم المغناطيسى؟

فقال الأمير كوكو من بعد :

ــ هناك على كل حال حيوان واحد بهذا الوصف . أتعرفين ملفانوفسكى ؟ لقد نوموه أمامى . وشد ما كان يشخر !

ــ أنت خبيث جدا يا أميرى . أنى أتحدث عن الحيوانات الحقيقية . je parle des bêtes (١) .

— Mais moi aussi, madame, je parle d'une bête ...

قال الروحانى :

ــ بعض الحيوانات الحقيقية يتفق له ذلك . جراد البحر مثلا. فأعصابه شديدة الحساسية . ومن السهل جعله فى حالة همود تام.

فدهشت الكونتس دهشة عظيمة :

ــ ماذا ! جراد البحر حقا ؟ أوه ! هذا ظريف جدا ! أود أن أراه ! وأردفت تخاطب شابا ذا وجه حجرى كوجه دمية جديدة ، وعليه ياقة حجرية أيضا (وكان يفخر بأنه قد ندى الوجه السالف الذكر برشاش نياجرا والنيل النوبى ، وان كان لايذكر شيئا من أسفاره ، ولا يعنى بغير النكات الروسية ..)

قالت الكونتس تخاطب هذا الشاب :

ــ مسيو لوزهين . هل تسمح بأن تحضر جراد بحر سريعا ؟

فابتسم المسيو لوزهين ابتسامة مصطنعة ، وسأل :

---

(١) « انى أتحدث عن الحيوانات » .
(٢) « وأنا أيضا يا سيدتى أتحدث عن حيوان » .

ــ أيجب أن يكون جراد البحر سريعا أم أحضره سريعا ؟

فلم تفهم الـكونتة ما قاله . وكررت :

ــ Mais oui ، جراد بحر ، une écrevisse

فقاطعتهما الـكونتس « س » بخشونة :

ــ آه ؟ ماذا ؟ جراد بحر ؟ جراد بحر ؟

وكانت ضجرة لغياب السيد فرديبه ، وأنكرت أن تغفل ايرينا دعوة هذا الفرنسى الذى لا نظير له فى الظرف والخلابة . أما « الطلل البالى » فقد استبهم عليهـا كل شىء منذ زمن طويل ، ثم انها كانت صماء ، فاكتفت بهز رأسها .

ــ Oui, oui, vous allez voir. (١) أرجوك يا مسيو لوزهين ...

فانحنى الرحالة الشاب وذهب ثم عاد مسرعا . وكان يسير خلفه نادل يبتسم ابتسامة عريضة ويحمل طبقا يرى عليه جراد بحر كبير أسود .

صاح لوزهين :

ــ Voici madame (٢) الآن نستطيع أن نبـدأ عملية جراد البحر ! ها ها ها ! (الروس هم دائما أول من يضحك لنكاتهم .)

ــ هى هى هى !

بهذه الضحكة أدى الـكونت كوكو واجبه متواضعا كوطنى مخلص يشجع كل المنتجات الوطنية (ونرجو القارىء ألا يدهش ويغضب . فمنذا الذى يستطيع أن يزعم أنه لم يصفق لنكات أبرد من هذه ، وهو جالس على مقعد بمسرح الكسندر وقد أعداه الجو المحيط به ؟)

قالت الـكونتس :

ــ Merci, merci. Allons, allons, monsieur Fox, montrez-nous ça (٣)

ووضع النـادل الطبق على منضدة مستديرة . وجرت حركة خفيفة بين الضيوف ، واشرأبت بعض الاعناق ، الا ان الجنرالات الجالسين الى منضدة اللعب ظلوا محافظين على وقار جلستهم . ونفش الروحانى شعره ، وعبس ويسر ، ثم اقترب من المنضـدة وأخذ يحرك يديه فى الهواء ، فتمطى جراد البحر ، ورقد على ظهره ، ورفع مخالبه . وكرر الروحانى حركاته وأسرع فيها ، وجراد البحر لايزال يتمطى .

(١) « نعم ــ نعم ، سترون » .

(٢) « اليك يا سيدتى » .

(٣) « شكرا ، شكرا . هيا يا مسيو فوكس . ارنا » .

فسألت الكونتس :

— mais que doit-elle donc faire ? (١)

فأجابها المستر فوكس بفرنسية تغلب عليها نبرة أمريكية بينة :

— يجب أن يبقى ساكنا ويقف على ذيله .

وحرك أصابعه فوق الطبق بجهد تشنجى ، ولكن التنويم لم يفلح ، وظل جراد البحر يتحرك . وأعلن الروحانى أنه ليس فى حال من التهيؤ النفسى تساعده على العمل . وابتعد عن المنضدة فى سخط ظاهر . وأخذت الكونتة تعزيه مؤكدة أن مثل هذا الفشل يتفق أحيانا للمستر هوم نفسه ... وأمن الأمير كوكو على ماذكرته . وتسال أستاذ التلمود ورسائل القديس يوحنا الى المنضدة ، وأخذ يحرك أصابعه حركات سريعة عنيفة صوب جراد البحر ، مجربا حظه هو أيضا ، ولكن بدون فائدة ، اذ لم يظهر على جراد البحر أية علامة من علامات الهمود . عندئذ نودى النادل ، وأمر أن يأخذ جراد البحر ، ففعل ذلك وهو يبتسم ابتسامته العريضة . وسمع ينفجر ضاحكا خارج الباب ... وتلا ذلك ضحك كثير فى المطبخ uber diese Russen (٢) . وكان العبقرى الذى علم نفسه قد بدأ يعزف أثناء التجارب على جراد البحر ، ملتزما نغمات حزينة ، زعما بأن للموسيقى تأثيرا لايمكن معرفته أو التكهن به . فلما انتهت هذه التجارب عزف فالسه الذى لايتغير ، وقوبل باستحسان عظيم طبعا . ولذعت الغيرة الكونت هـ . الهاوى الذى لايبارى (انظر الفصل الأول) ، فغنى أغنية صغيرة من تلحينه ، سرقها جملة من أوفنباخ . وكانت كل السيدات تقريبا يحركن رءوسهن يمنة ويسرة مع جوابها المرح (quel oeuf, quel boeuf) (٣) . ويبلغ الطرب باحداهن أنها تنهدت برقة . وكانت الكلمة التى لابد منها ! charmant ! charman ! .. تتردد على كل شفة ، وتبادلت ايرينا نظرة مع لتفينوف ، واختلج على شفتيها مرة أخرى ذلك المعنى الساخر المستتر ... ولكنه لم يلبث أن صرح بل مازجه شيء من التشفى عندما بدا للأمير كوكو ، ممثل مصالح النبلاء وراعيها ، أن يبسط آراءه لمحضر الأرواح ، فأعاد بالطبع عبارته المشهورة عن تزعزع مبدأ الملكية ، وأردفها طعنا شديدا فى

---

(١) « ولكن ماذا يجب أن يعمل ؟ » .

(٢) « من هؤلاء الروس » .

(٣) « أى بيضة ، أى بقرة » .

الديموقراطيين . وثار الدم الامريكي في عروق محضر الأرواح ، وأخذ يجادل ، فجعل الأمير يصيح كعادته بأعلى صوته ، ويستعيض عن كل نقاش بأن يكرر دون انقطاع C'est absurde! Cela n'as pas le sens commun (١) وبدأ المليونير فينيكوف يقذف بألفاظ السباب ، دون أن يبالي من نصيب ، وأصبح صوت التلمودي صفيرا ، وصوت الكونتس « س » صريرا ... نعم ، لقد ثارت ضجة متنافرة لا معنى لها كتلك التي ثارت عند جوباريوف ، ولم يكن ثمة فارق الا انعدام البيرة ودخان التبغ ، وان الناس هنا أحسن ملبسا ممن عند جوباريوف . وحاول راتميروف أن يعيد السلام (فقد أظهر الجنرالات استياءهم ، وصاح بوريس : encore cette satané politique) (٢) ولكن جهوده لم تنجح . وضمن لها الفشل أن أحد الحاضرين ، وكان موظفا كبيرا من ذلك الطراز المتسلل المتطفل ، أخذ على نفسه أن يعرض le resumé en peu de mots (٣) — فجعل يطن وينبح ، ويبدىء ويعيد ، وكان عاجزا عجزا بينا عن سماع الاعتراضات الموجهة اليه أو فهمها ، قاصرا قصورا واضحا عن ادراك لب « المسألة » la question ، فانتهت وساطته كما ينبغي أن تنتهي . وزاد الأمر سوءا ان ايرينا كانت تستثير المتجادلين بخبث ، تغري بعضهم ببعض ، بينما هي تتبادل النظرات والاشارات السريعة مع لتفينوف ... ولكنه كان جالسا كأنما انعقد لسانه ، لايسمع شيئا ، ولا ينتظر شيئا ، الا أن تلمع هاتان العينان الرائعتان مرة أخرى ، وأن يضيء عليه ذلك الوجه الشاحب الرقيق العابث البديع مرة أخرى ... وانتهى الأمر بأن ضجرت السيدات ورجون أن ينقطع الجدال ... وسأل راتميروف الهاوي أن يعيد أغنيته ، وعزف العبقري العصامي فالسه مرة ثانية ...

بقي لتفينوف حتى جاوز الليل منتصفه ، وكان آخر من ودع ودار الحديث في أثناء الليل حول عدد من الموضوعات أخليت بعناية من كل ما يثير الاهتمام . وبعد أن انتهى الجنرالات من لعبتهم البهية ، اشتركوا في الحديث ببهاء . وسرعان ما ظهر نفوذ هؤلاء الكبراء . فقد دار الحديث حول بنات الهوى الباريسيات الشهيرات ، اللواتي بدا كل امرىء عليما بأسمائهن مواهبهن ،

(١) « هذا مضحك ! هذا غير معقول » .
(٢) « هذه السياسة اللعتية مرة أخرى ! » .
(٣) « الخلاصة في قليل من الكلمات » .

وحول مسرحية ساردو الاخيرة ، وقصة لآبو، وباتى فى «الترافيانا» واقترح أحد الحاضرين لعبة السكرتير au secretaire ، ولكن اللعبة لم تنجح ، فقد كانت الاجابات فاترة ولم تخل أحيانا من غلطات نحوية ، وروى الجنرال السمين انه سئل مرة :

Qu'est-ce que l'amour ? (١) فأجاب :

Une colique remontée au coeur. (٢) . وانطلق يضحك ضحكته الجافة ، فضربته الطلل البالى بمروحتها على يده ، فسقطت قطعة من الجص عن جبينها لهذا الاندفاع . وبدأت الحيزبون تذكر الامارات الصقلبية ، وضرورة نشر الدعاية الارثوذكسية فى وادى الدانوب ، ولكنها لم تلق جوابا فصفرت وسكتت . وقد تحدثوا فى الحقيقة عن هوم أكثر مما تحدثوا عن أى شىء سواء ، ووصفت ملكة الضبابير كيف رأت هى نفسها يدين تزحفان عليها ، وكيف وضعت خاتمها فى اصبع احدى اليدين.

لقد انتصرت ايرينا أى انتصار . وحتى لو أعار لتفينوف ما يقال حوله اهتماما أكبر لما استطاع أن يلتقط من خلال ثرثرتهم المتقطعة الخامدة جملة واحدة صادقة ، ولا فكرة واحدة ناصحة ، ولا حقيقة واحدة طريفة . حتى صيحاتهم لم يكن فيها انفعال صادق ، وهجومهم لم تكن فيه حدة صادقة . الا أنك كنت تسمع بين الحين والحين صرخة عداء تفلت من تحت قناع الحمية الوطنية ، أو الكبرياء المتألهة ، معبرة عن خوفهم من الخسارة المالية ، وبضعة أسماء لن تنساها الاجيال القادمة ينطقونها بين صرير الانياب... ولا تجد تحت كل هذه الضوضاء وهذا الهراء قطرة واحدة من ماء الحياة ! يا للعبث السخيف ، يا للتفاهات الممجوجة التى تمتص كل تلك الرءوس والقلوب ، لا فى ذلك المساء وحده ، ولا حين يجتمعون فقط ، بل فى بيوتهم أيضا ، فى كل ساعة وفى كل يوم ، فى طول وجودهم وعرضه ! ويا لجهلهم اذا قالوا كل ما لديهم ! ما أعجزهم عن فهم كل ما بنيت عليه الحياة الانسانية ، كل ما به جمال الحياة !

وحين ودعت ايرينا لتفينوف شدت على يده مرة أخرى وهمست معرضة :

ــ حسنا . أيكفيك ما رأيت ؟ انه بديع ، أليس كذلك ؟

---

(١) « ما الحب ؟ » .
(٢) « امساك فى القلب » .

فلم يجبها ، ولم يزد على أن انحنى انحناءة كبيرة صامتة .

وبقيت ايرينا وحيدة مع زوجها . وكانت تهم بالذهاب الى حجرة نومها حين استوقفها قائلا وهو يستند على رف المدفأة ويدخن الفيفة :

— Je vous ai beaucoup admirée ce soir, madame, vous vous êtes parfaitement moquée de nous tous (١)

فأجابت دون مبالاة :

(٢) Pas plus cette fois que les autres.

فسألها راتميروف :

— ماذا أفهم مما تقولين ؟

— لك أن تفهم ما تريد .

— مم .. C'est clair (٣) .

ونفض راتميروف رماد اللفيفة بطرف ظفر خنصره الطويل ، فى عناية أشبه بحركات القط . ومضى يقول :

— على فكرة ! صديقك الجديد هذا — ما اسمه ؟ — السيد لتفينوف ... لعله معروف بذكائه الشديد ؟

والتفتت ايرينا مسرعة عندما سمعت اسم لتفينوف :

— ما الذى تعنيه ؟

فابتسم الجنرال :

— انه يلتزم الصمت... وواضح انه يخشى أن يتورط اذا تكلم.

فابتسمت ايرينا أيضا . ولكن ابتسامتها لم تكن كابتسامة زوجها .

— الصمت خير من الكلام ... كما يتكلم بعض الناس .

فأجاب راتميروف وهو يتظاهر بالاستسلام :

— Attrapé ! (٤) ولكنه — دون مزاح — ذو وجه جذاب . وجه يبدو عليه الجد ... وسلوكه عامة ... أجل — وأصلح الجنرال رباط عنقه ، وألقى برأسه الى الخلف متأملا شاربه — اخاله جمهوريا كصديقك الآخر بوتوجين . وهذا أيضا احد أصدقائك البكم الاذكياء .

(١) « لقد أعجبت بك الليلة كثيرا يا سيدتى — انك سخرت منا جميعا سخرية بارعة » .

(٢) « لم أكن أكثر سخرية من المرات الاخر » .

(٣) « هذا جلى » .

(٤) « وقعت ! » .

وارتفع حاجبا ايرينا ببطء فوق عينيها الشاخصتين الصافيتين، وزمت شفتيها زمة خفيفة ، وقالت فى عطف ساخر :

ــ ما غرضك من هذا القول يا فاليريان فلاديميروفتش ؟ انك تطيش سهامك ... لسنا فى روسيا ، ولا أحد هنا يسمعك .

وكأنما لسع راتميروف . فبدأ يقول وقد انقلب صـوته عاليا خشنا :

ــ ليس هذا رأيى فحسب يا ايرينا بافلوفنا . غيرى يلاحظون أيضا ان لهذا السيد مظهر المتآمرين .

ــ حقا ؟ ومن هؤلاء ؟

ــ حسنا ... بوريس مثلا ...

ــ ماذا ؟ أهذا أيضا له رأى ؟

وهزت ايرينا كتفيها كأنما لدغتها نسمة باردة ، وأمرت أصابعها فى بطء عليهما .

ــ هذا أيضا ؟ نعم هذا أيضا . اسمحى لى يا ايرينا بافلوفنا أن ألاحظ أنك غاضبة ، وتعلمين أن الغضب ...

ــ أنا غاضبة ، أوه ، لم ؟

ــ لا أدرى . لعلك استأت مما قلته عن ...

فـكررت ايرينا مستفهمة :

ــ عن ... دعك من السخرية ولا تطل ، فأنا متعبة ونعسانة . وتناولت شمعة من فوق المـائدة :

ــ عن ... ؟

ــ حسنا . عن هذا السيد لتفينوف ، فلا شك الآن انك مهتمة به اهتماما كبيرا .

فرفعت ايرينا اليد التى كانت تمسك بها حامل الشمعة حتى وازى اللهب وجه زوجها ، ونظرت فى عينيه مليا وكأنها تتعجب ، وفجأة انفجرت ضاحكة .

فسأل راتميروف متجهما :

ــ ماذا ؟

واستمرت ايرينا تضحك . فكرر : « حسنا ، ما الأمر؟» ودق الأرض بقدمه . كان يحس أنه طعن واهين ، وكان مع ذلك مأخوذا بجمال هذه المرأة التي تواجهه فى هذه الخفة والجسارة ... لقـد كانت تعذبه . رآها كلها ، كل مفاتنها ، حتى ظل أظافرها الوردى على أطراف أناملها المرهفة وهى قابضة على برنز الحامل القاتم .

أجل ، حتى هذا لم يفته ، بينما كانت الاهانة تنفذ فى قلبه عميقة عميقة ، وايرينا لا تزال تضحك .

واخيرا نطقت بهذه الـكلمات :

ــ ماذا ؟ انت ؟ انت تغار ؟

وأولت الزوج ظهرها وخرجت من الحجرة ، وسمع صوتها من وراء الباب « انه يغار ! » وأتاه مرة أخرى رنين ضحكتها .

لقد اتبعها راتميروف عينيه فى شرود ، ومرة أخرى لم يستطع الا أن يرى فتنة قوامها وحركاتها ، فحطم لفيفتــه على رخامة المدفأة بضربة عنيفة والقاها بعيدا ، وشحب خداه فجأة ، ومرت على اسفل وجهه رعدة متشنجة ، وجالت عيناه حول ارض الحجرة تحملقان فى غباء حيوانى وكأنهما تبحثان عن شىء ... لقد اختفت من وجهه كل مظاهر الرقة ، ولابد أن هذا كان منظره حين جلد فلاحى روسيا البيضاء .

وكان لتفينوف قد عاد الى مسكنه وظل جالسا الى المنضدة بلا حراك وراسه بين كفيه . وأخيرا نهض وفتح صندوقا واخرج منه حافظة استل من أحد جيوبها الداخلية صورة شمسية لتاتيانا . وشخص اليه وجهها بحزن وقد بدا قبيحا هرما كما تبدو الصورة الشمسية عادة . كانت خطيبة لتفينوف فتاة روسية صميمة شقراء اقرب الى الامتلاء ، فى ملامح وجهها بعض الغلظ ، ولـكن لها عينين عسليتين صافيتين تفيضان طيبة وحنوا ، وجبينا أبيض نقيا كأنما استقر عليه شــعاع من الشمس . ولبث لتفينوف برهــة طويلة لا يحول نظره عن الصورة ، ثم أزاحها برفق وأمسك رأسه بيديه مرة أخرى ، واخيرا همس :

ــ كل شىء قد انتهى يا ايرينا ! ايرينا !

وفى هذه اللحظة وحدها أدرك أنه كان يحبها حبا لايعرف معنى العقل ، وأنه احبها منذ ذلك اليوم الذى لقيها فيه للمرة الاولى عند القلعة القديمة ، وأنه لم ينس حبها قط . ومع هذا فكم كان يدهش ويستنكر لو قيل له ذلك قبل ساعات قليلة !

« ولـكن تانيا ، تانيا ! رباه ! تانيا ، تانيا ! » هكذا راح يردد فى ندم ، بينما تمثل له شبح ايرينا فى ردائها الاسود الذى يشبه ثوب الحداد ، وقد تألق على وجهها المرمرى هدوء النصر .

لم يتم لتفينوف ليلته ، ولم يخلع ثيابه ، وكان شديد الهم ، فقد كان أمينا صريحا ، يعرف سلطان العهود ، وقداسة الواجب، ويخجل أن يفالط نفسه فينكر ضعفه وسقوطه . واستحوذ عليه أول الأمر نوع من البلادة ، فاستسلم لشعور مبهم لم يكد يستوضحه . ثم تملكه الفزع حين فكر أن مستقبله الذى كاد ينقاد له قد عاد فانزلق الى الظلام ، وأن بيته الركين الذى لم يكد يرفعه قد أخذ يتداعى من حوله ... وراح يلوم نفسه لوما عنيفا، ولكنه ما لبث أن تماسك ، وقال : « هذا ضعف منى . ليس هذا وقت اللوم والندم بل وقت العمل . تانيا هى خطيبتى ، وهى واثقة بحبى وشرفى ، وقد ارتبطنا مدى الحياة ، ولا يمكن أن ننفصل ، بل يجب الا ننفصل . » وتمثل كل فضائل تانيا ، واطنب فيها ، واحصاها بعقله ، وهو يحاول أن يوقظ فى نفسه الرقة والحنان . وفكر مرة اخرى : « لم يبق لى الا شىء واحد: أن أرحل من فورى ولا أنتظر عودتها ، أن أسرع الى لقائها . وقد أتألم ، وقد أكون شقيا مع تانيا — وان كنت أستبعد هذا — ولكننى على كل حال يجب الا أفكر فيه . يجب أن أؤدى واجبى ولو مت فى سبيله ! » فهمس صوت آخر فى أعماق نفسه : « ولكن لا يجمل بك أن تخدعها ، ليس من حقك أن تخفى عنها اختلاف مشاعرك . الا يجوز أن تأبى الزواج منك حين تعلم أنك تحب امرأة أخرى ؟ » فيجيب : « كلام فارغ ! كلام فارغ ! ما هذه الا سفسطة ، مغالطة مخجلة ، فضيلة كاذبة . لا يحق لى أن أحنث فى كلمتى ، هذا ما لاشك فيه . حسنا ، اذن فلأرحل من هنا دون أن أرى الاخرى ... »

ولكن قلبه خفق خفقا أليما حين قال ذلك ، واعتراه برد ، وأخذته رعدة ، واصطكت أسنانه بضعف . وتمدد وتثاءب كأنه فى حمى . ولم يصر على فكرته الأخيرة بل كبتها وراغ منها . انما راح يتعجب ويتساءل كيف استطاع مرة أخرى أن يحب تلك

المخلوقة الدنيوية المنحلة ، التى كان يجد كل ماحولها بفيضا منفرا . وحاول أن يواجه نفسه بهذا السؤال : « ولكن حدثنى: أتحبها حقا ؟ » فما استطاع الا أن يطرد السؤال على الفور باشارة من يده . وكان لايزال يتعجب ويتساءل بينما تصعد أمامه من مثل الضباب الناعم العبق صورة ساحرة ، وترتفع أهداب طويلة حريرية ، فتضرب العينان الرائعتان فى قلبه بنعومة نافذة ، ويرن الصوت رنينه الحلو ، وتموج الكتفان المتألقتان ، ككتفى ملكة ، بأنفاس الفتوة والشهوة الناعسة .

***

حينما اقترب الصباح كان قد انعقد فى عقل لتفينوف عزم . لقد قرر أن يرحل فى ذلك اليوم ليقابل تاتيانا ، وأن يرى ايرينا للمرة الاخيرة ويخبرها بالحقيقة كلها ، اذا لم يكن من ذلك بد ، ثم يفارقها فراق الابد .

فرتب أمتعته وحزم حقائبه ، وانتظرحتى الساعة الثانية عشرة ، ثم ذهب اليها . ولكنه حين رأى نوافذها بستائرها المسبلة خانه قلبه ... ولم يستطع أن يستجمع شجاعته ليدخل الفندق . فذرع شارع لختنتالر مرة أو مرتين ذهابا وجيئة ، وفجأة سمع صوتا ساخرا ينادى من فوق عربة خفيفة مسرعة : « أهلا وسهلا بالسيد لتفينوف ! » ورفع لتفينوف عينيه ورأى الجنرال راتميروف جالسا بجانب الأمير م . ، وهو رياضى شهير مشغوف بالعربات والجياد الانجليزية . وكان الأمير يقود العربة ، والجنرال منحنيا الى الأمام وقد مال الى ناحية ، وهو يبدى نواجذه مبتسما ، ويرفع قبعته عالية فوق رأسه . وانحنى له لتفينوف ، وهرع من فوره الى مسكن ايرينا وكأنه يطيع أمرا خفيا .

كانت هناك وبعث باسمه ، فأدخل على الفور . ووجدها واقفة وسط الغرفة فى رداء صباحى واسع الكمين ، ووجهها الشاحب كالبارحة ، فى غير نضرة البارحة ، يبدو عليه التعب والاعياء . واستقبلت ايرينا زائرها ببسمة وانية زادت ذلك التعبير وضوحا ، ومدت اليه يدها فى ود مازجه شرود .

بدأت تقول بصوت شاك وهى تغوص فى كرسى منخفض :

ــ أشكرك على مجيئك . لست بخير هذا الصباح ، فقد قضيت ليلة سيئة . حسنا ، ما قولك فيما رأيته البارحة ، ألم أكن على صواب ؟

فجلس لتفينوف وبدأ حديثه قائلا :
ـ لقد جئت اليك يا ايرينا بافلوفنا ...
فاعتدلت فى جلستها فجأة ، والتفتت اليه ، وأثبتته عيناها ، ثم قالت فى دهشة :
ـ مابك ؟ انك شاحب كالاموات . انك مريض . ماذا بك ؟
فاضطرب لتفينوف :
ـ ماذا بى ؟
ـ هل بلغك خبر سيىء ؟ هل حدث مكروه ؟ أخبرنى. أخبرنى.
ونظر لتفينوف بدوره الى ايرينا . وأخيرا قال فى جهد :
ـ لم تبلغنى أخبار سيئة .، ولكن مكروها حدث . مكروه فظيع .. وهو ما جاء بى اليك .
ـ مكروه ؟ ما هو ؟
ـ هو ... أن ...
وحاول لتفينوف أن يستمر فى حديثه ... فلم يستطع . ولم يزد على أن عقد يديه حتى طقطقت أصابعه . وكانت ايرينا منحنية الى الامام وكأنها استحالت حجرا .
وأخيرا ندت من صدر لتفينوف أنة خافتة :
ـ أوه ! انى احبك !
والتفت كأنه يريد أن يخفى وجهه .
ـ ماذا ؟ أنت ياجريجورى ميهالتش ...
ولم تستطع ايرينا أن تتم جملتها أيضا ، ووضعت كلتا يديها على عينيها .
ـ أنت ... تحبنى ؟
فردد فى مرارة وهو يشيح بوجهه قليلا قليلا :
ـ أجل ... أجل ... أجل ..
كان كل شىء فى الغرفة ساكنا ، وثمة فراشة شاردة ترفرف بجناحيها ، وتجاهد بين الستارة والنافذة .
واستأنف لتفينوف الحديث قائلا :
ـ هذا يا ايرينا بافلوفنا ... هذا هو المكروه الذى ... حل بى ، والذى كان يجب أن اتوقعه واحاذره ، لولا أنه دهمنى فجأة كما حدث فى أيام موسكو . كأن القدر يحلو له أن يضطرنى مرة اخرى الى مقاساة العذاب بسببك . عذاب ما كنت اظن أنه يتكرر...كان العقل يدعونى الى المقاومة ... وحاولت أن اقاوم .

ولـكن لا مفر من القدر ، وأنا أخبرك بكل هذا لأقطع فورا هذه ... وأضاف بمزيد من الغضب والخجل ـ هذه المهزلة الاليمة .

ثم عاد لتفينوف الى الصمت ، وكانت الفراشة لا تزال تجاهد وترفرف . ولم ترفع ايرينا يديها عن وجهها ، وجاء همسها من تحت هاتين اليدين البيضاوين كأنما خلتا من الدم :

ـ أواثق أنت أنك لست مخطئا ؟

فأجاب لتفينوف بصوت باهت :

ـ لست مخطئا . أنا أحبك ، ومثل هذا الحب لم أحببه غيرك قط . لا أريد أن ألومك ، هذه حماقة ، ولا أن أكرر لك أنك لو كنت عاملتنى معاملة أخرى لما جرى من هذا شيء ... حقا ، اننى أنا وحدى الملوم ، جنت على ثقتى بنفسى ، هذا هو الجزاء الذى أستحقه . وما كان لك أن تقدرى ما سيكون... لم يخطر ببالك طبعا أنه كان أسلم لى لو لمتشعرى أنك أسأت الى ـ كما تتخيلين ـ ، ولو لم تحاولى الاصلاح ... ولـكن ما كان كان . انى لم أرد الا أن أوضح لك موقفى ، ولا حاجة بنا أن نزيد الأمر قسوة. على أنه لن يكون بيننا شيء من سوء التفاهم كما تسمينه ، وسوف تخفف صراحة اعترافى مما لابد أن تحسيه من أذى .

وكان لتفينوف يتكلم دون أن يرفع عينيه . على أنه لو نظر الى ايرينا لما رأى شيئا مما يمر على وجهها ، فقد أبقت يديها على عينيها كما كانتا . ولـكن ما مر على وجهها ربما كان خليقا أن يذهل لتفينوف، لقد ارتسم عليه الخوف والسرور ونوع من البهر اللذيذ ، ولمعت عيناها لمعانا خفيفا تحت أجفانها المسبلة ، وكانت أنفاسها البطيئة المضطربة بردا على شفتيها المنفرجتين الملسوعتين.

صمت لتفينوف ينتظر جوابا أو نأمة ... ولا شيء . فبدأ يقول مرة أخرى :

ـ لم يبق الا حل واحد ، وهو أن أرحل . وقد جئت لأودعك.

فألقت ايرينا يديها ببطء على ركبتيها ، وبدأت تقول :

ـ ولـكنى أذكر ياجريجورى ميهالتش أن .. الشـــخص الذى حدثتنى عنه سيأتى الى هنا ؟ ألست تنتظرها ؟

ـ أجل . ولـكنى سأكتب اليها ... لتنتظر فى بعض الطريق ... فى هيدلبرج مثلا .

ـ آه ! هيدلبرج ... أجل ... بلدة جميلة . ولـكن هذا كله

ينقض حظك بلا شك . أأنت على ثقة من أنك لا تبالغ التقدير ياجريجورى ميهالتش ، ? et que ce n est pas une fausse alarme (١)

كانت ايرينا تتكلم بهدوء يوشك أن يكون برودا ، وهى تتوقف وقفات قصيرة ، وتنظر نحو النافذة . ولم يجب لتفينوف على سؤالها الاخير . فاستمرت تقول :

ــ ولكن لماذا تتحدث عن الاذى ؟ انى لست متأذية ... كلا! واذا كان أحدنا ملوما فلست أنت الملوم على كل حال ، لست الملوم وحدك ... تذكر محاوراتنا الاخيرة ، وسوف نتأكد انك لست الملوم .

وتمتم لتفينوف بين اسنانه :

ــ انى لم أشك قط فى كرمك ، ولكن أود ان اعلم هل تقريننى على عزمى ؟

ــ على الرحيل ؟

ــ اجل .

واستمرت ايرينا تنظر بعيداً .

ــ لقد بدا لى أولا أن فى قرارك شيئا من العجلة ، ولكنى فكرت الآن فيما قلته ... واذا لم تكن مخطئا فأظن أنه ينبغى أن ترحل . هذا خير ... لكلينا .

وكان صوت ايرينا قد أخذ ينخفض وينخفض ، وكلماتها تبطىء وتبطىء . وبدأ لتفينوف يقول :

ــ حقا ... قد يلاحظ الجنرال راتميروف ..

ونكست ايرينا بصرها مرة أخرى ، وارتعش على شفتيها بريق غريب ... لحظة واختفى . وقاطعته قائلة :

ــ لا . انك لم تفهمنى . لم اكن افكر فى زوجى . لم افكر فيه ؟ ليس هناك شىء يلاحظ . ولكن أفكر أن الفراق ضرورى لكلينا .

والتقط لتفينوف قبعته التى سقطت على الارض وفكر : « لقد انتهى كل شىء . يجب أن أذهب ... » ثم قال بصوت مرتفع :

ــ اذن لم يبق لى الا أن اقول لك وداعا يا ايرينا بافلوفنا ــ وفجأة احس بوخزة وكأنه يتأهب لينطق بحكم الاعدام على نفسه ــ لم يبق لى الا أن آمل الا تذكرينى بشر ، و ... واننا لو ...

فقاطعته ايرينا مرة أخرى :

---

(١) « وان هذه ليست صيحة كاذبة ؟ » .

ــ صبرا ياجريجورى ميهالتش . لا تودعنى الآن . هذه مفاجأة غير مستحبة .

وبدا أن شيئا فى لتفينوف يوشـــك أن يضعف ، ولـكن الألم المحرق انفجر فى قلبه مرة أخرى بعنف مضاعف . صاح :

ــ ولـكنى لا أستطيع البقاء ! لم أبقى ؟ لم أطيل هذا العذاب؟

فرددت ايرينا :

ــ لا تودعنى الآن . يجب أن أراك ثانية . فراق أخرس آخر كفراقنا فى موسكو ؟ كلا ، انى لا أريد ذلك . تستطيع أن تذهب الآن . ولـكن يجب أن تعدنى ــ تعدنى بشرفك أنك لن تذهب الا بعد أن تزورنى مرة أخرى .

ــ أتريدين هذا ؟

ــ انى مصرة عليه . اذا ذهبت دون أن تودعنى فلن أسامحك. أتسمع ! لن أسامحك أبدا !

ثم أردفت وكأنها تخاطب نفسها :

ــ غريب ! لا أستطيع أن أقنع نفسى أنى فى بادن... لا أحس الا أننى فى موسكو ... اذهب الآن !

فنهض لتفينوف قائلا :

ــ ايرينا بافلوفنا ! هاتى يدك !

فهزت ايرينا رأسها :

ــ قلت لك لا أريد أن أودعك ...

ــ لا أريدها لوداع ...

وكادت ايرينـــا تمد يدها ، ولـكنها نظرت الى لتفينوف للمرة الاولى منذ اعترافه ، فسحبتها وهى تهمس :

ــ لا لا . لن أعطيك يدى . لا ... لا . يجب أن تذهب .

فانحنى لتفينوف وخرج . ولم يستطع أن يعرف لم أبت عليه ايرينا هذه المصافحة الاخيرة ... لم يستطع أن يعرف ماذا كانت تخاف .

ذهب وغاصت ايرينا فى كرسيها ثانية ، وغطت وجهها ثانية .

— ١٧ —

لم يعد لتفينوف الى مسكنه ، بل ذهب الى الجبال ، وانثنى الى خميلة ، فانبطح على الارض ، وبقى هناك ساعة . لم يكن يخاصم نفسه ، ولم يكن يبكى ، بل كان كمن يغيب عن وعيه فى بطء مؤلم . لم يعرف قط مثل هذا الشعور . لقد كان فراغا مرهقا يأكل نفسه أكلا : فراغ فى نفسه وخارج نفسه ، فى كل ما يحيط به . فلم يفكر فى ايرينا ولا فى تاتيانا ، انما أحس بشيء واحد : احس أن الضربة وقعت فانقطعت الحياة كالحبل ، وحملته قوة باردة غريبة . كان يخيل اليه أحيانا أن اعصارا انقض عليه، وكان يحس عصفه وخفق أجنحته السوداء . ولكن عزمه لم يتزعزع . البقاء فى بادن ... هذا ما لايمكن التفكير فيه . لقد رحل بالخاطر فعلا ، وانه لجالس فى عربة صاخبة دخنة ، يسرع ويسرع فى البعد الاخرس الميت ونهض أخيرا ، واعتمد براسه على شجيرة ، ولبث دون حراك ، الا انه مد يده بلا وعى الى العقدة العليا من شجرة سرخس ، وراح يهزها هزات متناغمة .

ونبهه من همومه وقع أقدام مقتربة : كان حطابان ينحدران فى شعب الجبل وعلى ظهريهما زكيبتان كبيرتان . فهمس لتفينوف : « حان الوقت ! » وتبع الحطابين الى المدينة ، ومال الى المحطة، فأرسل برقية الى كابيتولينا ماركوفنا عمة تاتيانا . وفى هذه البرقية اخبرها انه راحل من فوره ، وعين الملتقى فى فندق شرادر بهيرلبرج .

كان يقول لنفسه : « أسرع . اسرع بانهاء الأمر . لا فائدة من تاجيله الى الغد . » ودخل بهو القمار ، وحدق بتطلع بليد فى وجوه بعض المقامرين، ورأى عن بعد منظرا خلفيا لراس بنداسوف الكريه ، ورأى وجه بشتشالكن الواضح وبعد ان انتظر قليلا فى بهو الاعمدة ذهب الى ايرينا وقد استجمع عزمه . لم يدفعه اليها دافع فجائى قاهر ، ولكنه حين قرر أن يرحل قرر ايضا أن يبر بوعده ، وأن يذهب ليراها مرة أخرى . ولم يلحظه البواب حين

دخل ، ولم يصادفه أحد على السلم ، ولم يطرق الباب بل دفعه بحركه آلية ودخل .

كانت ايرينا جالسة على نفس الكرسى ، بنفس الثوب ، فى نفس الوضع كما تركها منذ ثلاث ساعات ... وكان جليا أنها لم تغادر مكانها ، ولم تأت بحركة طوال ذلك الوقت . رفعت رأسها ببطء ، فلما رأت لتفينوف ارتعد جسـمها كله ، وقبضت على ذراع الكرسى ، وهمست :

ـ أفزعتنى .

ونظر اليها لتفينوف بدهشة صامتة ، فقد راعه تعبير وجهها وانطفاء عينيها .

وابتسمت ايرينا ابتسامة مفتصبة ، وسوت شعرها المشعث :

ـ لا ترع ... أنا لا أدري فى الحقيقة ... لابد أني نمت هنا .

فقال لتفينوف :

ـ عفوا يا ايرينا بافلوفنا . لقد دخلت دون استئذان... أردت أن اعمل مابدا لك أن تطلبيه منى . وبما أنى راحل اليوم ...

ـ اليوم ؟ ولكنى أظنك قلت انك ستكتب خطابا ...

ـ لقد أرسلت برقية .

ـ آه ! رأيت أن تسرع . ومتى تذهب ؟ أعنى فى أية ساعة ؟

ـ الساعة السابعة مساء .

ـ آه ! الساعة السابعة ! وقد جئت تودعني ؟

ـ نعم يا ايرينا بافلوفنا . جئت أودعك .

وصمتت ايرينا برهة .

ـ يجب على أن أشكرك ياجريجورى ميهالتش . لعل قدومك الى هنا لم يكن هينا عليك .

ـ نعم يا ايرينا بافلوفنا . انه لم يكن هينا .

ـ الحياة كلها غير هينة ياجريجورى ميهالتش . ألا ترى ذلك؟

ـ هذا يتوقف على أمور كثيرة يا ايرينا بافلوفنا .

وصمتت ايرينا مرة أخرى ، وكأنها غرقت فى التفكير ، وأخيرا قالت :

ـ أنت أثبت صدق عاطفتك نحوى بقدومك . شكرا لك . أننى أوافقك تماما على قرارك بانهاء الأمر كله فى أقرب وقت ... لأن كل تأجيل ... لأنى أنا ... حتى أنا التى اتهمتنى بأنى ملاعبة ، وسميتنى ممثلة ... أظن هذه هى الكلمة التى قلتها ؟

ونهضت ايرينا مسرعة ، وجلست على كرسى آخر ، وانحنت الى الامام وضغطت وجهها وذراعيها على حافة المنضدة . وهمست بين أصابعها المطبقة :

ـ لأنى أحبك ...

وترنح لتفينوف كأن أحدا صكه على صدره . وحولت ايرينا راسها عنه بحزن ، كأنها تريد بدورها أن تخفى وجهها عنه ، ووضعته على المنضدة .

ـ أجل . انى أحبك ... انى أحبك ... وأنت تعلم ذلك .

قال لتفينوف أخيرا :

ـ أنا ؟ أنا أعلم ؟ أنا ؟

فمضت ايرينا تقول :

ـ حسنا . الآن ترى أنك يجب أن تذهب حقا ، وأن التأجيل محال . لا أنا ولا أنت نستطيع ذلك . انه خطر ، انه مروع ... وداعا ! ـ وأضافت باندفاع وهى تنهض عن كرسيها : وداعا !

وسارت بضع خطوات نحو باب مخدعها ، ووضعت يدها وراء ظهرها ، وحركتها حركة سريعة فى الهواء وكأنها تريد أن تلاقى يد لتفينوف وتضغط عليها ، ولكنه وقف عن بعد كعمود من الحجر فقالت مرة أخرى :

ـ وداعا . انسنى .

وذهبت مسرعة دون أن تلتفت .

بقى لتفينوف وحيدا ، ولكنه لم يستطع أن يثوب الى نفسه . وأخيرا جمع حواسه وذهب الى باب المخدع ، ونطق باسم ايرينا مرة ومرة ... وكانت يده على القفل ... وارتفع من درج الفندق صوت راتميروف الاغن ... فجذب لتفينوف قبعته على عينيه . وخرج الى الدرج . كان الجنرال الانيق واقفا أمام مدخل البواب السويسرى ، يبين له بألمانية ركيكة أنه يريد استئجار عربة طول اليوم . فلما وقع نظره على لتفينوف عاد فرفع قبعته عالية فوق رأسه ، و « رحب » به ترحيبا شديدا . وكان جليا أنه يهزأ به ، ولكن لتفينوف كان فى شغل عنه ، فلم يكد يرد تحيته ، ومضى الى مسكنه حيث وقف أمام حقيبته المعدة المغلقة ، ورأسه يدور ، وقلبه يتذبذب كوتر قيثارة . ماذا يعمل الآن؟ وهل كان يستطيع أن يتوقع ذلك ؟

أجل ، انه كان يتوقع ذلك وان لم يستطع تصديقه . لقد

فاجأه كالصاعقة ، ولكنه كان يتوقعه ، ولم يجسر على الاعتراف به لنفسه . ومع ذلك فانه الآن غير واثق من شيء . كان كل شيء فيه يغلى ويضطرب . وانقطع حبل أفكاره . وتذكر موسكو ، وتذكر كيف فاجأه « ذلك » من قبل كما تفاجأ العاصفة السفين . وانبهرت أنفاسه ، وعربدت فى قلبه نشوة يائسة مضنية كادت تخنقه . لا لشيء فى العالم كان يساوى عنده تلك الكلمات التى نطقت بها ايرينا ... ولكن ماذا بعدها ؟ ان تلك الكلمات ماكانت برغم كل هذا لتغير عزمه ، بل ظل ثابتا كما كان راسخا كأنه المرساة . لقد انقطع خيط أفكاره .. نعم ، ولكن بقيت له ارادته واقتاد نفسه كما لو كانت رجلا آخر يعتمد عليه . فطلب خادم الفندق ، وسأله عن حسابه ، وحجز مكانا فى سيارة المساء . لقد تعمد أن يقطع على نفسه كل طريق للهرب ، وصاح : « ولو مت فى سبيله ! » كما صاح فى الليلة السابقة المسهدة ، وكأنما أعجبته تلك العبارة .. وراح يردد وهو يقبل ويدبر فى غرفته : « ولو مت فى سبيله ! » ولكن كلمات ايرينا كانت تعود مرة بعد مرة فتغزو قلبه وتحرقه بمثل النار ، فيغمض عينيه بلا ارادة ، ويحبس انفاسه ، ويقول لنفسه : « لا احسبك تحب مرتين . حياة أخرى تأتى اليك ، وتدعها تمتزج بحياتك ، فلا تخلص أبدا من ذلك السم ، ولا تحطم أبدا تلك القيود ! أجل ، ولكن ما معنى هـذا ؟ السعادة ؟.. أهى ممكنة ؟ أنت تحبها ، فلنسلم بذلك ... وهى ... هى تحبك .. »

ولكنه هنا يعود فيستجمع قوته . وكما يرى المدلج فى الليل البهيم ضوءا أمامه فلا يحول عينيه عنه لحظة واحدة حتى لا يضل الطريق ، كذلك وجه لتفينوف قوة انتباهه كلها نحو نقطة واحدة ، نحو غرض واحد : أن يصل الى خطيبته ، وليس الى خطيبته بالدقة (فقد كان يحاول ألا يفكر فيها) بل الى غرفة فى فندق هيدلبرج . ذلك ما كان يلوح له كالنور الهادى . أما مايكون من بعد فلم يكن يعلمه ، ولا يريد أن يعلمه ... كان هناك شيء واحد لايرتقى اليه الشك : انه لن يعود . وردد للمرة العاشرة : « ولو مت ! » ونظر الى ساعته . السادسة والربع ! ما أطول الانتظار ! وذرع الغرفة مرة أخرى مقبلا ومدبرا . كانت الشمس على وشك المغيب ، والسماء حمراء قانية فوق الاشجار ، والشفق الوردى يسيل من النوافذ الضيقة الى حجرته المفطشة .

وفجأة خيل للتفينوف أن الباب قد فتح وراءه فيهدوء وسرعة، وأغلق فى هدوء وسرعة كذلك ... فالتفت ، واذا بامرأة فى شملة سوداء تقف عند الباب .. فصاح وهو يصفق بيديه فى ذهول :

ـ ايرينا !

فرفعت رأسها ، وهوت على صدره .

وبعد ساعتين كان جالسا على أريكة فى غرفته ، وقد انزوى صندوقه فى ركن مفتوحا فارغا ، وعلى المائدة بين مانثر عليها من الاشياء رسالة من تاتيانا تلقاها منذ برهة ، تقول فيها انها عزمت على أن تعجل بالرحيل عن درسدن ، اذ أن عمتها عوفيت تماما. فان لم يعوقها شيء فسوف يكونان فى بادن فيالساعة الثانية عشرة من اليوم التالى . ورجت أن يقـــابلهما على المحطة . وكان لتفينوف قد استأجر لهما حجرة فى فندقه .

وفى نفس المساء بعث بكلمة الى ايرينا ، فتلقى منها هذا الجواب فى الصباح التالى :

« كان لابد أن يحدث ذلك ان قريبا وان بعيدا . أكرر لك ما قلته البارحة : ان حيـــاتى بين يديك ، فافعل بى ما تشـــاء . أنا لا أريد أن أحد حريتك ، ولـكنى أقول لك انى سأرمى كل شيء وأتبعك الى آخر الدنيا اذا اقتضى الأمر . سنلتقى غدا بالطبع... حبيبتك ايرينا . »

وكانت الـكلمتان الاخيرتان مكتوبتين بخط كبير ثابت قوى .

كان لتفينوف بين المجتمعين على رصيف محطة السكة الحديدية فى الثامن عشر من أغسطس عند الساعة الثانية عشرة . وكان قد رأى ايرينا منذ برهة .. رآها جالسة فى عربة مكشوفة ومعها زوجها وسيد آخر متقدم فى السن . ووقع نظرها على لتفينوف، فلاحظ أن انفعالا غامضا لمع فى عينيها ، ولكنها سرعان ما توارت منه خلف مظلتها .

كان قد حل به انقلاب غريب منذ اليوم السابق ـ انقلاب شامل فى مظهره وتعبير وجهه ، وكان يحس حقيقة أنه رجل غير الذى كان . لقد تلاشت ثقته بنفسه ، كما تلاشي هدوء ذهنه ، واحترامه لذاته . لم يبق من حالته النفسية السابقة شيء ، اذ طفت تجارب حديثة لا تنسى على كل ماعداها ، واستولى عليه احساس قوى حلو خبيث لم يعهده قط من قبل ، ونفذ ضيف غامض الى محرابه الأقدس فاستحوذ عليه ، ورقد فيه صامتا الا أنه متبجبح كالمالك فى بيت جديد . لم يعد لتفينوف يشعر بالخجل ، ولكنه كان خائفا ، وكانت تتملكه مع ذلك شجاعة يائسة . الأسرى والمهزومون يعرفون مثل هذا الخليط من احساسات متناقضة ، كما يعرفه اللص بعد سرقته الاولى . وقد هزم لتفينوف فجأة .. أين أمانته؟

تأخر القطار خمس دقائق فاستحال قلق لتفينوف الى عذاب أليم ، ولم يستطع أن يقر فى مكان ، بل ظل يتحرك فى الزحام حركة ثقيلة مدفعة وهو يحدث نفسه : « رباه ! لو كان أمامى أربع وعشرون ساعة أخرى ! » ... أول نظرة الى تانيا ، وأول نظرة من تانيا . هذا ما ملأه خوفا ... هـذا ما أراد أن يخلص منه سريعا .. ثم ماذا ؟ ثم ... ليكن مايكون !.. لقد كف الآن عن التقرير والتدمير ، لأن نفسه لم تعد ملكا له . وومضت فى ذهنه صيحة الامس وميضا مؤلما ... هكذا يلقى تانيا !..

وأخيرا سمع صفير ممطوط ، وكركرة ثقيلة تشتد كل لحظة ، ولاح القطار ينثنى فى بطء عند منحنى من منحنيات الطريق. وأسرع

الجمهور لاستقباله ، وتبعهم لتفينوف يجر قدميه كرجل حكم عليه بالموت . وأخذت تظهر من العربات وجوه وقبعات سيدات ، ورفرف من احدى النوافذ منديل أبيض ... كانت كابيتولينا ماركوفنا تلوح له ... انتهى الأمر . لقد بصرت به وعرفها . ووقف القطار، وأسرع لتفينوف الى باب العربة وفتحه . كانت تاتيانا واقفة قرب عمتها ، تبسم بسمة مشرقة ، وتمد اليه يدها .

وأعانهما كليهما على النزول ، ورحب بهما بكلمات تافهة مختلطة ثم جعل يضطرب هنا وهناك : يتناول تذكرتيهما وحقائب سفرهما وملاحفهما ، ينطلق ليبحث عن حمال ، ينادى ليستأجر مركبة . وكان سائر الناس من حوله فى هرج ، وكان مسرورا بوجودهم وضجيجهم وصياحهم . وابتعدت تاتيانا قليلا ، وانتظرت حتى يفرغ من تدابيره السريعة وهى لا تزال تبتسم . أما كابيتولينا ماركوفنا فكانت لا تستطيع قرارا وكأنها لا تصدق انها أصبحت أخيرا فى بادن .

صاحت فجأة :

ــ المظلتان ! تانيا ! أين المظلتان ؟ ــ ولم تلاحظ انها كانت قابضة عليهما بشدة تحت ابطها . ثم أخذت تودع سيدة صادفتها فى الطريق من هيدلبرج الى بادن وداعا صاخبا طويلا .

ولم تكن هذه السيدة الا صاحبتنا مدام زوهانتشيكوف ، وقد ذهبت الى هيدلبرج لتقدم ولاءها الى جوباريوف وعادت تحمل « توجيهاته » . وكانت كابيتولينا ماركوفنا تلبس شملة مخططة غريبة الشكل ، وقبعة سفر يشبه شكلها شكل الكمأة ، وينفر من تحتها شعرها الابيض الخفيف . وكانت قصيرة نحيلة ، يعلو وجهها احمرار السفر ، وتتكلم الروسية بصوت منغم يخرق الأذن ... فسرعان ما أخذ الناس ينظرون اليها .

وأخيرا أجلسها لتفينوف مع تاتيانا فى عربة ، وأجلس نفسه ازاءهما . وانطلقت الجياد ، وأعقبها الاستفسار والمصافحة وتبادل البسمات والتحيات ... وتنفس لتفينوف الصعداء . لقد مرت اللحظة الاولى بسلام ، ولم يرع تاتيانا منه شىء ولا ارابها شىء ، فقد كانت تبسم بسمتها الوضيئة الواثقة ، وتحمر احمرارها الفاتن ، وتضحك ضحكها السمح . وأخيرا فرض على نفسه أن ينظر اليها نظرة صريحة مباشرة لا سارقة عابرة ــ وكانت عيناه لا تطاوعانه على النظر اليها ــ فخفق قلبه بانفعال لا أرادى : لقد

بعث فيه ذلك السلام الذى كان يلوح على وجهها الصريح الأمين لذعة تأنيب مرير ، فقال فى نفسه : « اذن فقد جئت يا بنيتى المسكينة ، يامن كنت أستعجلها وإتشوق اليها ، وأريد أن أقضى معها للعمر كله ! لقد جئت . لقد وثقت بى .. وأنا .. وأنا.. » وأطرق لتفينوف ، ولكن كابيتولينا ماركوفنا لم تمنحه وقتا للتأمل ، بل أخذت تمطره بالاسئلة :

ـ ما هذا البناء ذو الاعمدة ؟ أين يلعبون القمار ؟ من هذه المقبلة ؟ تانيا ! انظرى ياتانيا ! ما أعجب هذه الرافعات ! وهذه من عساها تكون ؟ أظن أكثر هذه المخلوقات من باريس ؟ ياالله ! أى قبعة هذه ! أتجدون كل شيء فى الحوانيت هنا كما فى باريس ؟ ولكن لابد أن الاشياء باهظة الثمن ! هه ؟ يالها من سيدة ذكية نادرة هذه التى تعرفت بها فى القطار ! أنت تعرفها ياجريجورى ميهالتش . وقد وعدت أن تزورنا . ما أروعها حين تنتقد هؤلاء الارستقراطيين ! من هذا السيد ذو الشارب الاشيب ؟ ملك بروسيا ؟ تانيا ، تانيا ، انظرى ! ملك بروسيا ! لا ؟ ليس ملك بروسيا ! سفير هولندا ؟ أنا لا أسمع ! العجلات تكركر كركرة ! آه ! ما أجمل الاشجار !

فوافقتها تاتيانا قائلة :

ـ نعم جميلة ياعمتى ، وما أبهج كل شيء هنا وما أنضره ! أليس كذلك ياجريجورى ميهالتش ؟

فأجاب من بين أسنانه :

ـ نعم ، بهيجة جدا .

ووقفت العربة أخيرا أمام الفندق ، وقاد لتفينوف المسافرتين الى الحجرة التى أعدت لهما . ووعد أن يعود قبل ساعة . وذهب الى حجرته . وما كاد يدخلها حتى استولى عليه من جديد ذلك السحر الذى نام لحظة . هنا فى هذه الحجرة كان عرش ايرينا وتاجها منذ يوم ، كان كل شيء يحدث عنها بلسان فصيح ، والهواء نفسه كأنما علق آثارا خفية منها ... واحس لتفينوف مرة أخرى انه عبدها . أبرز منديلها الذى أخفاه فى صدره ، وضمه الى شفتيه ففاضت فى عروقه الذكريات اللاهبة كالسم الوحى . وعرف ان لانكوص ولا خيرة الآن . لقد ذاب من نفسه العطف الحزين الذى أثارته تاتيانا كما يذوب الثلج فى النار ، وخبا الندم .. خبا حتى اطمأن قلقه ، ولم تعد فكرة الخديعة تثير اشمئزازه ...

الحب ، حب ايرينا .. ذلك هو حقيقته الآن ، هو قانونه ، هو ضميره .. ولم يتمهل لتفينوف العاقل الحريص ليفكر فى النجاة من موقف كان شعوره بفظاعته وشناعته لايتجاوز الخطرة العابرة ، وكأنه أمر لايعنيه .

وما كادت الساعة تمر حتى جاءه خادم الفندق رسولا من النزيلتين الجديدتين . كانتا تسألان أن يلحق بهما فى بهو الفندق. فتبع الرسول ووجدهما فى ملابس الخروج وقبعاتهما على رأسيهما. وأبدت كلتاهما الرغبة فى الخروج على الفور لتريا بادن ، لأن الطقس كان جميلا ، وكانت كابيتولينا ماركوفنا على الخصوص لا تطيق صبرا ، وحزنت حين علمت أن الساعة المختارة للنزهة أمام بهو السمر لم تحن بعد . وأعارها لتفينوف ذراعه ، وانطلقوا للفرجة. وكانت تاتيانا تسير بجانب عمتها وهى تنظر حواليها بتطلع هادىء ، وكابيتولينا ماركوفنا ماضية فى أسئلتها . وكان مرأى الروليت ، والكروبييه ذوى المهابة الذين لو أبصرتهم فى أى مكان آخر لحسبتهم وزراء ، والعصى السريعة الحركة ، وأكوام الذهب والفضة على القماش الاخضر ، والعجائز المقامرات ، والغوانى المتبرجات — كان مرأى ذلك كله باعثا لذهولها الابكم . فنسيت كل النسيان أنها ينبغى أن تثور على ماتراه من فساد ، ولم تستطع الا أن تحدق وتحدق ، وهى تنتفض دهشة لكل منظر جديد .. وكان أزيز العجلة العاجية فى قاع الروليت يبعث الرعدة فى نخاع عظامها ، وانما استعادت قوتها حين خرجت الى الهواء الطلق ، وتنفست نفسا طويلا ، فوصفت القمار بأنه اختراع فاسد من مخترعات الارستقراطية . وارتسمت على شفتى لتفينوف ابتسامة جامدة باردة . وكان يتكلم ببطء واختصار ، وكأنه ضجر أو مغيظ ... ولكن خجلا خفيا اعتراه حين التفت الى تاتيانا . كانت تنظر اليه مليا وكأنها تسأل نفسها ماذا ترى فيه بالتحديد . وأومأ اليها مسرعا ، فأجابته بمثل ايماءته ، وعادت فنظرت اليه متسائلة ، فى شىء من الجهد ، وكأنه واقف فى مكان أبعد مما كان فيه فى الواقع. وانصرف لتفينوف برفقته من بهو السمر ، ومر «بالشجرة الروسية » وقد جلست تحتها سيدتان روسيتان ، واتجه الى شارع اختنتالر. فما كادوا يشرفون على الطريق حتى رأى ايرينا على بعد .

كانت تسير نحوه مع زوجها وبوتوجين . فاستحال لتفينوف

أبيض كالقرطاس ، على أنه لم يبطىء في منشيته ، وانحنى في صمت حين قابلها ، وانحنت له بدورها في أدب يمازجه البرود ، وانسابت عابرة وهي تشمل تاتيانا بنظرة سريعة ... ورفع راتميروف قبعته عالية ، وغمغم بوتوجين بشيء .

سألت تاتيانا فجأة ، ولعلها لم تكن قد فتحت شفتيها قبل تلك اللحظة :

ـ من هذه السيدة ؟

فردد لتفينوف :

ـ هذه السيدة ؟ انها تدعى مدام راتميروف .

ـ أهي روسية ؟

ـ أجل .

ـ هل عرفتها هنا ؟

ـ لا . اني أعرفها من زمن طويل .

ـ ما أجملها !

فقالت كابيتولينا ماركوفنا :

ـ هل لاحظت ثيابها ؟ ان ثمن الوشي وحده يكفي عشر أسر ستة كاملة .

ثم سألت وهي تلتفت الى لتفينوف :

ـ أهذا الذي معها زوجها ؟

ـ نعم .

ـ أتراه فاحش الثراء ؟

ـ لا أدرى في الحقيقة . لا أظن ذلك .

ـ مارتبته ؟

ـ انه جنرال .

ولاحظت تاتيانا :

ـ ما أجمل عينيها ! وما أغرب تعبيرهما ! حالمتان نافذتان في وقت واحد ... لم أر قط مثل هاتين العينين .

فلم يجب لتفينوف . وخيل اليه أنه أحس نظرة تاتيانا المتسائلة مصوبة الى وجهه ، ولكنه كان مخطئا ، فقد كانت تنظر الى رمل الممر تحت قدميها .

وصاحت كابيتولينا ماركوفنا فجأة :

ـ يالله ! من هذه الغول ؟

وأشارت الى عربة خفيفة ، تتمرغ فيها بقحة امرأة حمراء الشعر ،

فطساء الانف ، نافجة المنخرين ، فى ملابس فاخـرة ، وجورب وردى اللون .

ــ هذه الفول ! ان هذه هى المدموازيل كورا الشهيرة .

ــ من ؟

ــ المدموازيل كورا ... باريسية ... مشهورة .

ــ ماذا ؟ هذا الـكلب الصينى ؟ كيف ؟ انها فظيعة !

ــ يظهر أن هذا ليس بعائق .

فلم تستطع كابيتولينا ماركوفنا الا أن ترفع يديها فى دهشة.. وأخيرا قالت :

ــ حسنا . ان هذه البادن تستحق الفرجة ! هل يمكننا الجلوس على هذا المقعد ؟ انى أحس بعض التعب .

ــ طبعا يمكنك يا كابيتوليا ماركوفنا . هذا ما وضعت المقاعد من أجله .

ــ وكيف أعلم ؟ يقولون ان باريس فيهامقاعد على طول الطرق أيضا ، ولـكن لا يليق أن تجلس عليها .

فلم يجب لتفينوف . وفى هذه اللحظة أدرك أن المكان الذى قابل فيه ايرينا مقابلتهما الحاسمة لا يبعد عنه الا خطوتين . ثم تذكر أنه لاحظ منذ قليل بقعة وردية صغيرة على خدها ...

وتهالكت كابيتولينا ماركوفنا على المقعد ، وجلست تاتيانا بجانبها، وظلَّ لتفينوف واقفا فى الممر . وبدا له ــ أو لعله توهم ــ أن شيئا ما قد حدث بينه وبين تاتيانا ... حدث تدريجيا ودون أن يحس .

صاحت كابيتولينا ماركوفنا وهى تهز رأسها بحسرة :

ــ يا القردة الحمقاء ! هذه ثمن ملابسها لا تكفى عشر أسر فقط ، بل مائة . هل لاحظت الماسات فى شعرها الاحمر تحت قبعتها ؟ يا للعجب ! ماسات فى وضح النهار !

فعلق لتفينوف على ملاحظتها قائلا :

ــ ليس شعرها أحمر . انها تصبغه أحمر ، وهذا هو البـدع الآن ...

فلم يسع كابيتولينا ماركوفنا الا أن ترفع يديها مرة أخرى وقد عقلت الدهشة لسانها . وأخيرا قالت :

ــ مثل هذه الفضائح لا توجد عندنا فى درسدن ، والسبب أنها أبعد عن باريس قليلا . الا تظن ذلك ياجريجورى ميهالتش ــ هه؟

فأجاب لتفينوف : « أنا ؟ مؤكد . طبعا . » بينما كان يقول لنفسه : « ترى عن أى شىء تتكلم ؟ »

وفى تلك اللحظة جاء وقع أقدام بطيئة ، واقترب بوتوجين من المقعد ، وبدأ الكلام وهو يومىء مبتسما :

ـ كيف أنت ياجريجورى ميهالتش ...

فأمسك لتفينوف بيده على الفور :

ـ كيف أنت ، كيف أنت ياسوزونت ايفانتش ؟ ألم أقابلك منذ برهة مع ... منذ برهة فى الطريق ؟

ـ أجل هو أنا ..

وانحنى بوتوجين باحترام للسيدتين الجالستين على المقعد .

ـ اسمح لى أن أقدمك للسيدتين ياسوزونت ايفانتش . صديقتان قديمتان وقريبتان لى ، وصلتا الى بادن منذ قليل . سوزونت ايفانتش بوتوجين ، مواطن لنا يزور بادن أيضا .

فنهضت السيدتان عن الكرسى قليلا وانحنى بوتوجين ثانية . ثم بدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول بصوت رفيع ، وكانت السيدة العجوز الطيبة شديدة الخجل ، ولكنها حاولت أن تصطنع العظمة بأية وسيلة :

هذا المكان أشبه بـ réunion (1) . كل واحد يرى النزول فى بادن واجبا لذيذا . فأجاب بوتوجين وهو يلحظ تاتيانا عن عرض :

ـ ان بادن مكان طيب بلا ريب . بادن بلد طيب جدا .

ـ نعم . ولكنها فى الحقيقة شديدة الفخامة على قدر ما أستطيع أن أحكم . لقد عشنا فى درسدن مدة طويلة ، وهى بلدة لطيفة جدا . أما هنا فالمدينة فى الحقيقة أشبه بـ réunion

فقال بوتوجين فى نفسه : « انها معجبة بهذه الكلمة » ، ثم رفع صوته قائلا :

ـ هذه ملاحظة صائبة . ولكن المناظر هنا بديعة ، والموقع قليل النظير . لاشك أن رفيقتك بخاصة سوف تعجب به .

وأردف موجها الحديث الى تاتيانا هذه المرة :

ـ أليس كذلك يا سيدتى ؟

فرفعت تاتيانا عينيها الكبيرتين الصافيتين الى بوتوجين ، وبدت كأنها تسأل نفسها ماذا يطلب منها ، ولماذا قدمها لتفينوف من أول وصولها الى ذلك الرجل الغريب ، وان كان وجهه ينم بطيبة

(1) « اجتماع ، احتفال » .

وذكاء ، ونظراته تعبر عن ود وترحيب ، وأخيرا قالت :
ــ نعم . ان المكان جميل .
وتابع بوتوجين حديثه قائلا :
ــ يجب أن تزورى القلعة القديمة . وأوصيك برحلة السيارة الى ايبرج .
فبدأت كابيتولينا ماركونا تقول :
ــ سويسرا السكسونية ...
وحينئذ رنت فى أرجاء الشارع أصوات آلات النفخ النحاسية ، فقدكانت فرقة راشتات الموسيقية العسكرية تبدأ حفلاتها الموسيقية الاسبوعية فى كشك المدينة (وفى سنة ١٨٦٢ كانت راشتات لاتزال قلعة للحلفاء) .
فنهضت كابيتولينا ماركوفنا قائلة :
ــ الموسيقى ! الموسيقى ! à la Conversation (١) . يجب أن نذهب الى هناك . الساعة بعدالثالثة الآن ... أليس كذلك ؟ أهى الساعة التى يلتقى فيها المجتمع ؟
فأجاب بوتوجين :
ــ نعم ، هذا هو الوقت المفضل عندهم ، والموسيقى هناك ممتازة .
ــ حسنا . اذن فلا نضيع وقتا . تعالى ياتانيا !
فسأل بوتوجين :
ــ أتسمحون لى بمرافقتكم ؟
فدهش لتفينوف جدا ، ولم يخطر بباله قط أن بوتوجين كان مبعوثا من ايرينا .
وابتسمت كابيتولينا ماركوفنا بأدب .
ــ بكل سرور يامسيو ... مسيو ...
فأكمل : بوتوجين . وقدم لها ذراعه . وقدم لتفينوف ذراعه لتاتيانا . وقصد الزوجان بهو السمر .
واسترسل بوتوجين فى حديثه مع كابيتولينا ماركوفنا . أما لتفينوف فسار دون أن ينبس بكلمة ، الا أنه ابتسم مرة أو مرتين بلا داع ، وضغط على ذراع تاتيانا ضغطا خفيفا . ولم تجب تاتيانا على هذه النبضات الكاذبة ، وشعر لتفينوف بكذبه ، فلم تكن تلك النبضات ــ كما كانت فى الايام الخالية ــ تأكيدا للرباط الوثيق

---

(١) « الى بهو السمر » .

بين قلبين متحابين ، بل بديلا وقتيا لكلمات لم يستطع أن يجدها. إن هذا الشيء الصامت الذى حدث بينهما قد نما وازداد قوة . وعادت تاتيانا تنتظر اليه مليا حتى كأنها تتفحصه .

واستمرت هذه الحال حتى جلس الاربعة حول مائدة صغيرة فى بهو السمر مع فارق واحد وهو أن صمت لتفينوف بدا شبه عادى فى ضجة الزحام ورنين الموسيقى . وبلغ نشاط كابيتولينا ماركوفنا قمة حدته بحيث لم يستطع بوتوجين أن يلاحق أسئلتها أو يرضى تطلعها . ثم أسعفه الحظ فجأة بأن ظهر بين الزحام شبح مدام زوهانتشيكوف النحيل بعينيها اللامعتين الوثابتين ، فعرفتها كابيتولينا ماركوفنا على الفور ، ونادتها وأجلستها على مائدتهم ، وقامت عاصفة من الكلام .

والتفت بوتوجين الى تاتيانا ، وبدأ يحادثها بصوت ناعم خفيض، وهو منحن نحوها قليلا ، وعلى وجهه تعبير لطيف ودود ، وكانت هى تجيبه بسهولة وطلاقة دهشت لهما ... كانت سعيدة بأن تتحدث الى ذلك الاجنبى الذى لاتعرفه بينما جلس لتفينوف ساكتا كما كان ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الجامدة الباردة !

وأخيرا حان وقت العشاء . وانقطعت الموسيقى ، وقل الزحام. وودعت كابيتولينا ماركوفنا مدام زوهانتشيكوف وداعا حارا ؛ فقد شعرت نحوها باحترام عظيم ، وان قالت فيما بعد لابنة أخيها : « ان هذه السيدة شديدة التعصب حقا ، ولكنها تعرف كل شيء عن كل انسان . وصحيح أن النساء يجب أن يحصلن على مكنات الخياطة على أثر الزفاف . »

وودعهم بوتوجين ، ورافق لتفينوف السيدتين فى عودتهما . وبينما هم يدخلون الفندق سلمت اليه رقعة ، فانتحى ناحية وفض الغلاف مسرعا ، فرأى على قصاصة صغيرة من الورق هذه الكلمات بالقلم الرصاص : « تعال الى هذا المساء فى الساعة السابعة . دقيقة واحدة ــ أرجوك . ايرينا . » فدس لتفينوف الورقة فى جيبه ، والتفت وقد اصطنع مرة أخرى تلك الابتسامة ... لمن ؟ لماذا ؟ لقد كانت تاتيانا واقفة وظهرها اليه . وتعشوا على مائدة الفندق العامة ، وكان لتفينوف جالسا بين كابيتولينا ماركوفنا وتاتيانا ، وفجأة تملكه مرح غريب فانطلق يثرثر ويحكى الحكايات ، ويصب النبيذ لنفسه وللسيدتين. وأغرى مرحه ضابطا فرنسيا كان يجلس أمامه ، له شارب ولحية على طريقة نابليون

الثالث ، وقد قدم من ستراسبورج ، فلم يتحرج من الاشتراك فى الحديث ، بل وصل الى أن اقترح نخبا à la santé des belles moscovites (١) ولما انتهى العشاء صحب لتفينوف السيدتين الى حجرتهما ووقف عند النافذة عابس الوجه بضع دقائق ، ثم أعلن فجأة أنه مضطر الى الخروج فترة قصيرة لبعض الاعمال ، ولكنه لابد سيعود قبل المساء .

ولم تقل تاتيانا شيئا ، ولكنها شحبت ونكست بصرها . وكان من عادة كابيتولينا ماركوفنا أن تنام قليلا بعد العشاء ، وكانت تاتيانا تعلم حق العلم أن لتفينوف يعرف هذه العادة من عمتها ، وتتوقع أن ينتهز هذه الفرصة ليبقى معها ، فانه لم ينفرد بها ولا تطلق فى الحديث معها منذ مجيئها . ولكنه ذاهب ! ما معنى هذا ؟ الحق أن سلوكه طول اليوم ...

وانصرف لتفينوف مسرعا قبل أن يسمع اعتراضا ، ورقدت كابيتولينا ماركوفنا على الاريكة ، وبعد أن زفرت زفرتين، وأنت أنتين ، سبحت فى نوم هادىء مهيب . بينما انتحت تاتيانا ركنا ، وجلست على كرسى واطىء ، وقد شبكت ذراعيها على صدرها .

---

(١) « في صحة المسكوفيتيين الحسناوين ! » .

صعد لتفينوف درج « فندق أوروبا » مسرعا ، فأوقفته بنت صغيرة فى الثالثة عشرة ، ذات وجه صغير ماكر وسحنة كلموكية ، وقالت له بالروسية : « تفضل من هذا الطريق . ايرينا بافلوفنا ستكون هنا حالا . » ونظر اليها فى حيرة فابتسمت وكررت : « تفضل . تفضل . » وقادته الى حجرة صغيرة مواجهة لمخدع ايرينا ، غاصة بصناديق المتاع وحقائب السفر ، ثم اختفت لتوها وهى تغلق الباب بخفة . ولم يكد لتفينوف ينظر حوله حتى فتح الباب ووقفت ايرينا أمامه فى ثوب سهرة وردى اللون ، وحول جيدها وفى شعرها لآلىء . اندفعت نحوه اندفاعا ، وقبضت عليه بكلتا اليدين ، وبقيت لحظات لا تستطيع كلاما ، وعيناها تلمعان ، وصدرها يعلو ويهبط كأنها صعدت جبلا وهى تجرى . بدأت تقول فى همس معجل :

ــ لم أستطع أن أستقبلك ... هناك . نحن ذاهبان بعد قليل الى حفلة عشاء ولـكنى أردت قبل كل شىء أن أراك ... أظن تلك التى قابلتها معك اليوم خطيبتك ؟

فأجاب لتفينوف :

ــ أجل ، انها كانت خطيبتى .

وضغط على كلمة « كانت » .

ــ لقد أردت أن أراك دقيقة واحدة لأخبرك انك يجب أن تعد نفسك مطلق الحرية ، وأن ما حدث البارحة يجب الا يؤثر فى خططك

ــ ايرينا ! لم تقولين هذا ؟

لفظ هذه الـكلمات بصوت عال ، وكانت فيها رنة عاطفة غشوم . فأغمضت ايرينا عينيها دقيقة بحركة لا ارادية ، ومضت تقول وقد زاد همسها خفوتا ، كما زاد انفعالها جموحا :

ــ آه ياحبيبى ! انك لا تدرى كم أحبك ، ولـكنى لم أزد أمس على أن أديت دينى ، ومحوت اثم الماضى ... آه ! لم أستطع أن أمنحك شبابى كما كنت أتمنى ، ولـكنى لم ألزمك بشىء ، ولم

أكلفك وعدا أيها الغالي ! افعل ما بدالك ، أنت طليق كالهواء ، لا شيء يقيدك ، لا شيء مطلقا ، أريد أن تعلم ذلك !

فقاطعها لتفينوف هامسا هذه المرة :

ـ ولكنني لا أستطيع أن أحيا بدونك يا ايرينا ، أنا لك أبدا ، منذ أمس ... لا أستطيع أن أتنفس الا عند قدميك ...

وانحنى يقبل يديها وقد شملته رعدة . وحدقت ايرينا في رأسه المنحني . قالت :

ـ اذن فاعلم أنني أيضا على استعداد لكل شيء . انني أيضا لن أبالي بأحد ولا بشيء . كل ماتراه نافذ . أنا أيضـــا لك الى الأبد ... لك .

ونقر على البـــاب نقرة حذرة . وانحنت ايرينا وهمست مرة أخرى : « وداعا ! » .

وأحس لتفينوف مر أنفاسها ومس شفتيها على شعره . وحين وقف كانت قد غادرت الحجرة ، الا أن ثوبها كان يحف في الدهليز، وجاء صوت راتميروف من بعد: Eh bien, Vous ne venez pas (١)

جلس لتفينوف على صنـــدوق مرتفع وغطى وجهـه بيـديه ، واستنشق عطرا أنثويا خفيا نديا ... لقد أمسكت ايرينا يده بين يديها . وقال في نفسه : « هذا كثير ، هذا كثير» ، ودخلت البنت الصغيرة الحجرة ، وابتسمت مرة أخرى جوابا على نظرته القلقة ، وقالت :

ـ تفضل بالمجيء معي الآن ...

فنهض وخرج من الفندق . وكان عبثا أن يفكر في العودة الى مسكنه وهو في حاجة الى أن يتماسك أولا ، وكان قلبه يدق دقا عنيفا مضطربا ، والارض كأنها تميد تحت قدميه . وعاد لتفينوف يمشي في شارع لختنتالر ، وأدرك أن اللحظة الحاسمة قد حانت، ولم يعد في مقدوره أن يرجيء الأمور ، وأن يروغ من نفسه ويتعامى عن الواقع . كان لابد من جلاء الأمر مع تاتيانا . وتخيلها جالسة هناك لا تبدر منها نأمة ، وهي تنتظر عودته ... وتخيل ماسيقوله لها ، ولـكن كيف يقول ، وكيف يستطيع أن يبدأ ؟ لقـد طرح مستقبله الشريف الرزين المنظم وراء ظهره ، وكان يعلم أنه يلقي بنفسه الى هاوية يجزع المرء من مجرد النظر اليها .. ولـكنه لم يكن يبالي بذلك ، فقد قرره وانتهى منه ، انما الباقي :كيف يواجه

(١) « حسنا ، ألا تأتين ؟ » .

قاضيه ؟ ويا ليته كان قاضيا ! ليته كان ملاكا بسيف من نار ، فذلك أهون على القلب المذنب ... ولكن كان عليه هو أن يغمد السكين فى ... يا للشناعة ! هل يرجع ويتخلى عن الثانية ، هل يستغل الحرية التى منحتها اياه ، واعتبرتها حقه ؟.. لا ! الموت خير من ذلك ! لا ، انه لايريد هذه الحرية البغيضة ... بل يمرغ نفسه فى التراب راضيا فى سبيل نظرة حب من هاتين العينين

وقال صوت حزين :

ــ جريجورى ميهالتش !

وحطت يد ثقيلة على كتف لتفينوف . فالتفت وراءه بشىء من الفزع ، وعرف بوتوجين .

وبدأ هذا يقول بحيائه المألوف :

ــ معذرة ياجريجورى ميهالتش ، أخشى أن يضايقك ، ولكنى رأيتك من بعد ، ففكرت ... أما ان كنت لاتريدنى ...

فتمتم لتفينوف من بين أسنانه :

ــ على العكس ، أنا سعيد برؤيتك ..

فسار بوتوجين بجانبه وبدأ يقول :

ــ مساء جميل . هذا الدفء ! هل سرت طويلا ؟

ــ لا ..

ــ ما كان أغنانى عن السؤال ! لقد رأيتك منذ قليل خارجا من « فندق أوروبا » .

ــ اذن فقد كنت تتبعنى ؟

ــ أجل .

ــ ألديك ما تريد أن تقوله لى ؟

ــ فكرر بوتوجين بصوت لا يكاد يبين :

ــ نعم ..

ووقف لتفينوف . ونظر الى رفيقه الذى جاء بلا دعوة . كان وجهه شاحبا ، وعيناه زائغتين ، وملامحه المتقلصة كأنما ران عليها حزن مقيم .

قال لتفينوف ببطء وهو يتقدم :

ــ ما الذى تريد قوله بالضبط ؟

ــ اسمح لى .. سأخبرك بعد لحظة . لنجلس على هذا الكرسى ، ان لم يكن عندك مانع . هذا أروح .

فقال لتفينوف وهو يجلس بجانبه :

ـ هل فى الأمر سر ؟ انك تبدو مضطربا ياسوزونت ايفانتش.
ـ لا ، أنا بخير ، وليس فى الأمر سر أيضا . انما أردت أن أخبرك ... برأيى فى خطيبتك ... أظنها مخطوبة لك ؟.. على كل حال ، أنا أعنى الشابة التى قدمتنى اليها اليوم . الحق أنى لم ار فى حياتى انسانة أجدر منها بالحب. قلب من ذهب. ملاك كريم.

نطق بوتوجين بكل هذه الكلمات دون أن تفارقه مرارته وحزنه، حتى أن لتفينوف نفسه راعه التناقض الغريب بين سيماه وكلامه .

وبدأ لتفينوف يقول :

ـ انك مصيب فيما قلته عن تاتيانا بتروفنا . ولكن يجب أن أقول لك انى دهش لمعرفتك بالرابطة التى بينى وبينها ، ثم لاستطاعتك أن تفهمها بهذه السرعة . حقا انها ملك كريم . ولكن اسمح لى أن أسألك : أهذا ما أردت أن تبحثه معى ؟

فمضى بوتوجين يقول وكأنه يتجنب السؤال الاخير :

ـ كل من رآها لابد أن يفهمها . حسب المرء أن ينظر الى عينيها . انها جديرة بكل سعادة ، وسعيد ذلك الرجل الذى قسم له أن يسعدها ! ليته يثبت أنه جدير بمثل هذا الحظ العظيم .

فعبس لتفينوف قليلا وقال :

ـ معذرة ياسوزونت ايفانتش . ان محادثتنا تبدو لى غريبة ، فريدة ... أود أن أعلم هل تعنينى بما قلته الآن ؟

فلم يجب بوتوجين على الفور ، وكان جليا أنه يجاهد نفسه. واخيرا بدأ يقول :

ـ جريجورى ميهالتش ! اما انى مخطىء كل الخطأ فى تقديرك، واما انك قادر على أن تسمع الحق من أى انسان جاء ، وفى أى صورة كريهة ظهر . لقد اخبرتك الآن انى رأيت من أين قدمت .

ـ أجل . من فندق أوروبا . وأى بأس فى ذلك ؟

ـ انى أعلم من كنت تزور .

ـ ماذا ؟

ـ لقد كنت عند مدام راتميروف .

ـ حسنا ، لقد كنت عندها . ثم ماذا ؟

ـ ثم ماذا ؟.. انت خطيب تاتيانا بتروفنا . وقد كنت عند مدام راتميروف ، التى تحبها ... وتحبك .

فانتفض لتفينوف واقفا ، واندفع الدم الى راسه ، واخيرا قال بصوت كظيم :

ـ ما هذا ؟ مزاح سخيف ؟ تجسس ؟ ارجو أن توضح لى أمرك !

فحول اليه بوتوجين نظرة ضعيفة :

ـ آه ! لا تغضب ياجريجورى ميهالتش . أنا لن اغضب مهما تقل . انى لم ابداك بالحديث من أجل هذا ، وليست لى رغبة فى المزاح .

ـ ربما ، ربما . أنا مستعد أن أثق بحسن نيتك . ولكنى أسألك : بأى حق تقحم نفسك فى دخائل رجل آخر ، وعلى أى أساس تتقدم واثقا ... باختراعك على انه حقيقة ؟

ـ اختراعى ! لو كنت اخترعته لما أثار حنقك . أما حقى فانى لم أسمع من قبل أن الرجل ينبغى أن يسائل نفسه عن حقه فى أن يمد يده الى غريق .

فصاح لتفينوف باندفاع :

ـ أنا شاكر وممتن لعنايتك. ولكنى لست بحاجة اليها مطلقا. وكل ما يقال عن الشباك التى تنصبها نساء المجتمع للشبان الاغرار ... وعن انحلال المجتمع الراقى . الخ ـ كل هذا أراه مجرد كلام ، كلام تافه غث ، ولهذا أتوسل اليك أن تريح ذراعك المنقذة ، وأن تدعنى أغرق فى سلام .

فرفع بوتوجين عينيه مرة أخرى الى لتفينوف ، وحشرجت انفاسه ، وارتعدت شفتاه ، وأخيرا انفجر صائحا وهو يصك صدره :

ـ انظر الى أيها الشاب . هل ترانى أشبه أخلاقيا أو واعظا عاديا راضيا عن نفسه ؟ الا تفهم أن اهتمامى بك ، مهما يكن عظيما ، ما كان ليدفعنى الى أن انطق بكلمة واحدة تجعل لك الحق فى أن تتهمنى بشر ما أكره : بالتطفل والفضولية ؟ الا ترى أن الأمر مختلف جدا ، وأن أمامك رجلا حطمته ـ بل محته محوا ـ تلك العاطفة التى يريد أن ينقذك من عواقبها ... نحو المرأة نفسها ؟

فتراجع لتفينوف خطوة :

ـ أهذا ممكن ؟ ماذا قلت ؟.. أنت ... أنت ... ياسوزونت ايفانتش ؟ ولكن مدام بيلسكى .. ذلك الطفل ؟

ـ آه . لاتستجوبنى !.. بل صدقنى ! انها قصة سوداء مروعة ، ولن أخبرك بها . انى لم أكد أعرف مدام بيلسكى ، وهذه الطفلة ليست بنتى ، ولكنى حملت المسئولية كلها ...

لأن ... لأنها هي أرادت ذلك ، لأنه كان ضروريا لها هي . لماذا أنا هنا في هذه البلدة الكريهة ؟ هل تظن ـ هل تستطيع أن تتخيل لحظة أني كنت أجرؤ على انذارك لمجرد العطف عليك ؟ اني آسف لتلك الفتاة الطيبة الحلوة ، خطيبتك ، ولكن ما شأني بمستقبلكما، ما شأني بكما معا ؟.. انما أخاف عليها ... عليها هي .

ـ أنت تسدى الى شرفا عظيما ياسيد بوتوجين . ولكن مادامت حالك من حالي ، كما تقول ، فلماذا لا توجه مثل هذا النصح الى نفسك ؟ ألا أنسب مخاوفك الى شعور آخر ؟

ـ أتعنى الغيرة ؟ آه أيها الشاب ، أيها الشاب ، الا تخجل أن تراوغ وتغالط ، الا تخجل اذ تجهل أي حزن مرير يكلمك الآن من شفتي ! لا ، ليست حالي من حالك ! أنا ـ أنا رجل هرم مضحك ، شيخ أبله لايؤبه له ـ أما أنت ! ولكن ماحاجتنا الى الحديث عن ذلك ؟ انك لا تقبل لحظة واحدة أن تشغل المكان الذي أشغله شاكرا ! الغيرة ! لايغار من لم يحظ قط بقطرة من أمل . ولو كنت أغار لما كانت هذه أول أسباب الغيرة . لست خائفا الا ... الا عليها . اعلم ذلك . وهل كان بوسعي أن أتوقع ـ حين أرسلتني اليك ـ أن شعورها بالذنب نحوك ـ وقد اعترفت لي به ـ سوف يذهب بها الى هذا المدى ؟

ـ ولكن معذرة ياسوزونت ايفانتش ، يبدو انك تعلم ...

ـ أنا لا أعلم شيئا ، وأعلم كل شيء ! ـ وزاد وهو يلتفت : أنا أعلم أين كانت ليلة أمس . انها لن يكبح لها جماح منذ اليوم . انها كحجر تدحرج ، فلابد أن يتدحرج حتى القرار . واني لأحمق ان تخيلت أن كلماتي سوف تردك على الفور ... أنت ، حين تكون امرأة كهذه ... لكن دعنا من هذا . اني لم أملك نفسي ، وهذا كل عذري . ولكن من يدري ؟ وماذا تضر المحاولة ؟ لعلك تفكر في الأمر مرة أخرى . لعل كلمة من كلماتي تنفذ الى قلبك ، فتنثني عن تحطيمها ، وتحطيم نفسك ، وتحطيم هذه المخلوقة البريئة الحلوة ... آه ! لا تغضب ، ولا تدق الارض بقدمك ! ماذا أخاف؟ ولماذا أحتشم ؟ ليست الغيرة هي التي تتكلم في ، لا ، ولا الغضب ... اني على استعداد لأن أركع عند قدميك ، لأن أتضرع اليك . لكن وداعا . لاحاجة بك الى القلق ، فسيبقى هذا كله سرا . ما أردت لك الا الخير .

وخطا بوتوجين خطوات واسعة على الطريق اللاحبة ، واختفى في

الظلام المغطش ، ولم يستبقه لتفينوف .

« قصة سوداء مروعة ، هكذا قال بوتوجين للتفينوف »، ولكنه أبى أن يخبره بالقصة .. فلنعرج عليها ببضع كلمات فحسب :

حدث منذ ثمانى سنوات أن ندبته مصلحته للعمل مع الكونت ريزنباخ . وكان ذلك فى الصيف ، واعتاد بوتوجين أن يركب عربة الى الكرمة الريفية ومعه الاوراق ، ويمكث هناك أياما كاملة متعاقبة ، وكانت ايرينا تعيش اذ ذاك بمنزل الكونت ، ولم تكن تترفع عمن دونها ، أو على الاقل لم تكن تزدريهم ، وقد آخذتها الكونتة غير مرة على تبسطها المسكوفى المفرط . فسرعان ما استكشفت ايرينا فى الكاتب المتواضع رجلا ذكيا مخبأ فى السترة المحكمة التى كانت بزته الرسمية . واعتادت أن تجاذبه الحديث فى حماسة وانطلاق ، أما هو .. فقد أحبها .. أحبها حبا قويا عميقا مكتوما ... مكتوما ! هذا ما كان يظنه هو . ومضى الصيف ، واستغنى الكونت عن معونته ، وغابت ايرينا عن عينى بوتوجين، ولكنه لم يستطع أن ينساها . وبعد ثلاث سنوات تلقى على غير انتظار دعوة من سيدة من الطبقة الوسطى لم تكن له بها الا معرفة يسيرة ، واضطربت السيدة أول الأمر وهى تشرح له الغرض من دعوتها ، ولكنها بعد أن استحلفته الا يبوح بشىء مما سيسمعه ، عرضت عليه ... أن يتزوج فتاة ، كانت لها فى المجتمع مكانة مرموقة ، ولم يكن لها بد من الزواج . ولم تكد السيدة تجرؤ على الاشارة الى الرجل الذى كان محور القصة . ثم وعدت بوتوجين بمال ... بمقدار جسيم من المال . ولم يثر بوتوجين ، فقد خنقت الدهشة فى نفسه كل شعور ، ولكنه رفض رفضا باتا . وعندئذ ناولته السيدة كلمة مكتوبة — من ايرينا . واذا فيها : « أنت رجل نبيل كريم ، وأنا أعلم أنك ترضى بأن تفعل أى شىء من أجلى . انى أسألك هذه التضحية . ستنقذ شخصا عزيزا على جدا . وبانقاذك اياها ستنقذنى أيضا ... لاتسلنى كيف . لم أكن لأتوجه بهذا الى أحد غيرك ، ولكنى أمد يدى اليك وأقول . افعل هذا من أجلى » . وفكر بوتوجين ثم قال انه حقا على استعداد لأن يفعل أشياء كثيرة من أجل ايرينا بافلوفنا ، ولكنه يود أن يسمع رغبتها من بين شفتيها . وكان اللقاء فى المساء نفسه ، ولم يدم طويلا ، ولم يعرف به أحد الا تلك السيدة نفسها ، ولم تكن ايرينا تقيم اذ ذاك فى منزل الكونت ريزنباخ .

سألها بوتوجين :

ـ ما الذى حداك الى التفكير فى أنا ، دون الناس جميعا ؟

فبدأت تفيض فى الثناء على صفاته النبيلة ، ولكنها توقفت فجأة ... وقالت :

ـ كلا . يجب أن تعلم الحقيقة . أنا أعرف انك تحبنى ، وهذا ماجعلني أفرر ....

ثم أخبرته بكل شيء .

لقد كانت اليزا بيلسكي يتيمة ، وكان أقاربها يكرهونها ، ويطمعون فى ميراثها ... وكانت فى محنة ، وبانقاذها أرادت ايرينا أن تخدم الرجل الذى كان سببا فى محنتها والذى أصبحت له الآن علاقة وثيقة بايرينا نفسها ... ونظر بوتوجين الى ايرينا نظرة طويلة ، ولم يتكلم ، ووافق ، فبكت ، وانطرحت على عنقه ودموعها تنهمر . وبكى هو أيضا ... ولكن دموعهما كانت جد مختلفة . وكان كل شيء قد أعد للزواج المكتم . كانت يد قوية تزيح كل العقبات ... ولكن جاء المرض ... ثم ولدت طفلة ، واذا بالأم بعد ذلك ... تشرب السم . فماذا يكون من أمر الطفلة ؟ لقد كفلها بوتوجين ، بعد أن تلقاها من اليدين نفسيهما ، يدى ايرينا.

قصة مروعة سوداء ... فلنعد عنها أيها القراء ، فلنعد عنها !

مضى أكثر من ساعة قبل أن يحمل لتفينوف نفسه على العودة الى فندقه . ولما قاربه سمع من خلفه وقع خطا ، وخيل اليه أنها تتبعه بالحاح ، وتسرع كلما أسرع ، فلما مر لتفينوف تحت عمود مصباح التفت وراءه وعرف الجنرال راتميروف .

وكان راتميروف عائدا وحده من الحفلة ، ومعطفه مفتوح ، وعلى صدره رباط عنق أبيض وعدد من النجوم والصلبان فى سلسلة ذهبية معلقة بعروة سترته . وثبت عينيه على لتفينوف ببغض واحتقار ، وبدا فى مظهره كله تحد واستفزاز حتى اضطر لتفينوف أن يتقدم ليلقاه ويواجه « الفضيحة » وان كره . لكن وجه الجنرال نفر فجأة حين حاذاه لتفينوف ، وعاودته رقته اللاعبة المألوفة ، ولوحت يده فى قفازها ذى اللون الاصفر الخزامى ، رافعة قبعته الصغيرة فى الهواء . فرفع لتفينوف قبعته صامتا ، ومضى كل فى طريقه .

وفكر لتفينوف : « لاشك انه لاحظ شيئا ! »

وفكر الجنرال : « ليته على الاقل كان ... شخصا آخر! »

وكانت تاتيانا تلعب الورق مع عمتها حين دخل لتفينوف حجرتها، فصاحت كابيتولينا ماركوفنا وهي تلقى بأوراقها :

ــ والله انك شاب ظريف ! أول يوم ، وتغيب طول المساء ! لقد انتظرنا وانتظرنا ! وقلنا فيك وأعدنا ..

فعقبت تاتيانا :

ــ أنا لم أقل شيئا ياعمتى .

ــ أوه ، انك الطيبة نفسها ، كلنا نعلم ذلك ! يجب أن تخجل ياسيدى ! هل نسيت أنك خطيب ؟

وانتحل لتفينوف ما استطاع من أعذار ، وجلس الى المنضدة . قال بعد صمت قصير :

ــ لماذا قطعتما اللعب ؟

ــ سؤال ظريف ! اننا كنا نلعب من السأم ، ولم يكن لدينا ما نعمله ... اما الآن فأنت هنا .

فقال لتفينوف :

ــ اذا كنتما تحبان الاستماع الى موسيقى المساء فانه يسعدنى أن أذهب معكما .

فنظرت كابيتولينا ماركوفنا الى ابنة اخيها . قالت تاتيانا :

ــ نذهب ياعمتى . أنا مستعدة . لكن ... اليس الافضل أن نبقى هنا ؟

ــ من غير شك ! نشرب شاينا المسكوفى ، شاى السماور ، ونتكلم حتى نشبع ، فاننا لم نكد نتحدث .

وطلب لتفينوف شايا . الا أن الحديث المشبع لم يتيسر ، لقد كان لتفينوف معذب الضمير ، كلما تكلم خيل اليه أنه يكذب ، وأن تاتيانا تفضح كذبه . ولكنها لم يبد عليها تغير ما ، بل كان سلوكها عاديا لا تكلف فيه ولا تحفظ ... ولو أن عينيها لم تثبتا على لتفينوف قط ، بل كانتا تنزلقان عنه فى تسامح خائف ، ووجهها كان يعلوه شحوب غير عادى . فسألتها كابيتولينا ماركوفنا هل تشعر بصداع ؟

وهمت تاتيانا بأن تقول لا ، ولكنها قالت بعد تفكير قصير :

ــ نعم ، قليلا .

فقال لتفينوف .

ــ انها الرحلة .

واحمر وجهه خجلا .
ورددت تاتيانا :
ـ نعم ، الرحلة .. وانزلقت عيناها عنه مرة أخرى .
ـ يجدر بك أن تستريحى ياحبيبتى تانيا .
ـ نعم . سأنام بعد قليل ياعمتى .
وكان على المنضدة نسخة من Guide des Voyageurs (١) .
فأخذ لتفينوف يقرأ فيه بصوت مرتفع وصف ضـواحى بادن .
وقاطعته كابيتولينا ماركوفنا قائلة :
ـ تماما . ولـكن يجب الا ننسى شيئا : لقد سمعت ان نسيج الـكتان هنا رخيص جدا ، فيجب أن نشترى شيئا منه للجهاز .
وغضت تاتيانا بصرها .
ـ الوقت واسع ياعمتى . انك لا تفـكرين فى نفســك ابدا . يجب أن تشترى لك بعض الملابس . أنت ترين أناقة الناس هنا.
ـ ياحبيبتى ! ما فائدة ذلك ؟ الاناقة ليست مطلبى. قد يختلف الحال لو كنت حسناء كصديقتك ياجريجورى ميهالتش . ما اسمها؟
ـ أية صديقة ؟
ـ التى قابلناها اليوم .
فقال لتفينوف وهو يتصنع عدم الاكتراث :
ـ أوه ، هذه !
وشعر بالتقزز والخجل مرة أخرى ، وقال لنفسه : « لا ، لا يمكن أن تستمر هذه الحال . لقد كان جالسا بجانب خطيبته ، وفى جيبه ـ على قيد بوصات منها منديل ايرينا . وغابت كابيتولينا ماركوفنا لحظة فى الحجرة الاخرى ، فقال لتفينوف بجهد :
ـ تانيا ...
وكانت أول مرة يناديها باسمها فى ذلك اليوم ، فالتفتت اليه :
ـ أنا ... لدى شىء هام أريد أن أقوله لك .
ـ أوه ! حقا ؟ ؟ متى ؟ الآن ؟
ـ لا . غدا .
ـ غدا . حسن جدا .
وفاض قلب لتفينوف بحنو لا حد له . وتناول يد تانيا وقبلها بخشوع كأنه آثم . فانقبض قلبها ولم تفرح بقبلته .

(١) « دليل السياح » .

ورفعت كابيتولينا ماركوفنا رأسها فجأة فى الساعة الثانية ليلا، وانصتت ، وكانت تنام مع ابنة أخيها فى حجرة واحدة . قالت :

ــ تانيا ! أتبكين ؟

فلم تجب تانيا على الفور . ثم ارتفع صوتها اللطيف :

ــ لا ياعمتى . لقد أصابنى برد .

سأل لتفينوف نفسه صباح اليوم التالى ، وهو جالس أمام نافذة حجرته : « لماذا قلت لها ذلك ؟ » وهز كتفيه بحنق . انه قال ذلك لتاتيانا ليقطع على نفسه كل سبيل للتراجع . وكانت على النافذة ورقة من ايرينا تسأله فيها أن يزورها فى الساعة الثانية عشرة ، وكانت كلمات بوتوجين لا تزال تساوره ، وكأنها تصل اليه بصوت خافت منحوس ، كصوت قرقرة تحت الارض . وكان ساخطا على نفسه ، ولم يستطع أن يتخلص من هذه الكلمات . وطرق الباب . فسأل لتفينوف :

— wer da ? (١) .

فسمع صوت بنداسوف الأجش :

— آه ! انت هنا ! افتح !

وصرت أكرة الباب . وأبيض لون لتفينوف من الغضب . صاح بحدة :

— لست هنا .

— لست هنا ! يالها من دعابة ظريفة !

— أقول لك انى لست هنا ، انصرف !

فزمجر بنداسوف :

— ما أكرمك ! لقد جئت أسألك قرضا صغيرا .

على أنه مشى يدق الارض بكعبه كعادته .

وكاد لتفينوف يعدو خلفه ، فقد تاق توقا الى أن يخنق ذلك الصعلوك البغيض . كانت حوادث الايام القليلة الماضية قد أوهنت أعصابه ، ولم يكن بينه وبين البكاء الا القليل . وشرب كوب ماء بارد ، وأغلق كل درج فى الغرفة دون أن يعلم لم يفعل ذلك ، ثم ذهب الى تاتيانا .

وجدها وحيدة ، فقد ذهبت كابيتولينا ماركوفنا الى السوق . وكانت تاتيانا جالسة على الاريكة ، ممسكة بكلتا يديها كتابا ، ولم

---

(١) « من هناك ؟ » .

تكن تقرأ فيه ، ولا تعرف أى كتاب هو . لم تتحرك ، ولـكن قلبها دق فى صدرها دقا سريعا ، وارتعشت الياقة البيضاء حول عنقها ارتعاشا ظاهرا منتظما .

واضطرب لتفينوف ... ولـكنه جلس بجانبها وقال : « صباح الخير » ، وابتسم ، وابتسمت له أيضـا بلا كلام . وكانت قـد انحنت له حين دخل ، انحنت له فى أدب وكأنه غريب ، ولم تنظر اليه ، ومد اليها يده فأسلمته أصابعها الباردة ، ولكنها سحبتها بسرعة ، وأمسكت الـكتاب ثانية . وشعر لتفينوف أنه ان بدأ الحديث فى موضوعات تافهة كان ذلك اهانة لتاتيانا . أما هى فلم تطالبه بشىء كعادتها ، ولـكن كل ما فيها كان يقول بجلاء : « انى منتظرة ، انى منتظرة » ... عليه أن ينجز وعده ، الا أنه — وأن قضى أكثر الليل يفكر فى هذا الأمر دون غيره — لم يكن قد أعد ما يقول ، حتى ولا الـكلمات الممهدة الاولى ، فلم يدر كيف يقطع ذلك الصمت القاسى .

وأخيرا بدأ يقول :

— تانيا . لقد أخبرتك أمس بأن لدى شيئا هاما أريد أن أقوله لك ، وانى على استعداد لذلك ، لـكنى أسـألك أولا الا تغضبى على ، وأن تؤمنى بأن مشاعرى نحوك ...

وتوقف ليلتقط أنفاسه ، وظلت تاتيانا ساكنة لا تنظر اليه ، ولم تزد على أن شدت قبضتها على الـكتاب .

ومضى لتفينوف يقول دون أن يتم الجملة التى بدأها :

— لقد كانت بيننا دائما صراحة تامة . ان اجلالى لك أعمق من أن أستطيع خداعك . أريد أن ابرهن لك على تقـديرى لنبلك وشجاعتك ومع اننى ... مع اننى طبعا ...

فبدأت تاتيانا تتكلم بصوت متزن ، بينما غشى وجهها كله شحوب كشحوب الموت :

— هأنذى أساعدك ياجريجورى ميهالتش : انك لم تعد تحبنى ، ولا تدرى كيف تخبرنى بذلك .

فانتفض لتفينوف . قال وهو لا يكاد يبين :

— لماذا ؟ .. لماذا تظنين ؟ .. أنا فى الحقيقة لا أفهم ...

— ماذا ، أليس هذا حقا ؟ — أخبرنى ، أخبرنى .

ودارت تاتيانا الى لتفينوف حتى واجهته ، وكان شعرها مرسلا الى الخلف ، فكاد وجهها يلامس وجهه ، وبدت عيناها — اللتان لم

تنظرا اليه منذ أمد – وكأنهما تتسبران عينيه . وأعادت :
– أليس هذا حقا ؟

فلم يقل شيئا ، ولم ينبس بصوت . ولو علم انها ستصدقه وان كذبه سينقذها لما استطاع أن يكذب فى هذه اللحظة . بل انه لم يستطع أن يواجه عينيها المثبتتين عليـه . لم يقل لتفينوف شيئا ، ولكنها لم تحتج الى جواب ، لقد قرات الجواب فى صمته، فى تلك العينين المذنبتين الذليلتين . وارتدت فى كرسيها ، وتركت الـكتاب يسقط من يدها ... لقد كانت تشك الى هذه اللحظة ، وكان لتفينوف يفهم ذلك ، كان يفهم انها غير موقنة – ويا لبشاعة ما عمل ، يا لبشاعة ما عمل !

انطرح على ركبتيه أمامها مناديا :

– تانيا ! ليتك تعلمين مقـدار تعاستى وأنا اراك هكذا ... مقدار فزعى حين أفكر أننى أنا ... الذى فعلت هذا ! ان قلبى يتمزق . أنا لا أعرف نفسى . لقد فقدت نفسى ، وفقدتك ، وفقدت كل شىء ... لقد ضاع كل شىء يا تانيا ، كل شىء ! هل كنت أظن أنى أنا ... أنى أنا سأسىء اليك هذه الاساءة ، يا أعز صديق، ياملاكى الحارس ..؟ هل كنت أظن أننا سنلتقى مثل هذا اللقاء ، وسنقضى يوما مثل امس ! ..

وهمت تانيا بأن تنهض وتذهب ، فأمسك بحاشية ثوبها .

– لا . أصـغى الى دقيقـة أخرى . هأنذا راكع على ركبتى أمامك ، ولـكنى لم آت لأسألك المغفرة ، فانك لا تستطيعين أن تغفرى لى ، ولا ينبغى أن تغفرى لى. لقد جئت اخبرك أن صديقك ضاع ، انه يسقط فى الهاوية ولا يريد أن يجرك معه ... ولا أمل فى انقاذى ! حتى أنت لا تستطيعين انقاذى ، ولو حاولت لدفعت بك بعيدا . لقد ضعت ياتانيا ! لقد ضعت وانتهيت !

نظرت تانيا الى لتفينوف ورددت وكأنها لم تحسن الفهم :
– ضعت ؟ ضعت ؟

– أجل ضعت ياتانيا. كل ماضى ، كل ما أحببته ، كل ماعشت من أجله حتى الآن – كل ذلك ضاع . كل شىء تحطم وخرب ، ولا أدرى ماذا ينتظرنى . لقد قلت الآن انى لم أعد أحبك ... لا ياتانيا ، أنا مازلت أحبك ، ولـكن عاطفة غير هـذه ، عاطفة قاهرة مخيفة – جرفتنى كالشلال ... لقد حاربتها جهـــد استطاعتى ...

فنهضت تاتيانا وقد انعقد حاجباها واربد وجهها الشاحب . ووقف لتفينوف أيضا .
بدأت تقول :
ـ أنت تحب امرأة اخرى ، وأنا أحدس من هى ... لقد قابلناها امس. أليس كذلك ! حسنا ، انى أعلم الآن ماذا يمكننى عمله . مادمت أنت نفسك تقول ان هذه العاطفة لايمكن ان تتغير (وتوقفت تاتيانا لحظة ، ولعلها كانت لا تزال تأمل الا يدع لتفينوف هذه الكلمة الاخيرة تمر دون اعتراض ، ولكنه لم يقل شيئا) اذن فليس لى الا أن أرد اليك ... كلمتك .
فحنى لتفينوف رأسه ، وكأنه يتلقى فى خضوع ضربة يستحقها كل الاستحقاق .
قال :
ـ لك كل الحق أن تغضبى على . لك كل الحق أن تؤنبينى على ضعفى ... وخداعى ...
فنظرت اليه تاتيانا مرة أخرى .
ـ أنا لم أؤنبك يا لتفينوف ، ولست أتهمك . انى أوافقك ، فالحقيقة ، مهما تكن مرة ، أهون مما كان بالامس . أية حياة كانت تصير حياتنا الآن ؟
فارتد الصدى حزينا فى نفس لتفينوف :
ـ أية حياة تصير حياتى الآن !
وذهبت تاتيانا نحو باب المخدع :
ـ أسألك أن تتركنى وحدى قليلا ياجريجورى ميهاليتش . سوف نتقابل مرة أخرى . سوف نتحدث مرة أخرى . لقد كان هذا كله غير متوقع . يجب أن أتمالك ... اتركنى ... أبق على كبريائى ... سوف نتقابل مرة أخرى .
وتراجعت تاتيانا مسرعة وهى تنطق بهذه الكلمات ، واغلقت الباب خلفها . وخرج لتفينوف الى الشارع ذاهلا مشدوها . كان شىء أسود مر يكمن فى أعمق أعماق فؤاده ـ ولابد أن هذا هو ما يحسه الانسان الذى ذبح انسانا ـ وكان يشعر فى الوقت نفسه براحة ، وكأنه ألقى عن عاتقه عبئا فظيعا . لقد سحقه نبل تاتيانا ، وشعر فى جلاء بكل ما فقده ... ولكن ندمه كان يمازجه سخط . وكان يتوق الى رؤية ايرينا التى أصبحت ملجأه الوحيد ، ولكنه كان فى الوقت نفسه غاضبا عليها . لقد ظلت مشاعر لتفينوف

تعنف وتتعقد فى هذه الايام القليلة الاخيرة حتى عذبه هذا التعقد وأخنقه . وشعر انه ضائع فيه . كان ظامئا الى شيء واحد ، ان يخرج أخيرا الى طريق ، أى طريق ، حتى لايدور ويدور فى هذه العتمة المستغلقة ــ ومن كان عمليــا مثل لتفينوف فلا ينبغى أن تستحوذ عليه العاطفــة ، لأنها تحطم فيه معنى الحياة نفسـه . ولــكن الطبيعة لاتبالى بالمنطق ــ منطقنا الانسانى ــ لأن لها منطقها الذى لا نفهمه ولا نعترف به حتى نسحق تحت عجلته .

حين فارق لتفينوف تاتيانا لم تكن فى رأسه الا فكرة واحدة : أن يرى ايرينا . فانطلق ليراها . ولــكن الجنرال كان فى البيت ، أو على الاقل هذا ما أخبره به البواب ــ فلم ينشط لتفينوف للدخول ، اذ لم يجد فى نفسه القدرة على النفــاق ، واتجه فى بطء نحو بهو السمر ، فقابل فوروشيلوف وبشتشالــكين ، وعرف كلاهما كم كان لتفينوف عاجزا عن النفاق فى ذلك اليوم ، فقــد صارح الاول بأنه فارغ كالطبل ، والثانى بأنه ثقيل يزهق الروح . وكان من حسن الحظ أن بنداسوف لم يظهر فتحدث grosser scandal (١) . وارتاع كلا الشابين ، بل ان فوروشيلوف سأل نفسه أليس من الواجب أن يدعو لتفينوف الى المبارزة حرصا على شرفه العســكرى ؟ ولــكنه كان كالضــابط بتروجوف فى احــدى روايات جوجول ، فهدأ أعصابه ببضع سندوتشات فى قهوة.وأبصر لتفينوف كابيتولينا ماركوفنا على بعد وهى تجرى فى نشاط من دكان الى دكان ، وعليهــا شملتها المخططة ... فلذعه ضــميره لمرأى السيدة العجوز الطيبـــــة المضحكة الــكريمة . ثم تذكر بوتوجين وحديثهما بالامس ... وفجأة نبهته نفحة عجيبة : شيء لا يلمس ولــكن لايخطئه الحس ، فلو أن ظلا كان شذى لما كان أرق ولا أخفى منه . وشعر لتوه أن ايرينا تقترب . وظهرت حقا على قيد خطوات منه ، وذراعها فى ذراع سيدة أخرى . وسرعان ما التقت عيناهما . ولعل ايرينا لاحظت أمرا شــاذا على سيماء لتفينوف ، فوقفت أمام دكان عرضت فيه ساعات حائط خشبية صغيرة مما يصنع فى الغابة السوداء ، وأومأت اليه تستدنيه ، فأشارت الى احدى هذه الساعات البديعة التى يعلوها ديك ملون ، وبينما كانت تدعوه الى تأمل جمالها قالت فى غير همس بل فى صوتها الطبيعى ،

---

(١) « فضيحة كبيرة » .

وكأنها تتم عبارة بدأتها — فذلك أجدر ألا يلفت انتباه الغرباء :

— تعال بعد ساعة ، سأكون وحدى .

ولكن زير النساء الشهير المسيو فردييه هجم عليها فى تلك اللحظة ، وراح يثنى على لون ثوبها الاصفر feuille-morte ، وعلى قبعتها الاسبانية القصيرة التى تكاد تمس حاجبيها .. واختفى لتفينوف فى الزحام .

كانت ايرينا تقول له بعد ساعتين ، وهي تجلس على الاريكة ، وتضع كلتا يديها على كتفيه :
- جريجوري! ما يشغلك؟ أخبرني الآن سريعا ، ونحن وحيدان.
قال لتفينوف :
- ما يشغلني ؟ أنا سعيد سعيد . هذا ما يشغلني .
ففضت ايرينا بصرها ، وابتسمت ، وتنهدت .
- ليس هذا جوابا على سؤالي أيها الحبيب .
ففكر لتفينوف مليا :
- حسنا ، فلأخبرك اذن ... ما دمت تصرين على ذلك (فتحت ايرينا عينيها وارتعشت رعشة خفيفة) لقد أخبرت خطيبتي أمس بكل شيء .
- ماذا - كل شيء ؟ أخبرتها باسمي ؟
فرفع لتفينوف يديه مستنكرا :
- يالله ! كيف يمكن أن تخطر لك هذه الفكرة يا ايرينا ؟ أنا..
- معذرة ... معذرة . ماذا قلت ؟
- قلت لها اني لم أعد أحبها .
- وهل سألتك عن السبب ؟
- لم أخف عنها اني أحب امرأة اخرى . واننا يجب أن نفترق.
- آه ! وماذا فعلت ؟ هل وافقت ؟
- اوه يا ايرينا ! يالها من فتاة ! انها عين التضحية والنبل !
- لا اشك في ذلك ، لا أشك في ذلك ... وأن كانت لا تملك غير هذا .
- ولا كلمة تأنيب ، ولا كلمة واحدة مرة ، مع اني افسدت حياتها كلها ، وخدعتها ، ونبذتها بلا رحمة ...
وكانت ايرينا تتأمل اظافرها .
- خبرني ياجريجوري ... اكانت تحبك ؟
- اجل يا ايرينا ، انها كانت تحبني .

وصمتت ايرينا دقيقة ، وشدت ثوبها . ثم قالت :
ـ انى لا أفهم لماذا قررت فجأة أن تصارحها بالأمر ؟
ـ لماذا ؟ لا أظنك كنت تفضلين أن أكذب عليها وأخدعها ، وهى الطيبة البريئة . أم كنت تظنين ...
فقاطعته ايرينا :
ـ لم أكن أظن شيئا . يجب أن أعترف لك بأنى لم أفكر فيها الا قليلا . أنا لا أحسن التفكير فى شخصين معا .
ـ تعنين أن ...
فقاطعته ايرينا مرة أخرى :
ـ حسنا . ثم ماذا ؟ هل ترحل هذه الطيبة البريئة ؟
فأجاب لتفينوف :
ـ لا أعلم . يجب أن أراها ثانية . ولـكنها لن تقيم .
ـ آه ! مع السلامة !
ـ انها لن تقيم . ولـكنى لا أفكر فيها الآن ، بل أفكر فيما قلته لى ، فيما وعدتنى به .
فرمقته ايرينا من بين أجفانها :
ـ أيها الرجل الجاحد ! ألم تقنع بعد !
ـ لا يا ايرينا أنا غير قانع . لقد أذقتنى طعم الهناء ، ولـكنى غير قانع . وأنت تعرفين ما أعنيه .
ـ هذا ، اننى ...
ـ نعم ، أنت تعرفين ما أعنيه . تذكرى كلماتك ، تذكرى ما كتبته الى أنا لا أستطيع أن أقتسمك مع غيرى . لا ، لا ، لن العب هذا الدور الوضيع ، دور العشيق المتلصص . انا لم ألق عند قدميك بحياتى وحدها ، بل بحياة أخرى معها ، لقد تخليت عن كل شىء ، ولـكنى واثق ـ مؤمن كل الايمان بأنك ازاء هـذا ستبرين بوعدك ، وتوحدين بين حظى وحظك الى الابد .
ـ أتريد أن أفر معك ؟ انى على استعداد ... (وراح لتفينوف يقبل يديها فى نشوة الفرح) انى على استعداد . لن أرجع فى كلمتى . ولـكن هل فـكرت انت فى كل الصعوبات ، هل أعددت كل الوسائل؟
ـ أنا ؟ انى لم أجد وقتا بعد للتفكير فى شىء ، أو لاعداد شىء . لـكن قولى نعم ، دعينى أعمل ، فلا يمر شهر ...
ـ شهر ! سنرحل الى ايطاليا بعد أسبوعين .

ـ اذن يكفينى أسبوعان . أوه يا ايرينا ! انك تقابلين اقتراحى ببرود ، ولعلك تظنينه خياليا ، ولـكنى لست صبيا ، ولم أتعود أن أتلهى بالاحلام . أنا أعلم أنها خطوة خطيرة ، أنا أعلم أى مسئولية سأتحملها ، ولكنى لا أرى طريقـا آخر . فكرى فى الأمر . يجب أن أقطع كل صلة بالماضى ، ولو لم يكن لهذا من سبب الا كراهة أن أبدو كذابا حقيرا فى عينى الفتاة التى ضحيتها من اجلك !

فانتفضت ايرينا فجأة وقد ومضت عيناها :

ـ أوه ، أما هذا فلا ياجريجورى ميهالتش ! اذا قررت هذا ـ اذا قررت حقا فسأفر مع رجل يفعل ذلك من أجلى ، من أجلى أنا وحدى ، لا كراهة أن يسقط من عينى فتاة راكدة الطبـع ، يجرى فى عروقها اللبن والماء بدل الدم ! وسأخبرك بشىء آخر : أعترف أن هذه هى أول مرة أسمع فيها أن الرجل الذى شرفته بنظراتى جدير بالاشـفاق ، وأنه يلعب دورا وضيعا ! انا أعرف دورا أوضع منه . دور الرجل الذى لايدرى بما يدور فى قلبه !

فانتفض لتفينوف بدوره ، وبدأ يقول :

ـ ايرينا ...

ولكنها دقت جبينها فجأة بكلتا يديهـا ، وألقت بنفسها على صدره فى حركة تشنجية ، وراحت تعانقه بأشد من قوة الانثى ، وتقول بصوت مرتعش :

ـ سامحنى ، سامحنى ، سامحنى ياجريجورى ! أرايت كم أنا فاسدة ، غيور ، حاقدة ، شرسة ! أرأيت كم أحتاج الى عونك وتسامحك ! نعم ، أنقذنى ، أخرجنى من هذا المستنقع قبل أن أضيع فيه ! نعم ، تعال نفر، نفر من هؤلاء الناس ، من هـذا المجتمع ، الى بلاد بعيدة جميلة حرة ! لعل حبيبتك ايرينا تـكون جديرة آخر الأمر بما تضحى من أجلها ! لا تغضب على ، اعف عنى أيها الحبيب ، اعلم انى سأفعل كل ما تأمرنى به ، سأذهب حيث تريد !

واصطخب قلب لتفينوف ، وازدادت ايرينـا التصـاقا به ، بجسمها الفتى اللدن ، فانحنى على شعرها العبق الذى انسدل ، ولم يكد يجرؤ وهو فى نشوة السعادة والشكر أن يداعبه بيده ، أو يمسه بشفتيه .

ردد :

ـ ايرينا ، ايرينا . ياملاكى ...

فرفعت رأسها فجأة ، وأنصتت ... ثم همست :

ـ انها خطا زوجى ... لقد دخل حجرته . ثم عبرت الغرفة الى كرسى آخر . وهم لتفينوف أن يقوم لينصرف ، فاستمرت تقول هامسة :

ـ أين تذهب ؟ ابق . انه يرتاب فيك من الآن . أم أنت تخافه ؟ ـ ولم ترفع عينيها عن الباب ـ نعم ، انه هو. سيدخل بعد قليل . قل لى شيئا ، تحدث الى ـ ولم يستطع لتفينوف أن يفكر فى شىء ، فبقى صامتا . قالت بصوت عال : « ألست ذاهبا الى المسرح غدا ؟ انهم يمثلون La verre d'eau ، رواية قديمة ، وبليسى متكلفة الى درجة فظيعة . » وأضافت وهى تخفض صوتها : « نحن أشبه بمحمومين . لا فائدة . يجب أن نفكر جيدا . كان يجب أن أنذرك بأن نقودى كلها بين يديه « mais j'ai mes bijoux (١) . لنذهب الى أسبانيا ، ما رأيك ؟ » وعادت فرفعت صوتها : « لماذا تصبح كل الممثلات بدينات ؟ مادلين بروهان مثلا ... تكلم ، لا تجلس هكذا صامتا . ان رأسى يدور. ولكن ، ولكن يجب الا تشك فى ... سأخبرك أين تأتى غدا . الا أنك أخطأت باخبار تلك الفتاة ... وصاحت فجأة : .... Ah, mais c'est charmant (٢) » ـ ومزقت حاشية منديلها وهى تضحك ضحكة عصبية .

سأل راتميروف من الحجرة الاخرى :

ـ أدخل ؟

ـ نعم ... نعم .

فتح الباب . وظهر الجنرال على عتبته . وحين رأى لتفينوف عبس قليلا ، ولكنه انحنى له ، أى ثنى القسم الأعلى من شخصه الكريم .

قال :

ـ لم أكن أعلم أن معك ضيفا : je vous demande pardon de mon indiserétion (٣) اذن فما زلت تستطيب الاقامة فى بادن يا مسيو لتفينوف ؟

---

(١) « ولكن عندى الحلى » .
(٢) « آه ، بديع ! » .
(٣) « معذرة على تسرعى » .

كان راتميروف ينطق بلقب لتفينوف فى شيء من التردد دائما ، وكأنه ينساه كل مرة ، ولا يستطيع أن يتذكره على الفور ... وبهذه الطريقة ، وكذلك برفع قبعته حين يحييه ، كان يحاول أن يجرح كبرياءه .

ــ انى لا أشعر بالملل هنا : M sieu de général (١)

ــ حقـا ؟ أما أنا فأجد بادن مملة الى حد الفظاعة . اننـــــا سنرحل قريبا ، أليس كذلك يا ايرينا بافلوفنا ؟assez de Bade indiscrétion (٢) مع انى ربحت لك اليوم خمسمائة فرنك .

فمدت ايرينا يدها بدلال :

ــ أين هى ؟ هاتها من فضلك .. لمصروفى ..

ــ سـأعطيك اياها ، سأعطيك اياها ... أخارج هكذا سريعا يامسيو ــ لتفينوف ؟

ــ نعم ، كما ترى .

وثنى راتميروف جسمه مرة أخرى .

ــ يسرنى أن أراك ثانيا !

قالت ايرينا :

ــ وداعا ياجريجورى ميهالتش . سأبر بوعدى .

فسأل زوجها :

ــ أى وعد ؟ هل لى أن أتطفل ؟

فابتسمت ايرينا :

ــ لا ، انه شيء كنا نتحدث عنه : c'est a' propos du voyage où il vous plaira (٣) اتعرف كتاب ستايل ؟

ــ آه ! آه ! بلا شك . صور رائعة .

وبدا راتميروف على أتم وفاق مع زوجته .

---

(١) « يا سيدى الجنرال » .
(٢) « شبعنا من بادن » .
(٣) « موضوع السفر .. الاماكن المحبة » .

ردد لتفينوف وهو ينحدر فى الشارع بخطا واسعة ، وقد أحس أن الضجة الباطنة تثور فيه من جديد : « الافضل الا أفكر الآن : لقد تقرر الأمر ، ستفى بوعدها ، وما على الا أن أرتب الخطوات اللازمة .. ولكنها تبدو مترددة .. » وهز رأسه ، ولاحت له مشروعاته ، هو نفسه ، فى ضوء غريب : لقد كان فيها شىء مصطنع غير حقيقى .

ان المرء لا يستطيع أن يطيل التأمل فى أفكار بعينها الا الى حد محدود . فهى تتحرك تدريجيا كقطع الزجاج فى كاليدوسكوب... وبينما ينظر المرء يجد الافكار التى أمام عينيه قد تغيرت تغيرا تاما . وهكذا هبط على لتفينوف احساس بالكلال .. لو استطاع أن يستريح ساعة واحدة قصيرة ! ولكن تانيا ! وأيقظ نفسه ، وبغير مزيد من التفكير انقلب الى مسكنه خاضعا.كان كل ماخطر فى ذهنه أنه ظل طوال اليوم يتقاذف كالكرة بين الواحدة والاخرى ... لا بأس ، فليضع للأمر حدا . وعاد الى فندقه وذهب ليرى تانيا ، لم يتردد ولم يسوف ، وهو على حاله تلك من الخضوع والخدر .

وقابلته كابيتولينا ماركوفنا . فعرف من أول نظرة أنها علمت بكل شىء . كانت عينا العانس المسكينة ورمتين من البكاء ، ووجهها المحمر الذى أحاطت به خصلها البيض المشعثة يعبر عن جزع وغضب وحزن وذهول . اندفعت الى لتفينوف ، ولكنها تماسكت على الفور ، ونظرت اليه وهى تعض على شفتيها المرتعدتين ، وكأنها تريد أن تضرع اليه ، وتريد مع ذلك أن تقتله ، ثم تؤكد لنفسها أن الأمر كله كان جنونا ، حلما ، محالا ... أليس كذلك ؟

بدأت تقول :

ـ اذن فقد جئت ، جئت ...

وسرعان ما فتح باب الغرفة المجاورة ودخلت تاتيانا بخطا

خفيفة ، شاحبة يكاد جلدها يشف ، ولكنها على أتم الهدوء . فأحاطت عمتها بذراعها فى رقة وأجلستها بجانبها ، وقالت للتفينوف الذى كان واقفا عند الباب كمن لا يجد نفسه :

ـ أجلس أنت ياجريجورى ميهاليتش . يسرنى أن أراك مرة أخرى . لقد أخبرت عمتى بعزمك ، بل بعزمنا المشترك . وهى تشاطرنا اياه وتقرنا عليه كل الاقرار ... لا سعادة بغير الحب المتبادل ، أما الاحترام المتبادل فلا يكفى وحده (وغض لتفينوف بصره بلا ارادة حين سمع كلمة الاحترام) . وخير أن نفترق الآن من أن نندم غدا . أليس كذلك ياعمتى ؟

فبدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول :

ـ نعم ، طبعا ياحبيبتى تانيا . الرجل الذى لايستطيع أن يقدرك ... الذى يبلغ به الأمر ...

فقاطعتها تاتيانا :

ـ عمتى ! عمتى ! تذكرى وعدك لى . لقد كنت تقولين لى دائما : الحقيقة ياتانيا ، الحقيقة والحرية . حسنا ، ان الحقيقة ليست حلوة دائما ، وكذلك الحرية ، والا ففيم فضيلتهما ؟

وقبلت كابيتولينا ماركوفنا على شعرها الابيض ، والتفتت الى لتفينوف ومضت تقول :

ـ انى أفكر أنا وعمتى فى الرحيل عن بادن ... ولعل هذا أوفق لنا جميعا .

فقال لتفينوف بصوت باهت :

ـ ومتى تفكران فى الرحيل ؟

وتذكر أن ايرينا سألته هذا السؤال نفسه منذ قليل .

وتحركت كابيتولينا ماركوفنا نحوه ، ولكن تاتيانا ردتها بلمسة عطوف على كتفها :

ـ قريبا ، قريبا جدا .

وسأل لتفينوف بنفس الصوت :

ـ وهل تسمحين لى أن أسأل أين تنويان الذهاب ؟

ـ الى درسدن أولا ، ثم لعلنا نذهب بعد ذلك الى روسيا .

فصاحت كابيتولينا ماركوفنا :

ـ ولكن ماحاجتك الآن الى معرفة ذلك ياجريجورى ميهالتش؟

فقاطعتها تاتيانا مرة أخرى :

ـ عمتى ! عمتى !

وساد صمت قصير ، ثم بدأ لتفينوف يقول :

ـ تاتيانا بتروفنا ، أنت تعلمين ما عسى أن تكون مشاعرى اللحظة ايلاما ومرارة ...

فنهضت تاتيانا قائلة :

ـ جريجورى ميهاليتش ، لن نتحدث عن ذلك ... أرجوك ، أرجوك من أجلى ، ان لم يكن من أجلك أنت . لقد عرفتك منذ زمن طويل ، وانى لقادرة على تصور ما تشعر به الآن . ولكن ماجدوى الكلام ؟ ماجدوى مس جرح (وامسكت ، وكان جليا أنها تريد أن تكبح انفعالا مهاجما ، وأن تزدرد دموعا ثائرة . وقد أفلحت) لماذا ننكأ جرحا لا نملك دواءه ؟ دع ذلك للزمن . والآن أريد منك شيئا ياجريجورى ميهاليتش : سأعطيك خطابا ، فلعلك تتكرم بوضعه فى البريد بنفسك ، لأنه هام ، وأنا مشغولة الآن مع عمتى ... أكون شاكرة ... انتظر دقيقة .. سأحضره حالا.

وعند عتبة الباب التفتت تاتيانا فى قلق الى كابيتولينا ماركوفنا، ولكنها كانت جالسة فى وقار وكبرياء ، وكان على حاجبيها المعقودين وشفتيها المزمومتين تعبير صارم ، فاكتفت تاتيانا بأن أومأت اليها ايماءة ذات معنى ، وذهبت .

غير أن الباب ما كاد يغلق خلفها حتى تلاشت من وجه كابيتولينا ماركوفنا كل آثار الوقار والصرامة . فنهضت وأسرعت على أطراف أصابعها الى لتفينوف ، وبدأت تقول فى همس مرتعش باك ، وقد تحدبت وحاولت أن تنظر الى وجهه :

ـ بالله ياجريجورى ميهاليتش ، ما معنى هذا ؟ أهو حلم أم ماذا ؟ انت تهجر تانيا ، أنت تملها ، أنت ترجع فى كلمتك ! أنت تفعل هذا ياجريجورى ميهاليتش ، يا من كنا كلنا نثق فيه ثقة عمياء ! انت ؟ أنت ؟ أنت ياجريشا ؟ ـ وتوقفت كابيتولينا ماركوفنا ، ثم مضت تقول دون أن تنتظر جوابا ، ودموعها تجرى قطرات رقيقة على خديها : كيف ! انك تقتلها ياجريجورى ميهاليتش. لا تحكم عليها بمسلكها الآن ، فأنت تعلم أخلاقها ! انها لاتشكو أبدا ، انها لا تشفق على نفسها . فيجب أن يشفق عليها الآخرون ! انها لاتزال تقول لى : « يجب أن نحتفظ بكبريائنا ياعمتى ! » ولكن ماذا تكون الكبرياء حين أرى أمامنا الموت... نعم ، الموت... (وقرقع كرسى

تاتيانا فى الغرفة المجاورة ، ومضت السيدة العجوز تقول بصوت أشد انخفاضا) : نعم ، انى أرى الموت . كيف أمكن أن يحدث شيء كهذا ؟ أهو سحر أم ماذا ؟ لم يمض زمن طويل منذ كنت تكتب اليها أرق الرسائل . الحق ، هل يستطيع رجل شريف أن يسلك هذا المسلك ؟ اننى كما تعرفنى امرأة متحررة غير جامدة ، ésprit fort ، وقد ربيت تانيا هذه التربية نفسها ، فهى أيضا حرة الفكر ...

وجاء صوت تاتيانا من الغرفة المجاورة :

ـ عمتى !

ـ ... ولكن كلمة الشرف واجب ياجريجورى ميهالتش ، وخصوصا عند من يؤمنون بمبادئك ـ بمبادئنا ! ان لم نعترف بالواجب فماذا يبقى لنا ؟ لايمكنك أن تحنث فى وعدك هكذا ـ لمجرد نزوة ـ دون أن تنظر الى ما يصيب غيرك ! ان هذا مخالف لكل مبدأ ... نعم ، انها جريمة ... نوع غريب من الحرية !

وسمع مرة اخرى :

ـ عمتى ، أتسمحين بالمجيء هنا ؟

ـ أنا آتية ياحبيبتى، أنا آتية... وأمسكت كابيتولينا ماركوفنا بيد لتفينوف ـ أرى أنك غاضب ياجريجورى ميهاليتش ... (وأراد أن يقول : أنا ! أنا غاضب ؟ ولكن لسانه خرس) أنا لا أريد اغضابك ـ بل على العكس ! أريد أن أتوسل اليك .. فكر قبل أن يفوت الأوان ، لا تحطمها ، ولا تحطم سعادتك أنت ، انها ما زالت تريد أن تثق فيك . جريشا ! انها ستصدقك ، لم يضع شيء بعد . كيف ! انها تحبك حبا لن يمنحك أحد مثله ! ارحل عن بادن ـ بادن الكريهة هذه ، لنرحل جميعا ، ماعليك الا أن تنفض عن نفسك هذا السحر ، والمهم . أشفق ، أشفق..

ونادت تاتيانا بشيء من الضجر :

ـ عمتى !

ولكن كابيتولينا ماركوفنا لم تسمعها .

ـ ما عليك الا أن تقول نعم ، وأنا أرتب كل شيء ... ما عليك الا أن تومىء لى ايماءة كهذه أيها العزيز ... ايماءة واحدة !

وشعر لتفينوف أن الموت حبيب اليه فى تلك اللحظة ، ولكنه لم ينطق كلمة « نعم » ، ولم يومىء .

وعادت تاتيانا بخطاب في يدها . فأسرعت كابيتولينا ماركوفنا مبتعدة عن لتفينوف ، وحولت وجهها منحنية على المنضدة ، وكأنها تنظر فيما عليها من كشوف وأوراق .

وتقدمت تاتيانا الى لتفينوف . قالت :

ـ هاك الخطاب الذى تكلمت عنه ... هل تذهب به الى البريد على الفور ؟

فرفع لتفينوف عينيه .. حقا لقد كان قاضيه ماثلا أمامه . وبدت له تاتيانا أطول مما هى وأشد نحولا ، وكان وجهها ، الذى اشرق بجمال غير مألوف ، عظيما عظمة تمثال من الحجر . ظل صدرها ساكنا ، وكان رداؤها ذو اللون الواحد ، المعتدل كشملة اغريقية قديمة ، يسقط ثنيات طويلة مستوية كثنيات الرخام على قدميها المختفيتين تحته . وكانت تاتيانا تنظر أمامها نظرة مستقيمة، كانت تنظر الى لتفينوف وحده ، وفى نظرتها برود وهدوء . كأنها أيضا نظرة تمثال . وقرأ لتفينوف فيها الحكم عليه ، فانحنى ، وتناول الخطاب من اليد التى امتدت اليه بثبات ، وانصرف صامتا .

وأسرعت كابيتولينا ماركوفنا الى تاتيانا . ولكن هذه صدت عناقها وغضت بصرها ، وغشى وجهها احمرار ، ومضت الى مخدعها وهى تقول : « يجب أن نسرع الآن » وتبعتها كابيتولينا ماركوفنا مطرقة الرأس .

كانت الرسالة التى عهدت بها تاتيانا الى لتفينوف موجهة الى احدى صديقاتها فى درسدن ، وهى سيدة المانية تؤجر مساكن مفروشة . والقى لتفينوف الرسالة فى صندوق البريد ، وخيل اليه انه يلقى مع هذه القصاصة الصغيرة ماضيه كله ، بل حياته كلها ـ الى المقبرة . فخرج الى ظاهر المدينة ، وظل يتجول فى ممرات ضيقة بين بساتين الكروم ، ولم يستطع أن يتخلص من شعور باحتقار النفس كان يلح عليه كطنين ذبابة صيف . لقد كان الدور الذى مثله فى هذا اللقاء الاخير دورا لايحسد عليه ... ولما عاد الى فندقه ، وسأل بعد قليل عن السيدتين ، قيل له انهما امرتا ساعة خروجه بمركبة تقلهما الى محطة السكة الحديدية ، ورحلتا فى قطار البريد الى وجهة غير معلومة . وكانت أمتعتهما معدة منذ الصباح ، وتذكراتهما مدفوعة ، وكان جليا أن تاتيانا سألت لتفينوف أن يحمل خطابهما الى البريد لكى تبعده عن

سبيلهما . وتجاسر على سؤال البواب : هل تركت له السيدتان أى خطاب ؟ فأجابه بالنفى ، وأظهر الدهشة ، فقد بدا له هذا الرحيل المفاجىء ، بعد استئجار المسكن أسبوعا ، أمرا غريبا يدعو الى الريبة . فأولاه لتفينوف ظهره ، واعتكف فى حجرته .

ولم يغادرها حتى اليوم التالى ، وقضى معظم الليل جالسا الى المنضدة يكتب ، ويمزق ماكتب ... وكان الفجر قد بدا يلوح حين فرغ من عمله — كان خطابا الى ايرينا .

وهذا ما كان فى خطابه الى ايرينا :

« لقد رحلت خطيبتى امس ، ولن نلتقى بعد الآن ... بل انى لا أعلم علم اليقين أين تعيش بعد اليوم . لقد اخـذت معها كل ما كان عزيزا لدى حتى الآن . لقد ذهبت معها كل افكارى وخططى وحياتى السابقة ، لقد ضاعت جهودى ، وانتهى عمل السنين الى لا شىء ، ولم يعد لـكل ماسعيت اليه معنى ولا فائدة . مات كل ذلك . نفسى ، ذاتى القديمة دفنت منذ الامس . انى اشعر بذلك واراه واحسه فى وضوح ... ولست آسفا عليه ، ولست اقول لك هذا شاكيا.. وكيف اشكو وانت تحبيننى يا ايرينا ! انما اردت ان اخبرك بأنه لم يبق من كل هذا الماضى الميت ، من كل هـذه الآمال والجهود التى اصبحت دخانا ورمادا - لم يبق حيا قاهرا الا حبى لك . لم يبق لى شىء سوى ذلك الحب : وقليل ان اقول انه كنزى الوحيد . فان كيانى كله فى ذلك الحب . ان ذلك الحب هو كل وجودى . ان فيه مستقبلى . وعملى . وبلادى . وكل مقدس عندى ! انت تعرفيننى يا ايرينا . انت تعرفين انى لا احسن الـكلام المنمق ، بل اكرهه . فمهما تكن قوية تلك الـكلمات التى احاول التعبير بها عن شعورى فلا ترتابى فى صدقها ، ولا تحسبى ان فيها شيئا من المبالغة . لست صبيـا يتمتم امامك فى فورة النشوة الطارئة بعهود لايعى معناها ، ولـكنى رجل ناضج السن يخبرك فى بساطة ووضوح - بل فى ذعر - بما عرف انه الحقيقة التى لامناص منها . اجل ، ان حبك قد حل عندى محل كل شىء - كل شىء ، كل شىء ! فاحكمى انت : أاستطيع ان ادع كلى هذا بين يدى رجل آخر؟ انت - ستكونين ملـكه . كل وجودى ودم قلبى سيكون ملـكه - وانا ... اين انا ؟ ما انا ؟ غريب - متفرج ... اتفرج على حياتى نفسها ! كلا ان هذا محال . محال! أاقتسم فى الخفاء ذلك الذى تغدو الحياة بدونه عبثا ومحالا... هذا هو الغش والموت . انا اعلم عظم التضحية التى اسألك اياها

بغير حق ؟ وما الذى يمنح المرء حقا فى التضحية ؟ ولكنى لست أنانيا حين أفعل ذلك . فالانانى يرى الاسهل والاسلم ألا يثير هذه المسألة على الاطلاق . أجل . ان مطالبى باهظة ، ولن أدهش اذا أخافتك . فأنت تكرهين الناس الذين تعاشرينهم مضطرة ، وأنت قد سئمت المجتمع ، ولكن هل لديك من القوة ما يمكنك أن تطرحى هذا المجتمع ، أن تدوسى تحت قدميك الفوز الذى توجك به ، أن تثيرى عليك الرأى العام — رأى هؤلاء القوم الذين تكرهينهم ؟ سلى نفسك يا ايرينا . لا تحملى نفسك عبئا أعظم مما تطيقين . أنا لا أريد أن أبكتك . ولكن تذكرى انك عجزت مرة عن الصمود للاغراء . انا لا أستطيع أن أقدم اليك ازاء كل ما تفقدينه سوى القليل . اسمعى كلمتى الاخيرة : ان كنت لا تجدين من نفسك القدرة غدا — بل اليوم — على أن تتركى كل شىء وتتبعينى — انت ترين جسارتى فى التعبير ، واصرارى فى الطلب — ان كنت تخشين المستقبل المزعزع ، ان كنت تخشين ألفربة ، والوحشة ، واحتقار الناس ، ان لم تكونى واثقة من نفسك — فصارحينى بذلك ولا تمهلى . صارحينى فأرحل عنك . سأرحل بقلب كسير ولكنى سأباركك لصدقك . أما ان كنت يامليكتى الجميلة الباهرة تحبين حقا هذا الرجل الخامل المتواضع ، وترغبين حقا أن تشاركيه فى حظه ، فهاتى يدك اذن ، وهيا ننطلق سويا فى رحلتنا الشاقة ! ولكن اعلمى أن عزمى لن يتغير . فاما كل شىء وأما لا شىء . انه جنون .. ولكنى لا أستطيع غيره — لا أستطيع يا ايرينا ! حبى لك فوق ذاك .

حبيبك « ج . ل »

لم يرض لتفينوف كثيرا عن هذه الرسالة . فانها لم تصور ما أراد أن يقوله تصويرا صادقا كل الصدق ، ولا دقيقا كل الدقة . وكانت فيها عبارات قلقة ، أشبه بما فى الكتب ، أو أقرب الى المبالغة . وكانت — بلا شك — لا تفضل كثيرا من الرسائل التى مزقها ، ولكنها كانت آخر هــــذه الرسائل ، وكانت النقطة الاساسية مقررة فيها تقريرا واضحا على كل حال ، ولم يشعر لتفينوف وهو فى ألمه واعيائه بمقدرة على اقتلاع شىء آخر من رأسه ، ثم انه لم يكن يملك القدرة على وضع أفكاره فى صورة أدبية ، وكان — ككل من لايمارسون الكتابة — يحتفل كثيرا للأسلوب . ولعل رسالته الاولى كانت أحسن رسائله ، اذ كانت

صادرة من قلبه ، وعلى كل حال فقد بعث لتفينوف برسالته الى ايرينا .

وأجابت بكلمة قصيرة :

« تعال الى اليوم . انه سيغيب طول النهار . لقد ازعجنى خطابك جدا . انى أفكر وأفكر ... ورأسى يدور من التفكير . انى فى هم شديد . ولكنك تحبنى . وأنا سعيدة ... تعال . »

حبيبتك « ا »

كانت جالسة فى مخدعها حين دخل لتفينوف . قادته اليه البنت الصغيرة ذات الثلاثة عشر عاما ، تلك التى ترقبته فى اليوم السابق على الدرج . وكان على المنضدة المواجهة لايرينا صندوق من الورق المقوى شبه دائرى فيه وشى . وكانت تلف الوشى باحدى يديها فى غير عناية ، وتمسك بالاخرى خطاب لتفينوف . وكانت قد كفت عن البكاء ولما تكد ، فأهدابها مخضلة ، وأجفانها ورمة ، وعلى خديها آثار الدموع لم تكفكف . ووقف لتفينوف ساكنا بالباب فلم تلحظ دخوله .

قال متعجبا :

ـ أتبكين ؟

فريعت . وأمرت يدها على شعرها . وابتسمت .

وأعاد لتفينوف :

ـ لماذا تبكين ؟

فأشارت الى الرسالة فى صمت . فنطق متلعثما :

ـ اذن فقد كنت ... لتلك ..

قالت :

ـ تعال . اجلس . هات يدك . أجل . لقد كنت ابكى . مم تعجب ؟ أهذا قليل ؟

وأشارت الى الرسالة ثانية .

وجلس لتفينوف :

ـ أعلم أن الأمر غير يسير يا ايرينا . وأنا أقول هذا فى رسالتى . ... انى أفهم موقفك . ولكن ان كنت تعرفين ما يعنيه حبك لى ؛ ان كانت كلماتى قد أقنعتك ، فلابد أنك تفهمين أيضا ما أشعر به الآن لمرأى دموعك . لقد جئت الى هنا كرجل يساق الى المحكمة ، وانى لأنتظر قضائى : الموت أم الحياة ؟ ان جوابك يقرر كل شىء . لكن لا تنظرى الى بهاتين العينين ... انهما

تذكرانى بالعينين التين رأيتهما قديما فى موسكو .

فاحمر وجه ايرينا فجأة ، والتفتت ، وكأنها شعرت هى نفسها بنذير شؤم فى نظرتها .

ـ لماذا تقول ذلك ياجريجورى ؟ واخجلتاه ! تريد أن تعلم جوابى ... أتعنى انك تستطيع أن ترتاب فيه ؟ تزعجك دموعى... ولكنك لا تفهمها . ان رسالتك ـ يا أعز عزيز ـ جعلتنى أفكر. هأنت تقول ان حبى شغل كل مكان عندك ، حتى دراساتك السابقة لن تكون لها فائدة بعد الآن ، ولكنى أسائل نفسى : أيستطيع الرجل أن يعيش للحب وحده ؟ ألا يمل الحب آخر الأمر ، ألا يتوق الى العمل ، ويلوم ذلك الذى انتزعه منه ؟ هذه هى الفكرة التى تفزعنى ، هذا هو ما أخافه ، لا ذلك الذى كنت تتخيله .

وأطال لتفينوف النظر الى ايرينا ، وأطالت النظر اليه ، كأن كلا منهما يريد أن ينفذ الى أغوار نفس صاحبه ، الى أغوار لاتصل اليها الكلم ، ولا تنم بها الكلم .

ثم بدأ لتفينوف يقول :

ـ أنت مخطئة اذ تخافين ذلك . لابد انى أسأت التعبير. الملال؟ الخمول ؟ مع القوة الجديدة التى يبعثها فى حبك ؟ أوه يا ايرينا ، انى أجد حبك عالما بأسره ، ولا أستطيع انا نفسى أن أتنبأ بما يكمن فيه .

وفكرت ايرينا ، ثم همست :

ـ أين تذهب ؟

ـ أين ؟ سنتحدث عن ذلك فيما بعد . ولكنك اذن ... اذن توافقين ؟ أتوافقين يا ايرينا ؟

فنظرت اليه :

ـ وتكون سعيدا ؟

ـ أوه يا ايرينا !

ـ ولا تأسف على شىء ؟ أبدا ؟

وانحنت على صندوق الورق ، وبدأت تنظر مرة أخرى الى ما فيه من وشى . قالت :

ـ لا تغضب ياحبيبى لأنى أشغل نفسى بهذه التوافه فى مثل هذه اللحظة ... انى مضطرة لأن أذهب الليلة الى حفلة رقص فى منزل سيدة من السيدات ، وقد جاءتنى هذه الزيوق ، وعلى أن أختار شيئا منها اليوم .

وصاحت فجأة :

ـ آه ، ما أتعسنى !

ووضعت رأسها على حافة الصندوق . وجعلت الدموع تنحدر من عينيها ثانية ... فالتفتت ، قد تفسد الوشى الدموع .

وبدأ لتفينوف يقول فى قلق :

ـ ايرينا ! أتبكين ثانية ؟

ـ ففاطعته ايرينا مسرعة :

ـ أجل ثانية . أوه ياجريجورى ! لا تعذبنى . لا تعذب نفسك! لنكن أحرارا ! لم لا أبكى ؟ وهل أعلم أنا فى الحقيقة لماذا تسيل دموعى ؟ أنت تعرف قرارى . لقد سمعته . وأنت تعلم أنه لن يتغير. انيأوافق على...كيف قلت ؟ اما كل شيء أو لاشيء ... ماذا تريد أكثر من هذا ؟ فلنكن أحرارا ! لماذا تضع القيود حولنا؟ نحن وحيدان الآن . وأنت تحبنى . وأنا أحبك . فهلا نجد لنا شغلا خيرا من التفتيش فى ضمائرنا ؟ انظر الى . أنا لا أريد أن أتحدث عن نفسى . أنا ما أشرت بكلمة واحدة الى أنه ربما لم يكن سهلا على أن أدوس على واجبى كزوجة... ولا أخدع نفسى. فأنا أعلم انى مجرمة. وأنه يحق له أن يقتلنى . ولكنى لا ابالى. فلنكن أحرارا . العمر يوم ...

ونهضت عن كرسيها . ونظرت الى لتفينوف من عل ، وهى تبتسم ابتسامة خفيفة ، وتضيق عينيها ، بينما كانت تزيح عن وجهها ، بذراع عارية حتى الكوع ، خصلة طويلة لمعت عليها عبرات قليلة . وانزلق عن المنضدة وشاح ثمين . وسقط على الارض عند قدمى ايرينا . فداسته باحتقار .

ـ أم أنت لا تحبنى اليوم ؟ هل أصبحت قبيحة منذ امس ؟ خبرنى : ارأيت أجمل من هذا الذراع ؟ وهذا الشعر ؟ خبرنى : أتحبنى ؟

وضمته بكلتا ذراعيها . وضغطت رأسه على صدرها . وسقط مشطها يرن . وغطاء شعرها المتهدل كموجة ناعمة فواحة .

كان لتفينوف يقبل ويدبر فى غرفته بالفندق وهو مطرق يفكر. أصبح الواجب أن ينتقــل من النظرية الى التطبيق ، وأن يدبر الطرق والوسائل للهرب والرحيل الى بلاد مجهولة . ولكن العجيب أنه لم يكن يفكر فى الطرق والوسائل بقدر ما كان يفكر هل وصل حقا وبلا أدني ريب الى القرار الذى أصر عليه ذلك الاصرار؟ هل قيلت الـكلمة الاخيرة التى لايمكن أن تسترد ؟ لاشك ان ايرينـا قالت له حين فارقته : « رتب كل شيء . ومتى أصبحت مستعدا فما عليك الا أن تخبرنى . » اذن فالأمر مقرر . ولا محل للشك! اذن فعليه أن يبدأ فى مهمته . وقد بدأ لتفينوف مهمته بالتفكير المنظم . أولا النقود . وقد وجد لتفينوف أن بيــده من النقود ١٣٢٨ جلد ، أى ٢٨٥٥ فرنك بالعملة الفرنسية . وهومبلغ صغير، ولـكنه يكفى حاجاتهما الاولى . ثم عليه أن يكتب الى أبيه ليرسل اليه كل ما يستطيع . فليبع الغابة وجزءا من الارض . ماعسى أن تكون حجته ؟ حسنا . سيجد حجة مناسبة . لقد أشارت ايرينا الى حليها . هذا صحيح ولـكن هذه الحلى لاينبغى أن تدخل فى حسابه مهما تكن الاسباب . فمن يدرى ؟ قد تنفع فى أزمة. وكانت له غير ذلك ساعة سويسرية جيدة ، يمكنه أن يأخـذ فيها ... لنقل ٤٠٠ فرنك .

وذهب لتفينوف الى مصرفى وسأله — بعد لف ودوران — هل يمكنه أن يقرض نقودا ؟ ولـكن الصــيارفة فى بادن ثعالب مسنة حذرة . فهم يجيبون على هذه المداورات بأن يتظاهروا على الفور بالذبول والأسى كزهرة برية حزها المنجل . وبعضهم يضـحك فى وجهك دون مداورة ، وكأنما أعجبته هذه الدعابة البريئة منك .

ويا لخزى لتفينوف اذ جرب حظه على الروليت . حتىالروليت. يا للعار ! فوضع تالرا على رقم ثلاثين ، وهو الرقم الذى يوافق عمره . وكان يريد أن يزيد رأس ماله و « يقفله » . ومع أنه لم يزد رأس ماله فقد « أقفله » حقا اذ فقد الثمانية والعشرين جلدا الزائدة .

وكانت المسألة الثانية الهامة هي مسألة جواز السفر . ولكن جواز السفر للمرأة لم يكن ضرورة لايمكن التجاوز عنها . وكانت هناك بلاد لا تحتاج اليه مطلقا مثل بلجيكا وانجلترا . ثم ان من المستطاع الحصول على جواز غير روسى . فكر لتفينوف فى ذلك كله تفكيرا عميقا ، وكان عزمه ثابتا لايتزعزع ، على أن شيئا أقرب الى الهزل منه الى الجد كان لا ينفك يتسلل الى أفكاره ، وكأن الأمر كله مهزلة ، وكأن أحدا لم يفر مع أحد قط فى الواقع ، بل فى التمثيليات والقصص ، أو ربما فى أعماق الريف ، فى مجاهل روسيا ، حيث يمرض النـــاس من السأم وحده كما روى بعض المسافرين . وتذكر لتفينوف كيف هرب أحد أصدقائه ـ باتسوف ـ وكان ضابطا متقاعدا من سلاح الفرسان ـ مع ابنة أحد التجار فى عربة بريد بأجراس وترويكا (١) ، بعد أن مهـد لذلك باسكار أبويها ، واتبع الخطة نفسها مع العروس ، وكيف ظهر فيما بعد أنه هو الذى خدع ، وكاد يضرب فوق ذلك . وضاق لتفينوف بنفسه ضيقا شديدا لهـذه الخواطر النابيـة ، وتذكر تاتيـانا ، ورحيلها المفاجىء ، وكل ذلك الحزن والبـلاء والخزى ، فشعر شعورا أليما بأن الأمر الذى يستعد له أمر جدى فظيع ، وبأنه كان محقا حين أخبر ايرينا بأن الشرف نفسـه لايدع له سـبيلا آخر... واذا به مرة أخرى يلتف على قلبـه شيء كالنـار لمجرد ذكر اسمها ، ثم يسكن تاركا فيه ألما حلوا .

وسمع وقع حوافر جياد من ورائه... فانتحى ناحية . وأدركته ايرينا على ظهر جواد ، وقـد ركب بجانبهـا الجنرال السمين . تعرفت لتفينوف ، وأومأت اليه ، وألهبت حصانها بضربة من سوطها على جنبه ، فعدا قليلا ثم مرق فجأة فى سرعة خاطفة ، وهفهف نقابها الاسود مع الريح .

وصاح الجنرال :

— Pas si vite, nom de Dieu ! Pas si vite ! (٢) .

وركض خلفها .

---

(١) ثلاثة من الخيل فى صف .

(٢) « لا تسرعى هكذا ! لا تسرعى هكذا بحق الله ! » .

في الصباح التالي كان لتفينوف عائدا من عند المصرفي ، بعد أن تحدث معه مرة أخرى عن تقلقل سعر عملتنا في السوق الدولية ، وخير الوسائل لارسال النقود الى الخارج ، فسلمه بواب الفندق خطابا . وعرف لتفينوف خط ايرينا ، فذهب الى حجرته دون أن يفض الخاتم . وقد وقع في نفسه — لسبب لايعلمه الا الله — ان ليس وراء هذا الخطاب خير . وكان هذا ما قرأه (كان الخطاب بالفرنسية) :

«يا أعز حبيب ، لقد أمضيت الليل كله أفكر في خطتك ... انى لا أريد أن أخدعك . لقد كنت صريحا معى ، فلأكن صريحة معك. انى لا أستطيع الفرار معك . ليست لدى القوة لأفعل ذلك . انى أشعر بعمق اساءتى اليك — ان اثمى في الثانية لأكبر من اثمى في الاولى — انى أحتقر نفسى ، وجبنى ، وأؤنب نفسى بمرارة ، ولكنى لا أستطيع أن أغير طبيعتى . عبثـــا أقول لنفسى انى حطمت سعادتك ، وانك محق الآن في أن تعدنى لعوبا ذات نزوات ، وانى أنا التى منيتك ووعدتك أوثق الوعود .. انى مليئة رعبا وكراهية لنفسى ، ولـكنى لا استطيع أن أفعل غير ما أفعله ، لا أستطيع ، لا أستطيـع . أن أبرىء نفسى ، لن أقول لك انى أنا أيضا كنت مدفوعة بعاطفتى ... فهذا كله لا قيمة له ، ولـكنى اريد أن أقول لك ، وأكرر مرة بعد مرة ، انى لك ، لك الى الأبد ، فافعل بى ماشئت ، متى شئت ، بلا شروط ، ولا قيود ! انى لك ... أما أن أفر ، وأرمى كل شيء ... فلا ! لا ! لا ! لقد توسلت اليك أن تنقذنى . لقد رجوت أن أمحو كل شيء ، أن ألقى المـاضى في النار . ولـكنى لا ارى لى خلاصا . انى أرى السم قد بلغ أعماقى ؛ انى ارى الانسان لايستطيع أن يتنفس في هذا الجو سنوات دون أن يتلوث به . لقد ترددت طويلا قبل أن أكتب اليك هذه الرسالة ؛ فأنا أخاف قرارك ، ولا أعتمد الا على حبك لى . ولكنى رأيت من الخيانة أن أخفى عنك الحقيقة — وبخاصة أن لعلك بدأت تعمـل

لتنفيذ خطتك . آه ! لقد كانت حلوة ، ولـكنها مستحيلة ! أوه ياحبيبى ! اعتبرنى امرأة ضعيفة نزقة ، احتقرنى ، ولكن لاتهجرنى، لا تهجر حبيبتك ايرينا !.. ليست لى القوة على أن أفارق هذه الحياة ، ولا القدرة على أن أعيشها بدونك ! سنعود بعد قليل الى بطرسبرج ، فتعال هناك ، عش هناك ، سنجد لك عملا ، ولن تضيع جهودك الماضية ، ستجد لها مجالا مفيدا .. ولـكن عش بقربى ، أحبنى كما أنا ، بكل ضعفى ورذائلى . وثق انك لن تجد قلبا يخلص لك أو يحنو عليك حنو حبيبتك ايرينا ! تعـال الى بأسرع ما تستطيع ! لن أجد لحظة راحة حتى أراك ــ حبيبتك ، حبيبتك ، حبيبتك : « أ »

اندفع الدم الى رأس لتفينوف بضربات مطرقة ، ثم غاص الى قلبه بطيئا ثقيلا ، وبقى هناك كصخرة لا تتقلقل . قرأ رســـالة ايرينا ثانية ،وكما حدث تلك المرة فى موسكو ، انطرح على الاريكة ذاهب القوة . وظل راقدا بدون حراك ، وكأنما انفغرت حوله فجآة هوة مظلمة ، فراح يحدق فى ذلك الظلام بذهول وقنوط . هكذا مرة أخرى .. الخديعة مرة أخرى ، بل شر من الخديعة : الخيانة والضعة .. حياته تحطمت ، وكل شىء اجتث من جذوره ، والشىء الوحيد الذى استطاع أن يتعلق به ، ذلك السند الاخير قد تفتت أيضا ! جعل يردد بضحكة مرة : « تعال وراءنا الى بطرسبرج . سنجد لك عملا ... يعينوننى رئيس كتبة مثلا ؟ ومن (هم) الذين سيجدون لى عملا ؟ هاهنا ماضيها طافيا الى السطح ، ذلك الماضى الخفى المروع الذى لا أعلمه ، والذى كانت تحاول أن تمحوه . وأن تلقى به فى النار . هاهنا عالم المؤامرات ، والعلاقات السرية . والقصص السوداء عن بيلسكى ودولسكى .. وأى مستقبل ! أى دور رائع ينتظرنى ! أن أعيش بقربها ، وازورها ، وأشاطرها كآبة الانحلال ، كآبة سيدة المجتمع التى تضجر بالمجتمع وتسـأمه ، ولكنها لا تستطيع أن تعيش خارج دائرته . وأصبح صديق الأسرة. وطبعا صديق سعادته ...الى ... الى أن تتغير النزوة ، ويفقد العشيق الشعبى طعمه الحريف ، فيحل محله الجنرال السمين او السيد فييكوف ــ هــذا ممكن ، وممتع ، ولعله مفيد أيضا ... انها تتحدث عن « المجال المفيد » لـكفاءتى ! أما الخطة الاخرى فهى مستحيلة ! مستحيلة ! . »

وهبت فى نفس لتفينوف لفحات دفينة من الغضب ، كأنها

الانواء قبل العاصفة .. احنقته كل عبارة فى رسالة ايرينا ، حتى تأكيدها لعواطفها الدائمة غاظه وأضجره . وأخيرا صاح :

— لن يمر الأمر هكذا ! لن تلعب بحياتى هكذا دون رحمة !

ووثب اتفينوف واختطف قبعته . ولكن ماذا يجب عليه أن يفعل ؟ يهرع اليها ؟ يجيب علىخطابها ؟ توقف ، واسترخت يداه :

أجل ، ماذا يجب عليه أن يعمل ؟

ألم يعرض عليها ، هو نفسه ، ذلك الاختيار الفاصل ؟ ان الأمر لم ينته كما أحب ، وهذا خطر كل اختيار . لقد غيرت رأيها ، هذا حق . لقد أعلنت هى نفسها أول الأمر أنها تود أن تترك كل شىء وتتبعه ، هذا حق أيضا ، ولكنها لم تنكر خطأها ، بل زعمت أنها امرأة ضـــــعيفة ، لم ترد أن تخدعه ، ولكنها خدعت فى نفسها .. فأى جواب يقال لمثل هذا الكلام ؟ انها لم تنافقه على كل حال ، لم تخدعه .. بل كانت صريحة ، صريحة بلا حرج . لم تكن مضطرة الى مكاشفته على الفور ، ولم يكن ثمة ما يمنعها من تعليله بالوعود ، وارجاء الأمور ، وتركه فى الظلام الى يوم رحيلها .. رحيلها هى وزوجها الى ايطاليا . ولكنها حطمت حياته ، حطمت حياتين .. حسنا ، ليس هذا بالأمر الغريب .

وليست هى التى ظلمت تاتيانا . لقد كان هو الظالم ، هو اتفينوف وحده ، ولا يحق له أن يتملص من المسئولية التىألقاها اثمه على كاهله نيرا من حديد ... هذا كله حق ، ولكن ماذا بقى له أن يفعل الآن ؟

وارتمى على الاريكة ثانية ، وعادت اللحظات تتراكض فى سرعة نهمة ، مظلمة لا معنى لها ، غير تاركة وراءها أثرا .

وومض فى ذهنه : « لم أفعل ما تقول ؟ انها تحبنى ، انها لى . أليس ثمة شىء محتوم لا يقاوم ، كأنه القانون الطبيعى ، فى اندفاع كل منا الى الآخر ، فى هذه العاطفة الشديدة التى اشتعلت بعد سنين كثيرة ، وفرضت سلطانها بقوة قاهرة ؟ أعيش فى بطرسبرج .. لن أكون الأول فى هذا الوضع ، ثم أين كان يمكننا أن نجد وطنا ، أنا وهى ؟ .. »

وسبح فى الاحلام ، وتمثلت له صورة ايرينا كما انطبعت فىذاكرته الى الأبد خلال هذه الايام القليلة ... ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما أفاق لنفسه ، وبفورة جديدة من الغضب طرد الذكرى من مخيلته ، ومع الذكرى صورتها الساحرة .

صاح : أنت تقدمين الى تلك الكأس الذهبية لأشرب منها ، ولكن فى هذه الجرعة سما ، وجناحاك الابيضان ملطخان بالوحل. اغربى عنى ! ابقى معك هنا بعد أن .. بعد أن طردت خطيبتى.. يا للعار ! يا للعار ! وعصر فى سورة الألم يديه ، وانبعث من الاعماق وجه آخر قد انطبعت على ملامحه الهادئة سيماء الألم . وبدا فى عينيه المودعتين تأنيب أبكم .

وتحمل لتفينوف هذا البلاء طويلا . ظل فكره المعذب يتقلب من جنب لجنب كالمحموم .. حتى هدأ ، واستقر على عزم . لقد كان يشعر منذ اللحظة الاولى ماذا سيكون قراره ... لقد بدا له أول الأمر نقطة نائية لا تكاد تبين وسط دوامة مظلمة من صراعه الباطنى ، ثم لم تزل النقطة تقترب وتقترب حتى شقت قلبه بنصل بارد كالثلج .

جر لتفينوف صندوقه من الركن مرة اخرى ، وجمع متاعه فى غير عجلة — بل فى نوع من العناية البليدة — ثم طلب خادم الفندق ودفع حسابه ، وأرسل الى ايرينا ورقة بالروسية هذا مضمونها :

« لست أدرى أتسيئين الى اليوم إساءة أعظم من اساءاتك الأولى ، ولكنى أدرى أن هذه الضربة لا تقاس شدتها بتلك ... انها النهاية . تقولين لى : « انا لا أستطيع ... » واكرر لك : أنا لا أستطيع .. فافعلى ما تشائين . انا لا أستطيع ولا أريد . لا تجيبينى . انك عاجزة عن ان تقدمى الى الجواب الوحيد الذى أرضاه . سأرحل صباح الغد بأول قطار . وداعا ، وسعدت ! لا أظن أننا سنلتقى مرة أخرى . »

ولم يغادر لتفينوف حجرته حتى هبط الليل ، ولعله كان ينتظر شيئا . الله وحده يعلم . وحول الساعة السابعة مساء اقتربت من درج فندقه سيدة فى شملة سوداء وعلى وجهها نقاب. اقتربت من الدرج مرتين . ثم ابتعدت بضع خطوات وبعد أن حدقت برهة فى الفضاء لوحت بيدها فى عزم، واتجهت للمرة الثالثة الى الدرج.

واذا بصوت مشدود ينطق خلفها :

— أين تذهبين يا ايرينا بافلوفنا ؟

فالتفتت بسرعة عصبية ... كان بوتوجين مسرعا اليها .

فوقفت وفكرت لحظة. ثم اندفعت اليه ممسكة بذراعه ، وشدته وهى تردد مبهورة الانفاس :

ـ خذني بعيدا . خذني بعيدا !
فتمتم في دهشة :
ـ ماذا أصابك يا ايرينا بافلوفنا ؟
فـكررت بقوة مضاعفة :
ـ خذني بعيدا ، ان كنت لا تريد أن ابقى الى الأبد ... هناك!
فحنى بوتوجين رأسه طائعا . وأسرعا مبتعدين معا .
وفي بكرة اليوم التالي كان لتفينوف على اهبة الرحيل حين دخل الى حجرته ... بوتوجين .
اقترب منه في صمت. وفي صمت صافحه. ولم يتكلم لتفينوف أيضا : كان كلاهما يحاول عبثا أن يبتسم .
وأخيرا أخرج بوتوجين من فمه :
ـ اني جئت أتمنى لك رحلة طيبة .
فسأل لتفينوف :
ـ وكيف علمت أني راحل اليوم ؟
ونظر بوتوجين الى أرض الحجرة حوله ...
ـ عندي علم بذلك ... كما ترى . ان محادثتنا الاخيرة قـد اتجهت وجهة غريبة عند النهاية .. فلم أرد أن أفارقك دون ان اعبر عن شعوري الطيب الصادق نحوك .
ـ أهذا شعورك الآن ... وأنا راحل ؟
فنظر بوتوجين الى لتفينوف بحزن وبدأ يقول بزفرة قصيرة :
ـ آه ياجريجوري ميهالتش ! لم يبق وقت للمداورة والمحاورة. اني لم أرك تعنى كثيرا بأدبنـــا القومي ، ولعلك لم تســمع عن فاسكابوسلايف ؟ ..
ـ عمن ؟
ـ عن فاسكابوســلايف بطل نوفجورود ـ في مجموعة كرشـــا دانيلوف .
فقال لتفينوف وقد شعر ببعض الحيرة لذلك الاتجاه المفاجىء في الحديث :
ـ من بوسلايف ؟ انا لا أعرف عنه شيئا .
ـ لا بأس . هـــذا ما أردت أن انبهك اليه : بعـد ان رحل فاسكابوسلايف بأتباعه من أهل نوفجورود حاجين الى بيت المقدس، وروعهم بأنه لا يؤمن بالفأل ولا الرؤيا ولا الزجر ـ تسلق هـــذا المنطقي فاسكابوسلايف جبل طابور . وكان على قمة ذلك الجبـــل

صخرة عظيمة ، حاول الناس من كل جنس أن يثبوا فوقها.. واراد فاسكا أن يجرب حظه أيضا . فصادف فى طريقه رأس ميت — جمجمة آدمية — فرفسها بقدمه . فقالت له الجمجمة : « لم ترفسنى ؟ لقد عرفت كيف أعيش . وانى لأعرف كيف أتدحرج فى التراب — وسوف يصيبك ما أصابنى . » ثم وثب فاسكا فوق الصخرة . ولما كاد يعبرها . عثرت قدمه ، وتهشمت جمجمته... بهذه المناسبة يجب أن أشير الى أن أصدقاءنا السلافوفيل ، المغرمين برفس الرءوس الميتة والقوميات التى دب فيها الفناء ، يجدر بهم أن يفكروا فى تلك الاسطورة .

فقاطعه لتفينوف بصبر نافد :

— ولكن ما الذى ترمى اليه ؟ معذرة . لقد حان الوقت ...

فأجاب بوتوجين وقد التمعت عيناه بعطف شديد لم يكن لتفينوف يتوقعه منه :

— كيف ؟ الذى أرمى اليه هو ألا ترفس رأس انسان ميت ، لعل طيبة قلبك تيسرك للوثوب فوق الصخرة القاتلة . لن أستبقيك أكثر من هذا . ولكن دعنى أعانقك قبل رحيلك .

فقال لتفينوف وهو يقبل بوتوجين القبلات الثلاث التقليدية :

— بل لن أحاول الوثوب !

وذابت لحظة تلك الاحساسات المرة التى كانت تغمر قلبه فى شفقة على الرجل الشقى الوحيد .

— ولكن يجب أن أذهب الآن . يجب أن أذهب ...

وأخذ يدور فى الحجرة . فتطوع بوتوجين قائلا :

— هل أحمل عنك شيئا ؟

— لا . شكرا لك . لا تتعب نفسك . يمكننى ...

ولبس قبعته ، وحمل حقيبته . وسأل وهو يقف بالباب :

— أتقول انك رأيتها ؟

— نعم رأيتها .

— حسنا ... كيف هى ؟

فصمت بوتوجين لحظة .

— لقد كانت تنتظرك أمس ، وسوف تنتظرك اليوم .

— آه ! قل لها ... لا ، لا ضرورة ... لا ضرورة لأن تقول شيئا ...

وداعا ... وداعا !

ــ وداعا ياجريجورى ميهالتش .. دعنى أقول لك كلمة واحدة أخيرة . مازال لديك بعض الوقت لتسمعنى ، فقطارك لن يتحرك قبل نصف ساعة . انك عائد الى روسيا .. وستعمل هناك .. عندما يئون الاوان . فاسمح لثرثار عجوز ــ فلست مع الاسف الا ثرثارا ــ كى يقدم اليك نصيحة قبل ذهابك . كلما شرعت فى عمل جديد فاسأل نفسك : هل تخدم بهذا العمل قضية المدنية بالمعنى الدقيق الصحيح لهذه الكلمة ؟ هل تسعى لتحقيق مبدأ من مبادىء المدنية ؟ وهل لنشاطك تلك الصبغة الاوربية المتنورة التى لاينفعنا غيرها الآن ؟ فان كان كذلك فسر على بركة الله ! ثم احمد الله لأنك لست وحدك الآن . لن تكون « باذرا فى الصحراء» ، فبيننا الآن كثير من العاملين ... من الرواد ... ولكنك يجب أن تسرع الآن . وداعا ، لا تنسنى !

هبط لتفينوف الدرج مسرعا ، وارتمى فى عربة ، وقصد الى المحطة دون أن يلتفت مرة واحدة الى المدينة التى ترك فيها شطرا كبيرا من حياته ومن نفسه . كان كرجل أسلم نفسه الى موجة عالية فاختطفته وحملته وهو عازم كل العزم الا يقاومها ، مضرب عن كل محاولة أخرى لاثبات ارادته .

وبينما كان يهم بدخول عربة القطار سمع من خلفه همسة ضارعة :

ــ جريجورى ميهالتش ... جريجورى ...

وانتفض .. أيمكن أن تكون ايرينا ؟ .. أجل ، انها هى . كانت واقفة على الرصيف تنظر اليه بعينين خابيتين ، وقد تلفعت بشال خادمتها ، ووضعت على شعرها المشعث قبعة سفر .

كانت العينان تقولان : عد ، عد ، لقد جئت من أجلك . وأى وعود كانتا تعدان ! لم تتحرك ، ولم تقو على أن تزيد كلمة واحدة ، ولكن كل ما فيها ، حتى ثيابها المهوشة ، بدا وكأنه يدعو مسترحما ...

وكاد لتفينوف ينهزم ، وبلأى ما استطاع أن يمنع نفسه من الاندفاع اليها ... ولكن الموجة التى أسلم نفسه اليها استعادت سلطانها . فقفز الى داخل العربة ، والتفت مشيرا لايرينا الى الكرسى بجانبه . وفهمت . لم يفت الوقت . خطوة واحدة ، حركة واحدة ، واذا بحياتين ، وحدتا الى الابد ، تغيبان فى البعد المجهول ...

وبينما هى فى ترددها ارتفع صفير عال ، وتحرك القطار. وتداعى لتفينوف على مقعده ، بينما سارت ايرينا مترنحة الى كرسى ، فتهالكت عليه . ورآها موظف دبلوماسى صغير كان يتسكع فى المحطة ، فذهل .. كان يعرف ايرينا معرفة جد عابرة ، ولكنه كان شديد الاعجاب بها ، ولما رآها مستلقية كالمغشى عليها ظنها أصيبت une attaque de nerfs (١) ، ومن ثم رأى واجبا عليه باعتباره un galant chevalier (٢) أن يخف لنجدتها . لكن دهشته تضاعفت حين هبت لأول كلمة وجهها اليها ، ودفعت ذراعه التى قدمها لها ، وخرجت الى الشارع لا تلوى على شىء . ولم تلبث أن اختفت فى ضبابة بيضاء كثيفة من ذلك الضباب الذى يميز جو الغابة السوداء فى مطلع الخريف .

(١) « نوبة عصبية » .
(٢) « فارسا شهما » .

اتفق لنا مرة أن دخلنا كوخ امرأة فلاحة فقدت منـذ قليـل وحيدها الحبيب ، وشد ما دهشنا حين رأيناها هادئة كل الهدوء ، تكاد تكون فرحة . فقال لنا زوجهـا حين لاحظ دهشتنا : « دعوها ، فهى الآن لاتحس » . وهكذا فقد لتفينوف احساسه ، فهبط عليه ذلك الهدوء الميت أثناء الساعات الاولى من رحلته . لقد كان محطم النفس ، شديد البؤس ، ولـكنه كان يستريح . كان يستريح بعد عذابات الاسبوع الماضى ووساوسه ، والضربات التى توالت على رأسه ، وضاعف من شدتها عليه انه لم يكن مستعدا بطبعه لمثل هذه العواصف . انه الآن لايرجو شيئا فى الواقع ، ولـكنه يحاول أن ينسى الماضى . أن ينسى الماضى ، هذا هو المهم . انه ذاهب الى روسيا . فلابد أن يذهب الى مكان ما ، ولـكنه لم يعد يرسم لنفسه خطة ، فهو لايعرف نفسه ، ولا يفهم أفعاله ، وكأنما فقد نفسه الحقيقية ، والحق أنه أصبح قليل الاهتمام بهذه النفس . وكان يخيل اليه أحيانا أنه من المحال أن يسمح رجل (رجل !) لنفسه بأن يخضع هذا الخضوع للمرأة ، للحب ... فيتمتم : « يا للضعف المزرى ! » وينفض معطفه ، ويعتدل فى جلسته ، وكأنه يقول : ان الماضى قد انتهى ، فلنبدأ من جديد .. وما هى الا لحظة واحدة حتى يبتسم ابتسامة مرة ، ويتعجب من حاله .

وجعل ينظر من نافذة القطار .. كان الجو أغبر رطبا ، لامطر فيه ، ولكن الضباب لاينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء . وهبت الريح فى مواجهة القطار ، فاندفع أمام النافذة التى جلس اليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة . وأخـذ لتفينوف يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ، ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتلوى وتتعلق بالاعشـاب والشجيرات ، وكأنها تلعب فى احدى المساخر . ثم تتعدد وتذوب فى

الفضاء ... كانت تتبدل دائما وهى لا تزال كما هى.. لعبة سريعة سخيفة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمنة أو يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة . ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الرين الفسيح . حدق وحدق ، واستولى عليه شرود غريب... كان وحيدا فى المقصورة ، لم يكن هناك من يزعجه، فردد مرات عديدة : دخان ، دخان . وفجأة بدا له كل شىء دخانا — كل شىء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل ما هو بشرى، وعلى الخصوص كل ما هو روسى . الكل دخان وبخار — هكذا قال لنفسه — كل شىء يبدو دائم التغير فى كل مكان أشكال جديدة ، أحداث بعد أحداث ، وكل شىء كما هو فى الصميم . كل شىء يسرع طائرا الى وجهة ما ، وكل شىء يتلاشى دون أن يترك أثرا أو يبلغ أمرا . وتتغير الريح ، فيسرع كل شىء فى الاتجاه المضاد ، وهناك تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلقة العقيمة . وتذكر كثيرا مما شاهده بنفسه فى السنوات الاخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج ، فهمس : دخان . دخان . وتذكر الجدل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف ، وعند أناس آخرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، والتقدميون والرجعيون . فردد : دخان ، بخار ودخان . وتذكر أخيرا تلك النزهة الأنيقة ، وتذكر خطبا وتصريحات لأشخاص آخرين يعدون أنفسهم كبرى المناصب — حتى كل مواعظ بوتوجين ... دخان، دخان ، لا شىء أكثر من دخان . وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه ؟ لم يستطع لتفينوف الا أن يلوح بيده فى قنوط .

هذا والقطار ينساب وينساب . وقد خلف راشتات وكارلسروهة وبروكسال منذ زمن طويل ، وانفرجت الجبال عن يمين الخط ، وتراجعت الى الفضاء البعيد ، ثم اقتربت ثانية ، ولكنها كانت أقل ارتفاعا ، والغابات التى تكسوها أقل كثافة .. وانثنى القطار فى المحطة المسقوفة واذا بأصوات باعة الجرائد يحملون كل أنواع الصحف حتى الروسية . وأخذ المسافرون يتحركون فى مقاعدهم ويهبطون الى الرصيف ، ولكن لتفينوف لم يغادر ركنه ، بل ظل جالسا فيه مطرق الرأس . وفجأة ناداه شخص باسمه ، فرفع بصره . كان بنداسوف يطل بمحياه الكريه من النافذة ، وكانت وراءه — أم كان يحلم ؟ كلا ، بل كان كل من وراءه وجوها

مألوفة من بادن : مدام زوها نتشيكوف ، وفوروشيلـــــــوف ، وبمبايف . وكانوا كلهم يتحركون نحوه ، بينما زعق بنداسوف :

— أين بشتشالـكن ؟ لقد كنا ننتظره . سيان على كل حال . نط يا زواغ نحن ذاهبون جميعا الى جوباريوف .

وقال بمبايف مؤكدا وهو يشق طريقه اليه :

— نعم يابنى ، نعم . ان جوباريوف ينتظرنا . نط !

ولولا حمل ثقيل على قلب لتفينوف لاستشاط غضبا . ولـكنه نظر الى بنداسوف وأشاح بوجهه دون أن يتكلم .

فصرخت مدام زوها نتشيكوف وعيناها تقفزان من راسها قفزا :

— ألا تسمع ؟ ان جوباريوف هنا !

فلم يحرك لتفينوف ساكنا .

وبدأ بمبايف يقول أخيرا :

— استمع — بالله — يا لتفينوف! ليس جوباريوف وحده هنا. ان هنا فرقة كاملة من ألمع الشـــبان الروس وأذكاهم — وكلهم يدرسون العلوم الطبيعية ، وكلهم شرفاء مخلصون ! حقا يجب أن تعرج على هذا المـكان ، ولو من اجل هؤلاء . هنا مثلا شخص يدعى .. ياسلام ! نسيت اسمه . ولكنه عبقرى ، عبقرى !

فقاطعته مدام زوها نتشيكوف :

— أوه ، دعه دعه ياروستيسلاف أردااليونوفتش . دعه ! انت ترى أى مخلوق هو ، وأسرته كلها مثله . له عمة كنت اظنها اول الأمر سيدة عاقلة ، ولكنى سافرت معها أول أمس —كانت حضرت الى بادن منذ قليل ، وفى غمضة عين رجعت — المهم ، كنا فى القطار معا وبدأت أسألها ... فهل تصدقون انى لم أستطع الفوز بكلمة من ذلك الجماد ؟ ارستقراطية فظعة !

كابيتولينا ماركوفنا المسكينة أرستقراطية ! أكان يمكنها أن تتوقع مثل هذه الاهانة ؟

ولـكن لتفينوف ظل صامتا ، وأشـــاح بوجهـــه عن الجماعة ، وجذب قبعته على عينيه . واخيرا تحرك القطار . فصاح بمبايف :

— طيب ، قل شيئا على سبيل الوداع ، ياحجر ، النـــــاس لايتصرفون هكذا !

وصرخ بنداسوف :

— طفل ! ابله !

وازدادت سرعة القطار ، فأطلق بنداسوف شتائمه آمنا من العقاب :

ــ بخيل ! عفن ! مدود !

وسواء اخترع بنداسوف هذا اللقب الاخير عفوا أم كان قد تعلمه من أحد ، فقد أعجب اثنين من الشبان الشرفاء الذين يدرسون العلوم الطبيعية ، وكانا واقفين على قرب ، فظهر بعد أيام في الوريقة الدورية التى كانت تنشر آنذاك في هيدلبرج ، بعنوان : A tout venant je crache ! أو « لايهمنى » . (١)

وأخذ لتفينوف يردد مرة أخرى : « دخان ، دخان ، دخان!» وقال في نفسه : في هيدلبرج الآن اكثر من مائة طالب روسى ، كلهم يدرسون الكيمياء والطبيعة ووظائف الاعضاء ــ ولا يكادون يطيقون أن يذكر أمامهم شيء آخر ... وبعد خمس سنوات أو ست لن يوجد خمسة عشر طالبا يستمعون الى محاضرات الاساتذة المشهورين انفسهم . ستتغير الريح .. ويهب الدخان .. في اتجاه آخر ... دخان . دخان ... !

ومر قرب المساء بكاسل. وانقض عليه الألم مع الظلام كما ينقض العقاب ، وبكى وهو يدفن نفسه في ركن العربة ، فاضت دموعه طويلا ، لم تغسل قلبه ، بل زادت على عذابه الما مرا حارقا . وفي الوقت نفسه كانت تاتيانا راقدة في أحد فنادق كاسل ، وقد وقذتها الحمى ، وكابيتولينا ماركوفنا جالسة بجانبها تقول :

ــ تانيا ! بالله دعينى أبرق الى جريجورى ميهالتش ! دعينى أفعل يا تانيا !

فتجيب :

ــ لا ياعمتى ، يجب الا تفعلى . لا تخافى ، أعطينى قليلا من الماء ، سأشفى بعد قليل .

وكان بعد أسبوع أنها تماثلت للشفاء ، فواصلت الصديقتان رحلتهما .

---

(١) هذه حقيقة تاريخية .

عاد لتفينوف الى ضيعته دون أن يعرج على بطرسبرج أو موسكو . وفزع حين رأى أباه ، فقد كان ضعيفا متداعيا . أما الشيخ ففرح بعودة فتاه ، كما يفرح رجل فى أخريات أيامه ، وأسلم اليه من فوره ادارة الضيعة . وكانت فى حال سيئة ، وامتدت حياته بضعة أسابيع أخرى. ثم فارق هذا الكوكب الارضى. وبقى لتفينوف وحيدا فى داره الصغيرة القديمة ، وبدأ زراعته بقلب مثقل ، وبلا رجاء ولا حماس ولا مال . والزراعة ــ كما يعلم الكثيرون ــ عمل لابهجة فيه ، فلن نطيل القول عما لقيه لتفينوف فيها من عناء . أما الاصلاحات والابتكارات فلم يكن ثمة مجال للتفكير فيها ، ولم يكن بد من ارجاء التطبيق العملى لما حصله فى الخارج الى أجل غير محدود ، واضطره الفقر الى أن يتحايل على الايام ، ويتسامح فى كثير من الامور المادية والمعنوية . كانت المبادىء الجديدة لم ترسخ أصولها بعد ، والمبادىء القديمة قد فقدت كل قوة . كان الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذى اهتز من اساسه يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك الا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية . لم يكن بد من الصبر أولا ، الصبر فى غير سلبية بل ايجابية مثابرة ، لا تخلو من مكر وحيلة . وضاعفت حالة لتفينوف النفسية صعوبة الأمور. لم يبق فيه الا قليل من ارادة الحياة .. فأين له بارادة العمل والجهاد ؟

لكن مضى عام بعده عام ، وبدأ عام ثالث . وكانت الفكرة العظيمة (١) تتحقق رويدا رويدا ، وتكتسب لحما ودما ، كان الشطء قد نبت من الحب المبذور ، ولم يعد أعداؤه الظاهرون أو المستترون بقادرين على أن يطئوه بالاقدام . ومع أن لتفينوف انتهى بتأجير القسم الاكبر من الارض للفلاحين على نظام المزارعة ــ أى عاد الى الطرق البدائية الفقيرة ــ فقد نجح فى بعض مشروعاته : فتح المصنع من جديد ، وبدأ مزرعة صغيرة بخمسة عمال ــ وقد

(١) فكرة تحرير الفلاحين .

جرب أربعين حتى اختار هؤلاء الخمسة — وسدد ديونه الخاصة الكبرى ... وتماسكت نفسه حتى استعاد مشابه من لتفينوف القديم . صحيح ان كآبة دفينة لم تفارقه قط ، وانه كان أهدأ من سنه . وأنه حبس نفسه فى دائرة ضيقة ، وقطع كل علاقاته القديمة ... ولكن تلك الاستهانة الميتة ذهبت . وعاد يتحرك ويعمل كرجل حى بين الأحياء ، وذهبت آخر آثار ذلك السحر الذى أحاط به ، وبدا له كل ماحدث فى بادن غائما كالحلم ... وايرينا ؟ حتى هى شحبت واختفت ، الا احساسا غامضا بالخطر كان يشعر به لتفينوف تحت الضبابة التى أخذت تكتنف صورتها . وكانت تصل اليه فى الحين بعد الحين أخبار عن تاتيانا . فعلم أنها تعيش مع عمتها فى ضيعتها التى تبعد عنه بمائة وستين ميلا ، وأنها تحيا حياة جد هادئة ، ولا تخرج الا قليلا ، ولا تكاد تستقبل ضيوفا — ولكنها بخير وعافية .

وفى يوم جميل من أيام مايو كان جالسا فى مكتبه ينظر بغير اهتمام فى صفحات العدد الاخير من مجلة بطرجية ، حين دخل خادمه على قدوم عم عجوز. كان هذا العم قريبا لكابيتولينا ماركوفنا ، وقد زارها حديثا ، وكان قد اشترى ضيعة قريبة من ضيعة لتفينوف . فمر عليه فى طريقه . ولبث مع ابن أخيه يوما كاملا ، وحدثه طويلا عن معيشة تاتيانا . فلما رحل فى اليوم التالى أرسل اليها لتفينوف رسالة كانت الاولى منذ فراقهما . سألها أن تأذن له فى تجديد تعارفهما ولو بالمراسلة ، كما رغب أن تخبره أن كانت يجب عليه الا يفكر فى رؤيتها ثانية . ولم يكن انتظاره للجواب خاليا من قلق واضطراب ... وأخيرا جاء الجواب . لقد رحبت تاتيانا بطلبه ، وختمت رسالتها بقولها : اذا كنت ترغب فى زيارتنا فمرحبا بك ، أنت تعلم المثل : « الشركة خير حتى فى البلوى». كما كتبت اليه كابيتولينا ماركوفنا تحييه . وأصبح لتفينوف سعيدا كالطفل ، فما خفق قلبه منذ زمن طويل فرحا لشىء كما فرح الآن . أحس فجأة بالبهجة والمرح ... كذا الشمس لا تكاد تشرق وتجلى ظلمة الليل حتى يرف على وجه الارض المنتعشة نسيم لطيف . وظل لتفينوف يبتسم طول النهار حتى وهو فى مزرعته يلقى أوامره . وأخذ يستعد من فوره للرحلة . وبعد أسبوعين كان فى طريقه الى تاتيانا .

سار بعربته مبطئا . فى طرق جانبية ، دون مغامرات . وحدث مرة أن انكسر اطار احدى العجلتين الخلفيتين . فأخذ الحداد يطرقه ويلحمه وقتا طويلا ، وهو يلعن الاطار ويلعن نفسه معا ، ثم انتهى بأن يئس منه . ولحسن الحظ ظهر أن المرء فى بلادنا يستطيع أن يسافر دون عناء باطار مكسور ، وخصوصا اذا كان مسافرا « على لين » ، أى على الطين . على ان لتفينوف التقى فى رحلته هذه بأناس ما كان يتوقع لقاءهم . فشهد بعد مرحلة من الطريق جلسة « لقضاة التحكيم » وكان يرأسهم بشتشالكن الذى بدا له أشبه بصولون أو سليمان الحكيم ، اذ كانت عباراته موسومة بطابع الحكم الغوالى ، وكان ملاك الأرض والفلاحون على السواء يظهرون له غاية التبجيل... وحتى منظره بدا أشبه بحكماء الاقدمين ، فقد انجرد شعره عن يافوخه ، وانتفش وجهه حتى بدا كخميرة من الفضائل الرابية ... وقد رحب بمقدم لتفينوف « الى اقليمى ، ان جاز لى أن أستعمل مثل هذا التعبير الجرىء . » ثم غرق فى الصمت ، كأنما أخذته نوبة من المشاعر الطيبة . على أنه نجح فى أن ينهى اليه خبرا . وكان هذا الخبر عن فوروشيلوف ، فقد عاد بطل اللوحة الذهبية للخدمة العسكرية ، وتمكن فعلا من القاء محاضرة بين ضباط كتيبته فى موضوع « البودزم » — أو « الدينامزم » — لم يستطع بشتشالكن أن يجزم بأيهما . وانتظر لتفينوف فى المحطة الثانية طويلا حتى تسرج الخيل . وكان الوقت سحرا ، والنعاس يخامره وهو جالس فى عربته ، حين أيقظه صوت بدا له مألوفا ، وفتح عينيه ... يا للسماء ! أليس هذا هو جوباريوف فى سترة شهباء كالتي يلبسها البحارة ، وسراويل نوم فضفاض ، واقفا على درج المحطة ، يسب ويلعن ؟.. لا ، انه لم يكن جوباريوف ... ولكن ما أتم الشبه بينهما !.. لولا أن هذا السيد كان أضخم فكا ، وأبرز نواجذ ، وكانت نظرات عينيه الكابيتين أشد توحشا ، كما كان أنفه أكبر ، ولحيته أكث ، ووجهه كله أغلظ وأشد تنفيرا .

جأر ببطء وحنق ، فاغرا فاه الذى يشبه فم الذئب :

ــ حيوانات ! حيوانات ! فلاحون بهائم !.. هــذه هى الحرية التى تتباهون بها ... الخيل لا نستطيع أن نجدها ...

ــ حيوانات ، حيوانات !

انبعث هذا الصوت الآخر من وراء البــاب ، وفى الوقت نفسه ظهر على الدرج فى سترة شهباء كالتى يلبسها البحارة وسراويل فضفاض أيضا ــ جوباريوف الحقيقى هذه المرة ، جوباريوف نفسه ، ستيبــان نيكولايفتش جوباريوف ، لاشــك فى ذلك . استمر يقول مقلدا أخاه (وقد ظهر أن السيد الاول كان أخاه الاكبر ، رجــل المدرسة القديمة المشهورة بعنف قبضتيه ، والذىكان يدير ضيعته) :

ــ بهائم ! دواؤهم الجلد ، اسمع كلامى . لــكمة أو لكمتان فى الانف ، هذه هى الحرية التى تلائمهم... قال « رئيسالفولوست» قال (١) ... والله عال . سأعرفكم من رئيس الفولوست .

ولــكن أين هذا المسيو روستون ؟.. ماذا دهاه ؟.. هذا عمله.. الصعلوك الــكسلان ... كيف لا يجنبنا هذه المضايقات ؟

فبدأ جوباريوف الاكبر يقول :

ــ يا أخى ألم أقل لك دائما انه لاينفع ؟ صعلوك كسلان ، هكذا هو ! ولــكن من أجل أفكارك القديمة ... موسيو روستون ! موسيو روستون ! أين ذهبت ــ عليك اللعنة !

وجار الاصفر ، جوباريوف العظيم :

ــ روســتون ! روســتون ! ازعق عليه زعقــة طيبــة يا أخى دوريميدونت نيكولايتش !

ــ حسنا ، انى أصيح به ياستيبان نيكولايتش ! مســــــيو روستون !

فسمع صوت معجل :

ــ هأنذا . هأنذا !

ومن خلف ركن المحطة وثب ... بمبايف .

فكتم لتفينوف شهقة . كان المتحمس المسكين يضطرب اضطرابا محزنا فى سترة مطرزة بالية ممزقة الــكمين ، أما ملامحه فلم تتغير على التحقيق ولــكنها امتطت والتوت ، وكانت عينــاه الصــفيرتان اللتان استولى عليهما القلق تعبران عن وجل ذليل وخضوع جائع ،

(١) « الفولوست » فى روسيا قبل الثورة ، صورة من صور الحكومة اللامركزية تشبه المجلس المحلى فى مصر .

ولم يزل شاربه المصبوغ يبرز كسابق عهده فوق شفتيه المنتفختين . ما كاد يظهر حتى أخذ الشقيقان يعنفانه معا من أعلى الدرج . فتوقف دونهما فى الطين وقد حنى ظهره فى ضراعة ، وحاول أن يتملقهما بابتسامة صغيرة عصبية ، وهو يعجن قبعته بين أصـابعه الحمراء ، ويداول بين قدميه ، ويتمتم أن الخيل ستحضر بعـد قليل ... ولـكن الاخوين لم يسكنا حتى وقع بصر أصغرهما على لتفينوف ، وسواء أعرف لتفينوف أم أحس بالخجل امام أجنبى ، فقد دار على عقبيه مسرعا كالدب ، ودخل المحطة وهو يقرض على لحيته ، وامسك أخوه عن الـكلام من فوره ، وتبعه وهو يدور كالدب أيضا. انجوباريوف العظيم لم يفقد سلطانه حتى فى وطنه.

وهم بمبايف أن يتبع الاخوين ... فنـاداه لتفينوف باسمه . فالتفت ، ورفع راسه ، وعرف لتفينوف ، فطار اليه طيرانا وقد بسط ذراعيه . ولـكنه حين وصل الى العربة أمسك ببابها وسند صدره عليه وانفجر باكيا بدموع غزيرة .

فقال لتفينوف وهو ينحنى عليه ويربت على كتفه :

ــ هون عليك يا بمبايف !

لـكنه استمر فى البكاء ، وتمتم بين شهقاته :

ــ انت ترى ... أنت ترى ... الى أى ...

وزار الاخوان فى السقيفة :

ــ بمبايف !

فرفع بمبايف راسه ، ومسح دموعه عجلا وهمس :

ــ مرحبا ، مرحبا أيها الحبيب ، ووداعا !.. أنت سامع ، انهما يناديانى .

فسأل لتفينوف :

ــ ولـكن أى مصادفة جاءت بك الى هنا ؟ وما معنى هذا كله؟ لقد ظننتهما يناديان رجلا فرنسيا .

فأجاب بمبايف وهو يشير الى السقيفة :

ــ اننى ... مدير منزلهما ... رئيس الخدم . وقد أصبحت فرنسيا على سبيل المزاح . ماذا كنت استطيع عمله يا أخى ؟ لم أجد ما آكله . أضعت آخر فلس . هكذا يضطر المرء أن يضـع راسه فى النير . نزلت عن كبريائى لأعيش .

ــ وهو... اهو في روسيا منذ وقت طويل ؟ وكيف ترك رفاقه؟

ــ آه يابنى ! هذا كله راح وانتهى ... الريح تغيرت ــ كما

ترى . مدام زوهانتشيكوف ... ماتروناسميونوفتا .... طردها شر طردة . فسافرت حزينة الى البرتغال .
ــ البرتغال ؟ غريبة !
ــ نعم يا أخى : الى البرتغال ، مع اثنين من الماتروفيين .
ــ مع من ؟
ــ الماتروفيين . هذا اسم أعضاء حزبها .
ــ هل لماترونا سميونوفتا حزب ؟ حزب كبير ؟
ــ حسنا . انه مؤلف من هذين العضوين بالتحديد . أما هــو فله هنا ما يقرب من ستة اشهر . غيره اعتقلوا ، ولـكنه لم يصب بسوء . انه يعيش فى الريف مع أخيه ، ويا ليتك سمعته الآن..
ــ بمبايف !
ــ حاضر ياستيبان نيكولايتش ، حاضر . وأنت أيهـا العجوز ! مستريح ؟ مبسوط ؟ الحمد لله على ذلك ! أين تذهب الآن ؟.. ياسلام !.. ولا كان على البــال ... أتذكر بادن ؟ آه ! كانت أيام ! وبالمناسبة : تذكر بنداسوف أيضا ؟ مات .. تصدق ؟.. وجد وظيفة فى مصلحة الدمغة ، وكان فى احدى الحانات فدخل فى عركة ، وشجوا رأسه بعصا بليارد . نعم ، نعم ، كذا حال الدنيا ! ولـكنى سأقول دائما : روسيا ! يالها من بلد ! انظر الى هاتين الأوزتين ! ليس فى أوربا كلها ما يشبههما ! اوزتان ماسيـــتان أصيلتان !

وبعــد أن أدى بمبايف ما يجب عليه لتحمسه الذى لا يفتر ، أسرع الى المحطة حيث كان اسمه ينادى مرة أخرى بنعوت بذيئة.

وعند الأصيل شـــارف لتفينوف ضيعة تاتيانا . وكان المنزل الصغير الذى تقيم به خطيبته السابقة رابضا على سفح جبل يجرى من تحته جدول صغير ، وتحيط به حديقة حديثة الغرس. وكان المنزل حديث البناء أيضا ، يرى من مسافة بعيدة عبر النهر والخلاء . وقع نظر لتفينوف عليه من بعد يزيد عن ميل ونصف ، بزواياه المستقيمة ، ونوافذه المتوازية الصغيرة التى كانت تلمع حمراء فى شمس الاصيل . وكان قد أحس بقلق خفى حين غادر المحطــة الاخيرة ، والآن ملأه الاضطراب ، جاشت نفسه بفرحة مازجهــا خوف . سأل نفسه : كيف يقابلانى ؟ وكيف اقترب منها ؟ ولكى يشغل نفسه أخذ يتحدث مع ســـائقه ، وكان فلاحا رزينا أشيب اللحية ، طلب منه ــ على الرغم من شيبه ورزانته ــ أجر خمسة

وعشرين ميلا مع أن المسافة كانت عشرين .. سأله : أيعرف جماعة شستوف ؟

ـ جماعة شستوف ؟ نعم ، سيدتان طيبتان ، نعم الناس ! تطبباننا أيضا . اى والله ، انهما طبيبتان ! الناس يذهبون اليهما من المنطقة كلها . اى والله ، ناس مالها عدد . مثلا اذا واحد مرض ، أو جرح ، أو أى شيء ، يذهب اليهما توا ، فيعطيانه شرابا أو مساحيق أو لزقة ، ويطيب . الدوا ينفع . ولا تأخذان أى نقود . تقولان : نحن لا نفعل هذا من أجل النقود ... وعندهما مدرسة أيضا ... لكن ما فائدة المدرسة ؟

ولم يرفع لتفينوف عينيه عن المنزل بينما كان السائق يتكلم . وبرزت الى الشرفة امرأة فى ثياب بيض ، وقفت قليلا ، ثم اختفت... ألم تكن هذه اياها ؟ كاد قلبه يطفر ، وصاح بالسائق :

ـ أسرع ، أسرع !

واستحث السائق الجواد . وبعد لحظات أخرى ... دخلت العجلة من البوابة المفتوحة ... كانت كابيتولينا ماركوفنا واقفة على الدرج ، تصفق بيديها وتصيح وهى تكاد تطير فرحا : « أنا عرفته . عرفته قبلك ! هو ! هو !.. عرفته ! »

قفز لتفينوف من العربة قبل أن يستطيع الغلام المقبل فتح بابها ، وعانق كابيتولينا ماركوفنا مسرعا ، واندفع الى المنزل ، وعبر البهو ، ودخل حجرة الطعام ... كانت تاتيانا واقفة أمامه ، وقد تورد وجهها خجلا . نظرت اليه بعينيها الحنونين اللطيفتين (كانت اكثر نحولا ، ولكن ذلك زادها جمالا) ، ومدت اليه يدها . لكنه لم يتناول يدها ، بل سقط على ركبتيه أمامها . ولم تكن تتوقع هذا ، فلم تدر ماذا تقول أو تفعل .. واغرورقت عيناها بالدموع. لقد ذعرت ، ولكن وجهها كله كان يتألق بشرا.. قالت : « جريجورى ميهاليتش ! ما هذا ياجريجورى ميهاليتش؟» وهو لايزال يقبل طرف ردائها ... وتذكر فى غمرة من حنان أنه ركع على ركبتيه أمامها فى بادن كما يركع الآن ... آنذاك ـ والآن ! شتان ما بين المرتين !

ردد :

ـ تانيا ! تانيا ! هل عفوت عنى يا تانيا ؟

فصاحت تانيا ملتفتة الى كابيتولينا ماركوفنا وقد دخلت الحجرة :

ـ عمتى ، عمتى ، ما هذا ؟

فأجابت السيدة العجوز الطيبة :

ـ لا تمنعيه يا تانيا . لا تمنعيه . انه جاء تائبا !

وبعد ، فقد آن لنا أن نختم قصتنا ، والحق أن ليس هناك شيء يزاد . يستطيع القارىء أن يحدس الباقى بنفسه ... ولكن ماذا عن ايرينا ؟

انها لا تزال فاتنة رغم أعوامها الثلاثين ، يشغف بها شباب لايحصون عددا ، وكان يمكن أن تشغف آخرين لو ... لو ... أيها القارىء ، ألا تعرج معنا دقائق على بطرسبرج ، لندخل منزلا من أجمل المنازل هناك ؟ انظر، ان امامك بهوا فسيحا ، ولا نقول انه فاخر الرياش ، فذلك تعبير يقصر عن وصفه ، ولكن نقول انه رائع بارع مهيب . أتعروك هزة من الخضوع ؟ اذن فاعلم انك دخلت معبدا ، معبدا كرس للسلوك النبيل ، والنبل المحسن ، أو باختصار : لصفات عليين ... ان سكونا «كاتما للأسرار» يحتويك : فالسجف المخملية على الابواب ، والستر المخملية على النوافذ ، والبسط الوثيرة على الارض ـ كل شيء كأنه قدر تقديرا ليخفت كل صوت خشن ، ويلطف كل احساس عيف . والمصابيح المهندسة الضوء توحى بعواطف هادئة وقور . والهواء المحبوس يتخلله أريج مهذب . حتى السماور على المائدة يئز أزيزا مكتما خجلا . ان سيدة الدار ـ وهى شخصية هامة فى مجتمع بطرسبرج ـ تتحدث حديثا لايكاد يسمع ، فهى دائما تتكلم وكأن فى الحجرة مريضا مدنفا يكاد يحتضر . والسيدات الاخريات يقلدنها فلا يكدن يهمسن ، بينما تحرك أختها شفتيها ـ وهى تصب الشاى ـ حركات لا صوت لها ، حتى يحار الشاب الجالس امامها ، وقد ألقته المصادفة فى معبد الآداب ، فهو عاجز عن فهم ما تريده منه ، بينما هى تنفث للمرة السادسة :

(١) Voulez - vous une tasse de thé ?

وفى الاركان شبان عليهم وسامة ، عيونهم تلمع بتذلل رقيق ، وسيماهم متعلقة فى وداعة وجلال ، وصدورهم يلمع عليها ـ بلطف ـ عدد من النجوم والصلبان . والحديث دائما لطيف يدور حول موضوعات دينية ووطنية : « النقطة الصوفية » لف.ن. جلنكا ، بعثتنا التبشيرية فى الشرق ، الأديرة والاخوان فى روسيا البيضاء .

---

(١) « هل تريد قدحا من الشاى ؟ » .

أحيانا يتحرك خدم فى حلل رسمية ، يخطون خطوا ملثما على البسط اللينة ، وكلما خطوا ارتعشت ـ بلا صوت ـ ربلاتهم الضخمة التى غلفت بجوارب حريرية ضيقة ، فيزيد ارتعاش الهيبة فى العضلات الصلاب ما يقع فى النفس من احتشام المكان ووقاره وقدسيته .

انه معبد ، معبد !

سألت احدى السيدات العظيمات برقة :

ـ هل رأيت مدام رأتميروف اليوم ؟

فأجابت ربة الدار بنغم أثيرى كأرغن عوليس :

ـ لقيتها اليوم عند ليز . انى آسفة لها . فهى مرة الروح .
Elle n'a pas la foi. (١)

ـ أجل ، أجل . اذكر أن هذا ما قاله عنها بيوتر ايفانتش. وانه لحق ... qu'elle set. quelle est. (٢) مرة الروح .

فانبعث صوت ربة الدار كأنه البخور :

ـ Elle n'a pas la foi, C'est une âme egarée. (٣) . انها مرة الروح .

فتردد أختها بشفتيها فقط : انها مر الروح .

لهذا لم يقع الشبان جميعا بغير استثناء فى هوى ايرينا ... فهم يخافونها... يخافون روحها المرة... وهذه هى القالة الشائعة عنها . وفيها ، كما فى كل قالة ، نصيب من الصحة . ولا يخافها الشبان وحدهم ، بل الناضجون فى السن ، ذوو المناصب العالية ، وحتى « الشخصيات » الكبيرة أيضا ، فلا أحد يضارعها فى قدرتها النافذة على أن تلمح الجانب المضحك أو الوضيع فى نفسية شخص ما ، ولا أحد غيرها يستطيع أن يدمغه ـ فى غير رحمة ـ بالكلمة التى لا تنسى ... وأن لذع هذه الكلمة ليزداد حدة اذ تخرج من بين شفتين عاطرتين جميلتين ... عسير أن تقول ماذا يجرى فى قلبها ، ولكن الاراجيف لا تثبت بين عشاقها الكثيرين حبيبا تعزه .

زوج ايرينا يتنقل مسرعا فى ذلك الطريق الذى يسميه الفرنسيون طريق المجد . وقد سبقه الجنرال السمين وتخلف عنه الجنرال

(١) « فاقدة الايمان » .
(٢) « انها .. انها .. » .
(٣) « انها فاقدة الايمان ، روح ضالة » .

المتسامح . ويعيش فى المدينـــة التى تعيش فيهـــا ايرينا صـــديقا سوزونت بوتوجين ، ولايراها الا نادرا ، فليس ثمة ضرورة معينة تلزمها الابقاء على صلتهما ... لأن البنت الصغيرة التى كانت فى رعايته قد ماتت منذ زمن غير بعيد .

تمت